



عناصر الموضوع

مفهوم الاضطرار	٨
الاضطرار في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
اعتبار الاضطرار في القرآن الكريم	١٣
حقيقة الاضطرار	١٦
من صور الاضطرار	١٨
شروط تحقق الاضطرار	٢١
مقاصد الشريعة في اعتبار الاضطرار	٢٦



مفهوم الاضطرار

أولًا: المعنى اللغوي:

الاضطرار: الاحتياج إلى الشيء، يقال: اضطر فلانٌ إلى كذا، من الضرورة، وقد اضطره إليه أمرٌ، ورجلٌ ذو ضارورةٍ وضرورةٍ، أي: ذو حاجةٍ، وقد اضطر فلان إلى الشيء: أي ألجئ إليه، والضرورة اسمٌ لمصدر الاضطرار، تقول: حملتني الضرورة على كذا وكذا[(١)].

إذن فالاضطرار يدور معناه حول دنو الضيق والحاجة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «الاضطرار: حمل الإنسان على ما يضره»[(٢)].

وقال الجرجاني: «الضرورة: مشتقة من الضرر، وهو النازل مما لا مدفع له»[(٣)].

وهي عند الفقهاء: «بلوغ الإنسان حدًّا إن لم يتناول الممنوع هلك أو قارب، كالمضطر للأكل واللبس بحيث لو بقي جائعًا أو عريانًا لمات، أو تلف منه عضو، وهذا يبيح تناول المحرم»[(٤)].

وخلاصة القول: إن المتدبر في المعنيين اللغوي والاصطلاحي يجد اتصالًا وثيقًا بينهما، حيث إن المعنى الاصطلاحي هو أن الاضطرار يعني وصول الإنسان إلى درجة من الضيق واللجوء إلى مكروه، وهذا مرتبط بمعناه في اللغة الذي هو متمثلٌ في دنو الضيق والحاجة.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٦٠، لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٤٨٣.

(٢) المفردات، ص٥٠٤.

(٣) التعريفات، ص١٣٨.

(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية، ٢٨/ ١٩٨.



الاضطرار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (اضطر) في القرآن (٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣]
الفعل المضارع	٢	﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان:٢٤]
اسم مفعول	١	﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢]

وجاء الاضطرار في القرآن على معناه اللغوي: الحاجة، والضرورة، والإلجاء[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤١٩.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص١٨٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحاجة:

الحاجة لغةً:

«الحاء والواو والجيم أصلٌ واحد، وهو الاضطرار إلى الشيء، فالحاجة واحدة الحاجات، والحوجاء: الحاجة، ويقال أحوج الرجل: احتاج، ويقال أيضًا: حاج يحوج بمعنى: احتاج»[١].

الحاجة اصطلاحًا:

تعريف أحمد كافي: «ما يحتاجه الأفراد أو تحتاجه الأمة للتوسعة ورفع الضيق إما على جهة التأقيت أو التأبيد فإذا لم تراع دخل على المكلفين على الجملة الحرج والمشقة وقد تبلغ مبلغ الفساد المتوقع في الضرورة»[٢].

الصلة بين الحاجة والاضطرار:

أن الحاجة وإن كانت حالة جهد ومشقة فهي أقل من الاضطرار، ومرتبتها أدنى منها، كما لا يتأتى الهلاك بفقدها[٣].

قال الزحيلي: «الضرورة: ما يترتب على عصيانها خطر، أما الحاجة: فهي ما يترتب على عدم الاستجابة إليها عسر وصعوبة»[٤].

٢ المشقة:

المشقة لغةً:

يقال: شق عليه الشيء يشق شقًا ومشقة إذا أتعبه، فهي تعني الجهد والعناء والشدة والثقل[٥].

المشقة اصطلاحًا:

قال الراغب: «الانكسار الذي يلحق النفس والبدن»[٦].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٩١.
(٢) الحاجة الشرعية، أحمد كافي ص٣٣-٣٤.
(٣) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، ١٦/ ٢٤٧.
(٤) الفقه الإسلامي وأدلته، ١/ ١٢٨.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ١٨٣.
(٦) المفردات، ص٤٥٩.

الصلة بين المشقة والاضطرار:

يتبين أن الاضطرار أعلى درجات المشقة.

٣ الرخصة:

الرخصة لغة:

من رخص الراء والخاء والصاد أصل واحد، والرخصة مفرد وجمعها رخص ورخصات، والمقصود بها التيسير واللين والتسهيل والإذن في عمل ما[(١)].

الرخصة اصطلاحًا:

تغيير الحكم الأصلي إلى حكم آخر أيسر منه لوجود عارض معين[(٢)].

وقال الجرجاني: «اسمٌ لما استبيح بعذر مع قيام الدليل المحرم»[(٣)].

الصلة بين الرخصة والاضطرار:

يتبين أن الأخذ بالرخصة لا يكون إلا مع الاضطرار، فلا يؤخذ بالرخصة إلا إذا كان الإنسان مضطرًا.

٤ العزيمة:

العزيمة لغةً:

قال ابن فارس: «العين والزاء والميم أصلٌ واحد صحيحٌ يدل على الصريمة والقطع، يقال: عزمت أعزم عزمًا، ويقولون: عزمت عليك إلا فعلت كذا، أي: جعلته أمرًا عزمًا، أي: لا مثنوية فيه»[(٤)].

العزيمة اصطلاحًا:

ذكر الغزالي أنها: «عبارةٌ عما لزم العباد بإيجاب الله تعالى»[(٥)].

الصلة بين العزيمة والاضطرار:

لا شك أن الإنسان المضطر إذا أخذ بالعزيمة فإنه يعرض نفسه للهلاك، ولذلك يضطر إلى الرخصة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٥٠٠، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ٨٧٤.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي، ص٤٧٢.
(٣) التعريفات، ص ١١٠.
(٤) مقاييس اللغة، ٤/ ٣٠٨.
(٥) المستصفى، ص ٧٨.

٥ الإكراه:

الإكراه لغةً:

يقال: أكرهته، أي: حملته على أمرٍ هو له كارهٌ، والكره (بالفتح): المشقة، وبالضم: القهر، وقيل العكس، وأكرهته على الأمر إكراهًا: حملته عليه قهرًا. يقال: فعلته كرهًا «بالفتح» أي: إكراهًا»[(١)].

الإكراه اصطلاحًا:

الإكراه حمل الغير على ما يكرهه بالوعيد الشديد[(٢)].

الصلة بين الإكراه والاضطرار:

لا شك أن الإنسان المكره هو مضطر فالإكراه صورة من صور الاضطرار.

٦ الحرج:

الحرج لغةً:

بمعنى الضيق، يقال: حرج الرجل: أثم، وصدرٌ حرجٌ: ضيقٌ، ورجلٌ حرجٌ: آثمٌ، ويقال: تحرج الإنسان تحرجًا، أي: فعل فعلًا جانب به الحرج[(٣)].

الحرج اصطلاحًا:

ذكرت الموسوعة الفقهية الكويتية في تعريفه: «أنه يطلق على كل ما تسبب في الضيق، سواءٌ أكان واقعًا على البدن، أم على النفس، أم عليهما معًا»[(٤)].

الصلة بين الحرج والاضطرار:

تعد حالة الاضطرار من أعلى أنواع الحرج الموجبة للتخفيف.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٣٥٣، المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٥٣٢.
(٢) التوقيف، المناوي، ٨٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ٢٣٣.
(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية ١٧/ ١٦٨.



اعتبار الاضطرار في القرآن الكريم

يقتضي الحديث في هذا المطلب عن ذكر أدلة اعتبار الاضطرار في القرآن الكريم، بالإضافة إلى الحديث عن الحكمة من تذييل آيات الاضطرار بالمغفرة والرحمة.

أولًا: أدلة اعتبار الاضطرار في القرآن الكريم:

إن مما جعل لموضوع الاضطرار اعتبارًا في الشريعة الإسلامية مجموعة من آيات القرآن الكريم وهي كما يأتي:

١. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣].

٢. قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة:٣].

٣. قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام:١١٩].

٤. قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام:١٤٥].

٥. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل:١١٥].

ويلاحظ على هذه الآيات القرآنية أنها مدنية من جهة، كما أنها وردت في باب المحرمات من الأطعمة من جهة أخرى.

ثانيًا: حكمة تذييل آيات الاضطرار بالمغفرة والرحمة:

لقد ورد تذييل آيات الاضطرار بالمغفرة والرحمة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في بضع آيات من القرآن الكريم، وقد يتساءل البعض تساؤلًا مفاده: ما هي علاقة المغفرة والرحمة في مثل هذه المواضع، فالمغفرة والرحمة

تقتضيان ذنبًا فعله صاحبه ثم يتوب، ومن ثم يقبل الله عز وجل توبته فينعم الله تعالى عليه بالمغفرة والرحمة، فمثلًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣].

فما ذكر في الآية من تحريم الأطعمة الآتية:

١. الميتة التي ذبحت على غير شرع الله تعالى؛ لاحتباس الدم فيها وتوقع التضرر بها، لفساد لحمها وتلوثه بالأمراض غالبًا، فهي محرمة لاستقذارها، ولما فيها من ضرر.

٢. الدم المسفوح؛ لأنه ضار، وتأباه النفوس الطيبة، فهو حرام لقذارته وضرره أيضًا.

٣. لحم الخنزير؛ لأنه ضار، وخصوصًا أثناء الحر؛ ولأن النفوس الطيبة تأباه، فهو حيوان قذر لا يأكل غالبًا إلا من القاذورات والنجاسات، فيقذر لذلك؛ ولأن فيه ضررًا لحمله جراثيم شديدة الفتك؛ ولأن فيه كثيرًا من الطباع الخبيثة، وولوع بالنواحي الجنسية ولا يغار على أنثاه، وكسول بطبعه، والمتغذي يتأثر بتلك الطبائع، وتنتقل إليه بيوض الدودة الوحيدة الحلزونية التي قد تكون في خلايا عضلات جسمه، ولو تربى في أنظف الحظائر.

٤. ما ذبح لغير الله تعالى كأن تذبح للأصنام والأوثان والقبور ونحوها؛ لأنه من أعمال الوثنية، وفيه إشراك واعتماد على غير الله تعالى، وكان العرب في الجاهلية يذبحون للأصنام، ويقولون: باسم اللات والعزى، فهو حرام صيانة لمبدأ الدين والتوحيد وتعظيم الله عز وجل[(١)].

هذا كله من شرع الله عز وجل الذي يجب تنفيذه والالتزام به، وبعد هذا يذكر الله جل جلاله أن الميتة لا تحل إلا عند الضرورة، وهذا شرعه تعالى أيضًا، والإنسان المضطر حين يأخذ مما حرم عليه سابقًا على قدر ضرورته، فإن هذا هو إباحةٌ من الحق سبحانه وتعالى، فأين الذنب الذي ارتكبه المضطر ليستحق بها المغفرة والرحمة من الله عز وجل؟!

وللإجابة عن هذا التساؤل.

قال الإمام الرازي: «والجواب: من وجوه أحدها: أن المقتضي للحرمة قائم في الميتة والدم، إلا أنه زالت الحرمة لقيام المعارض، فلما كان تناوله تناولًا لما حصل فيه المقتضي للحرمة عبر عنه بالمغفرة، ثم ذكر بعده أنه رحيم، يعني لأجل الرحمة عليكم

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٧٨.

أبحت لكم ذلك، وثانيها: لعل المضطر يزيد على تناول الحاجة، فهو سبحانه غفورٌ بأن يغفر ذنبه في تناول الزيادة، رحيمٌ حيث أباح في تناول قدر الحاجة، وثالثها: أنه تعالى لما بين هذه الأحكام عقبها بكونه غفورًا رحيمًا؛ لأنه غفورٌ للعصاة إذا تابوا، رحيمٌ بالمطيعين المستمرين على نهج حكمه سبحانه وتعالى»[1].

وقال ابن عادل: «فإن قيل: قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ يناسب أن يقال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فإن الغفران، إنما يذكر عند حصول الإثم، فالجواب من وجوه:

أحدها: أن المقتضي للحرمة قائم في الميتة والدم إلا أنه زالت الحرمة؛ لقيام المعارض، فلما كان تناوله تناولًا لما حصل فيه المقتضي للحرمة، عبر عنه بالمغفرة، ثم ذكر بعده أنه ﴿رَّحِيمٌ﴾، يعني: لأجل الرحمة عليكم، أبحت لكم ذلك.

وثانيها: لعل المضطر يزيد على تناول قدر الحاجة.

وثالثها: إن الله تعالى، لما بين هذه الأحكام، عقبها بقوله تعالى: ﴿غَفُورٞ﴾ للعصاة، إذا تابوا، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالمطيعين المستمرين على منهج الحكمة»[2].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ تذييل قصد به الامتنان، أي: إن الله موصوف بهذين الوصفين فلا جرم أن يغفر للمضطر أكل الميتة؛ لأنه رحيم بالناس، فالمغفرة هنا بمعنى التجاوز عما تمكن المؤاخذة عليه لا بمعنى تجاوز الذنب، ونحوه ... ومعنى الآية: أن رفع الإثم عن المضطر حكم يناسب من اتصف بالمغفرة والرحمة»[3].

وعليه فإن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنب الذي يحدث من صاحبه بلا مناسبة تستدعيه، فمن باب أولى أن يغفر الله جل جلاله للذي أجبرته ظروف الضرورة على أكل المحرم، فالله تعالى غفورٌ رحيمٌ في الأصل، أفلا يغفر لمن أعطاه رخصة للضرورة التي ألجأته على تناول المحرم؟ فهو جل جلاله غفورٌ رحيمٌ، كتب المغفرة لمن اضطر وكسر قاعدة التحريم عند الاضطرار.

(١) مفاتيح الغيب، ٥/ ١٩٤.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ٣/ ١٨٠.
(٣) التحرير والتنوير، ٢/ ١٢١.

حقيقة الاضطرار

سبق بيان أن الاضطرار: هو الاحتياج الشديد، فالمضطر قد ألجأته الضرورة إلى فعل المحرم.

يقول الله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة:٣].

ففي هذه الآية سرد الله تعالى مجموعة من الأطعمة المحرمة التي لم يحرمها جل جلاله إلا صيانةً لعباده، وحمايةً لهم من الضرر والخبث الموجود فيها، وهذه المحرمات هي: الميتة وهي التي ماتت بدون ذبح شرعي، وكذلك الدم المسفوح، ولحم الخنزير، والمنخنقة التي ماتت بالخنق، والموقوذة التي ماتت بالضرب، والمتردية الساقطة من علوٍ فماتت، والنطيحة التي نطحتها غيرها فماتت، وإذا ماتت بعض الحيوانات بسبب أكل السبع من أسد أو نمر أو طير مفترس ونحوه، فإنها لا تحل أيضًا، ثم بين الله عز وجل في ختام الآية أنه سبحانه قد أكمل دين الإسلام بتمام النصر، وإكمال الشريعة.

فالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فيهما تمام الدين من أصول وفروع، كما أتم سبحانه وتعالى على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، واختار الإسلام واصطفاه لنا دينًا، ثم عاد الله تعالى إلى الحديث عن المحرمات السابقة في أول الآية، فذكر أن من ألجأته الضرورة إلى تناول شيء من هذه المحرمات، وهو في حالة مخمصة أي: في حالة جوع شديد، حتى إن البطن ليضمر من قلة الغذاء الوارد إليه، فمن اضطر فأكل منها فلا إثم عليه؛ لأن الله تعالى غفور رحيم[(١)].

ويقول الله عز وجل أيضًا: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام:١١٩].

فيذكر الأصوليون أن هذه الآية تضمنت استثناء حالة الضرورة حفاظًا على النفس من الهلاك، والاستثناء من التحريم إباحة[(٢)].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢١٩، أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٥٩٢.
(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٤/ ٢٦٠٣، الموسوعة الفقهية الكويتية، ٢٨/ ١٩٣.

هذا وقد بين أبو بكر الجصاص حقيقة الضرورة وذكر أن معناها متمثلٌ في خوف الإنسان المضطر من لحوق الضرر على نفسه، أو على بعض أعضائه إن ترك الأكل، وأوضح أنه يندرج تحت هذا معنيان:

الأول: أن يكون المضطر في وضع لا يجد فيه غير الميتة أو المحرم.

الثاني: أن يكون الحلال موجودًا، ولكنه أكره على تناول المحرم، وذلك بتهديدٍ ووعيدٍ يخاف من جرائه إلحاق الهلاك بنفسه، أو بتلف بعض أعضائه.

وبين الجصاص أن كلًا من المعنيين مراد في الآية لاحتمالهما[1].

وقال الإمام ابن عاشور في بيان حقيقة الضرورة وحدها: «هي الحاجة التي يشعر عندها من لم يكن دأبه البغي والعدوان بأنه سيبغي ويعتدي. وهذا تحديدٌ منضبطٌ، فإن الناس متفاوتون في تحمل الجوع ولتفاوت الأمزجة في مقاومته، ومن الفقهاء من يحدد الضرورة بخشية الهلاك ومرادهم الإفضاء إلى الموت والمرض وإلا فإن حالة الإشراف على الموت لا ينفع عندها الأكل، فعلم أن نفي الإثم عن المضطر فيما يتناوله من هذه المحرمات منوطٌ بحالة الاضطرار، فإذا تناول ما أزال به الضرورة فقد عاد التحريم كما كان، فالجائع يأكل من هاته المحرمات إن لم يجد غيرها أكلًا يغنيه عن الجوع، وإذا خاف أن تستمر به الحاجة كمن توسط فلاةً في سفرٍ أن يتزود من بعض هاته الأشياء حتى إن استغنى عنها طرحها؛ لأنه لا يدري هل يتفق له وجدانها مرةً أخرى»[2].

ويخلص من هذا إلى أن حقيقة الاضطرار تكمن في خوف المضطر على نفسه من الهلاك، فمن ألجأته الضرورة إلى أكل المحرم، فأكل فلا إثم ولا حرج عليه، كما يجب على المضطر تناول المحرم بمقدار ما يسد به رمقه ويبقيه على قيد الحياة، فيأمن معه الموت لقوله جل جلاله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

«فإن ترك المضطر تناول المحرم حتى مات، فقد وقع في المعصية؛ لأنه ألقى نفسه إلى الهلاك، وهذا منهيٌّ عنه؛ ولأنه كان قادرًا على إحياء نفسه بما أباحه الله تعالى له، فلزمه ذلك، كما لو كانه معه طعامٌ حلال»[3].

(١) انظر: أحكام القرآن، ص١٥٩.

(٢) التحرير والتنوير، ٢/ ١٢٠.

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٤/ ٢٦٠١.

من صور الاضطرار

للاضطرار صور كثيرة جدًا، لا يمكن حصرها، وقد ذكر القرآن بعض الصور.

ومن تلك الصور التي ذكرها القرآن الكريم:

أولًا: أكل وشرب المحرمات:

الأصل في الأطعمة التي ذكر الاضطرار فيها هو التحريم، ولا تكسر قاعدة التحريم إلا عند الاضطرار، فيباح للمضطر أن يأكل لحم الخنزير وغيره مما لا يحل من الحيوانات من باب المحافظة على الحياة، والصيانة للنفس الإنسانية من الهلاك والموت.

هذا بالإضافة إلى إباحة تناول شرب المحرم كالخمر في حالة الاضطرار.

قال سيد سابق: «كما أجازوا (أي الفقهاء) تناول الخمر في حال الاضطرار، ومثل الفقهاء لذلك بمن غص بلقمة فكاد يختنق، ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر، أو من أشرف على الهلاك من البرد ولم يجد ما يدفع به هذا الهلاك غير كوب أو جرعة من الخمر، أو من أصابته أزمة قلبية وكاد يموت»[(١)].

أما بالنسبة لمسألة التداوي بالخمر وهل يباح للعلاج، فقد اختلف العلماء في هذه المسألة بين مانع ومجيز. أما من منع فقد استدل بأن الناس كانوا في الجاهلية يتناولون الخمر للعلاج، فلما جاء الإسلام نهاهم عن ذلك وحرمه.

ويؤيد هذا ما ورد عن وائل الحضرمي أن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمر، فنهاه أو كره أن يصنعها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: **(إنه ليس بدواءٍ، ولكنه داءٌ)**[(٢)].

كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داءٍ دواءً فتداووا ولا تداووا بحرامٍ)**[(٣)].

ورجح سيد سابق هذا الرأي[(٤)].

أما من أجاز التداوي بالخمر، فقد أجازها في حالة الاضطرار حيث لم يجد المضطر سواها، فعدم وجود دواء من الحلال يقوم مقام الحرام هو شرطٌ للتداوي بالخمر، كما أنه يشترط عدم قصد المتداوي بها اللذة والنشوة، وألا يتجاوز المقدار المحدد له من قبل الطبيب المسلم الثقة، فهذا من باب

(١) فقه السنة، سيد سابق، ٣/ ٢٩٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب تحريم التداوي بالخمر، ٣/ ١٥٧٣، رقم ١٩٨٤.

(٣) أخرجه أبو داوود في سننه، كتاب الطب، باب في الأدوية المكروهة، ٤/ ٧، رقم ٣٨٤٧، عن أبي الدرداء.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم ١٥٩٦، ١/ ٢٢٦.

(٤) انظر: فقه السنة، سيد سابق، ٣/ ٢٩٦.



الضرورات التي تبيح المحظورات للحفاظ على النفس من الهلاك[1].

وأما بالنسبة للأدوية المحرمة كالمخدرات مثلًا، فإن الأصل في تعاطيها عن طريق الأكل أو الشرب أو الحقن هو التحريم؛ وذلك لما تحتوي عليه المخدرات من الأضرار الجسيمة، وتعطيل الأعمال، كما أنها باب من أبواب الصد عن ذكر الله تعالى، والقعود عن أداء الطاعات.

ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩].

وأما التداوي بهذه المخدرات، فإنها تستعمل في مجال الطب لأمرين، وهما:

الأول: استعمال المخدر في العمليات الجراحية، وقد يكون التخدير جزئيًا أو كليًا للمريض، وهذا النوع جائز؛ لأن فيه تفويتًا على المريض للإحساس بالألم الشديد الذي يصيبه أثناء العملية الجراحية، فإباحته من باب الضرورة.

الثاني: استعمال المخدر مع الأدوية الطبية بنسب معينة لتسكين الآلام والأوجاع الشديدة، فهذا جائز ويباح التداوي به للحاجة والحفاظ على النفس من لحوق الضرر بها أو الهلاك، بشرط أن تكون نسبة المخدر في الدواء قليلة، ولا يترتب عليها ضرر أو سكر، فيحصل للمريض به نفع، وكذلك يشترط أن يكون المريض محتاجًا إلى هذا الدواء، ولم يوجد غيره مقامه، وأن الطبيب قد قرر أنه لا بد من تناوله، فيتناوله المريض بقدر الحاجة والضرورة[2].

ثانيًا: قتل النفس:

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء:٢٩].

ذكر مجموعة من المفسرين أن المراد بقتل النفس الوارد في الآية يقصد به قتل بعضهم بعضًا، وعبر عن ذلك بالنفس؛ لأن المسلمين كلهم كالنفس الواحدة، فإذا قتل أحدهم الآخر فكأنما قتل نفسه[3].

وتحتمل الآية أيضًا معنى قتل المرء نفسه، حيث قال ابن عطية: «فأجمع المتأولون أن المقصد بهذه الآية النهي عن أن يقتل بعض الناس بعضها، ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه للقتل، أو بأن يحملها على غرر ربما مات منه، فهذا كله يتناوله النهي، وقد احتج عمرو بن العاص بهذه الآية حين امتنع من الاغتسال بالماء البارد خوفًا على نفسه منه، فقرر رسول الله صلى

(١) انظر: فقه السنة، سيد سابق، ٣/ ٢٩٦، موسوعة الفقه الإسلامي، محمد التويجري، ٤/ ٣٥٧.

(٢) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي، محمد التويجري، ٤/ ٣٥٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٨/ ٢٢٩، تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ١٤٣، معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٢٠٠.

الله عليه وسلم احتجاجه»[1].

ويمكن أن يكون من أنواع الغرر الذي تحدث عنه ابن عطية أن يكون الإنسان في حالة اضطرار وقد أباح له الشرع ما كان محرمًا من الأطعمة أو الأشربة، فإذا قصر في ذلك، ولم يأخذ بالرخصة، فإنه يعرض نفسه للهلاك، فكأنما أصبح هو السبب في قتل نفسه، وقد قال الله عز وجل في موضع آخر: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].

قال السعدي: «والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجبًا أو مقاربًا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سببٌ موصلٌ إلى تلف النفس أو الروح»[2].

ثالثًا: التلفظ بالكفر ونحوه:

يقول الله جل جلاله في هذا: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل:١٠٦].

والمعنى أن الله تعالى يخبر في هذه الآية عن شناعة حال من كفر بالله عز وجل بعدما أبصر طريق الحق، واهتدى بنوره، ولكنه رجع إلى ما كان عليه من ضلال وغواية، وارتضى بهذا الكفر واطمأن به، فلهم الغضب الشديد.

قال الإمام ابن كثير في تفسيره: «أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابًا عظيمًا في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئًا ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئًا، فهم غافلون عما يراد بهم»[3].

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، فقد قال ترجمان القرآن ابن عباس: «نزلت في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرًا وأمه سمية وصهيبًا وبلالًا وخبابًا وسالمًا فعذبوهم، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجئ قبلها بحربة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام. وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن عمارًا كفر، فقال: **(كلا، إن عمارًا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه)**،

(١) المحرر الوجيز، ٢/ ٤٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٦٠٥.

فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يمسح عينيه، وقال: (**إن عادوا لك فعد لهم بما قلت**)، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[1].

ويلاحظ من هذا أن عمار بن ياسر رضي الله عنه كفر بلسانه، ووافق المشركين بلفظه مكرهًا لما ناله من شدة الضرب والأذى، لكن قلبه يأبى ويرفض ما قاله بلسانه، فقلبه مطمئنٌ بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم .

وعليه فإن الإنسان إذا أكره على التلفظ بألفاظ الكفر، فهو في حالة اضطرار، فيجوز له التلفظ بالكفر؛ لأنه لو فعل ما أراده المكره لأدى ذلك إلى قتله وهلاكه، والحفاظ على النفس من الهلاك مقصدٌ من مقاصد الشريعة.

ويخلص من هذا إلى أن إباحة ما كان محرمًا من الأطعمة والأشربة والأدوية، وقتل النفس، والتلفظ بالكفر هي صورٌ لحالة الاضطرار التي ترخص للإنسان المضطر وتبيح له أن يأخذ بها، ويزيل عنه الضرر الحال الذي ألم به.

شروط تحقق الاضطرار

كما أن للاضطرار حقيقةً وحدًا، فكذلك له شروط وضوابط محددة ليكون العمل بحكم الضرورة شرعيًا، وتفصيل هذه الضوابط فيما يأتي:

أولًا: اليقين أو غلبة الظن بوقوع الضرر:

إن من شروط العمل بهذه الرخصة التي أباح الله عز وجل الأخذ بها للإنسان المضطر أن يكون متيقنًا من وقوع الضرر ولحوقه به، فاليقين هو إدراك الشيء من غير احتماليته لشيء آخر، أما غلبة الظن فهي تحتمل أمرين أحدهما أرجح في نفس المضطر بحسب النظر فيما يظهر له.

قال أبو هلال العسكري: «إن الظن ضرب من أفعال القلوب يحدث عند بعض الأمارات، وهو رجحان أحد طرفي التجوز، وإذا حدث عند أمارات غلبت وزادت بعض الزيادة فظن صاحبه بعض ما تقتضيه تلك الأمارات سمي ذلك غلبة الظن. ويستعمل الظن فيما يدرك وفيما لا يدرك»[2].

وهذا الظن يجب أن يكون مبنيًا على النظر في الأدلة الشرعية، والحجج والبراهين والقرائن واستقراء الأحوال، لا ظنًا مبنيًا على الهوى والشهوة ومخالفة

(١) أسباب النزول، الواحدي، ص ٢٨١.

(٢) الفروق اللغوية، ص ٩٨.

النصوص الصحيحة الصريحة، فهذا ظن مذموم لا يجوز الاعتماد عليه، ولهذا الضابط أدلة كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ومنها -على سبيل المثال لا الحصر-: قوله جل جلاله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وغيرهما الكثير.

ووجه دلالة مثل هذه الآيات تفيد لو أن الإنسان كلف بالوصول إلى درجة اليقين لكلف ما لا يطيق، فيكون هذا من التعسير والوقوع في الحرج، وليس من التيسير.

أما من السنة النبوية المطهرة، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم، كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم)[(١)]، وقد ورد عن أبي واقدٍ الليثي قال: قلت: يا رسول الله، إنا بأرضٍ تصيبنا بها مخمصةٌ، فما يحل لنا من الميتة؟ قال: (إذا لم تصطبحوا، ولم تغتبقوا، ولم تحتفئوا بقلًا[(٢)]، فشأنكم بها)[(٣)].

ووجه دلالة مثل هذه الأحاديث أننا مأمورون بمجموعة من الأوامر، وعلينا تنفيذها بقدر استطاعتنا، فما لا يدخل في استطاعتنا فإننا لسنا مطالبين بتنفيذه، فالحصول على درجة اليقين ليس مستطاعًا في كل أمر، فإنه يتعذر، وحيث تعذر فإنه يصار إلى ما هو أخف منه وأقل منه درجة وهو غلبة الظن؛ لأنها هي المستطاعة في كثير من الأمور، وحديث أبي واقد يدل دلالة واضحة على أن المخالفة وارتكاب المحظور لا يتم إلا بعد التيقن والجزم أو غلبة الظن المبني على النظر في الأدلة الشرعية واستقراء الأحوال بحصول الضرر.

وعليه فإنه قد علم في الشريعة من أن الأحكام تناط باليقين والظنون الغالبة، وأنه لا التفات فيها إلى الأوهام والظنون المرجوحة البعيدة[(٤)].

وعودةً إلى الشخص المضطر فقد قال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٣٠، رقم ١٣٣٧، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لم تحتفئوا بها بقلاً: لم تجدوا فيها ما يقتلع فيؤكل.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ص ٤١١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢١٨٩٨، ٣٦/ ٢٢٧، والحاكم في مستدركه، رقم ٧٢٣٦، ٤/ ٢٣٠.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

(٤) انظر قاعدة من شك هل فعل شيئًا أو لا؟ في: الأشباه والنظائر، السيوطي، ص ٥٥، الأشباه والنظائر، ابن نجيم، ص ٥١.

الله عز وجل فيه: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ [النحل:١١٥].

فهذا الفعل على وزن (افتعل)، ومعلومٌ أن الاضطرار حالة خارجة عن سيطرة الإنسان التي يعلم من خلالها اليقين أو غلبة الظن بحصول الضرر، فيشترط في هذه الضرورة أن تكون قائمة وموجودة، ولا ينتظرها صاحبها في المستقبل، فيغلب على ظنه الهلاك على نفسه إن لم يأكل الميتة.

قال الدكتور وهبة الزحيلي: «أي أن يحصل في الواقع خوف الهلاك على النفس أو المال بغلبة الظن بحسب التجارب، أو التحقق من خطر التلف، لو لم يأكل، ويكفي في ذلك الظن، كما في الإكراه على أكل الحرام، فلا يشترط فيه التيقن ولا الإشراف على الموت، بل لو انتهى إلى هذه الحالة لم يفد الأكل ولم يحل الأكل كما صرح الشافعية»[(١)].

ثانيًا: تعذر الوسائل المباحة في إزالة الضرر:

إذا كانت الوسائل المشروعة والمباحة في إزالة الضرر متعذرة، ولم يبق إلا الوسيلة المحظورة، فإنه حينئذٍ يتعين على الشخص المضطر ارتكاب المحظور كوسيلة لدفع هذا الضرر الواقع، وفي المقابل يفهم أنه إذا أمكن إزالة هذا الضرر بوسيلة مشروعة امتنع ارتكاب الوسيلة المحظورة.

وهذا يفهم من عموم قوله عز وجل: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦].

والحاجة الشديدة الملحة التي ليس لها دافع مشروع يدفعها إنما تتأتى وتتحقق بتعذر جميع الوسائل المباحة.

وذكر الإمام الطبري في تفسير هذه الآية قوله: «واحذروا الله أيها المؤمنون وخافوا عقابه، وتجنبوا عذابه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، والعمل بما يقرب إليه ما أطقتم وبلغه وسعكم»[(٢)].

كما ذكر أيضًا أن هذه الآية هي ناسخة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]، تخفيفًا عن المسلمين.

ونقل عن قتادة قوله: «قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ هذه رخصة من الله، والله رحيم بعباده. وكان الله جل ثناؤه أنزل قبل ذلك ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ وحق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ثم خفف الله تعالى ذكره عن عباده، فأنزل الرخصة بعد ذلك فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ فيما استطعت يا ابن آدم، عليها بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، ٤/ ٢٦٠٣.

(٢) جامع البيان، ٢٣/ ٤٢٦.

السمع والطاعة فيما استطعتم»[1].

ثالثًا: ارتكاب أخف الضررين:

يتمثل هذا الضابط في أن الإنسان إذا ألمت به ضرورة، فإنه يجب عليه إزالة هذا الضرر الواقع به، فلا يزال بضرر مماثل له؛ لأن الضرر حينئذٍ باقٍ على ما هو عليه، ولم يزل، وكذلك لا يزال بضرر أكبر منه؛ لأنه سوف يكون من باب جلب المفاسد، والمفسدة في هذه الحالة أكبر من المصلحة، والمطلوب هو درء المفاسد بإزالة الضرر الواقع، وليس زيادته[2].

وعليه فإنه يجب أن يراعى في إزالة الضرر إزالته بضرر أخف منه، فالمصلحة في هذه الحالة أكبر وأعظم من المفسدة، فإن الإنسان المضطر إلى أكل الميتة مثلًا أمامه ضرران هما:

الأول: هلاك نفسه، وقد قال الله جل جلاله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩].

وهو ضرر كبير وعظيم.

الثاني: تناول المحظور، وهو ضرر أدنى وأخف من الأول، فيأخذ به المضطر، فيكون بذلك قد جلب منفعة أكبر من مفسدة الضرر الأول.

فيجب على المضطر ارتكاب أخف الضررين لينقذ نفسه من الهلاك.

رابعًا: الضرورة تقدر بقدرها:

يتمثل هذا الضابط في ارتكاب المحظور أو تناول المحرم في حالة الاضطرار بقدر الضرورة الملجئة بدون زيادة أو نقصان، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣].

وذكر جمهور المفسرين في تفسير هذه الآية قولين:

الأول: أن من أُكره على أكل المحظور فلا إثم عليه.

الثاني: أن من احتاج إلى أكل المحظور لضرورة دعته من خوفه على نفسه فلا إثم عليه[3].

هذا وقد ذكر الماوردي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ ثلاثة أقوال، وهي كما يأتي:

الأول: أي غير باغٍ على الإمام، ولا عادٍ على الأمة بإفساد شملهم.

الثاني: غير باغٍ في أكله فوق حاجته، ولا عادٍ يعني متعديًا بأكل المحظور وهو يجد غيره من المباح.

الثالث: غير باغٍ في أكل المحظور شهوةً

(١) المصدر السابق، ٢٣/ ٤٢٧.

(٢) انظر: الأشباه والنظائر، السيوطي، ص ٨٦.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ١/ ٢٢٢.

وتلذذًا، ولا عادٍ باستيفاء الأكل إلى حد الشبع[1].

وبين الإمام الرازي أن المضطر لا يأكل من الميتة إلا ما يسد به رمقه، ووضح أن هذا هو الأقرب في دلالة الآية، وعلل ذلك بقوله: «لأن سبب الرخصة إذا كان الإلجاء، فمتى ارتفع الإلجاء ارتفعت الرخصة، كما لو وجد الحلال لم يجز له تناول الميتة لارتفاع الإلجاء إلى أكلها لوجود الحلال، فكذلك إذا زال الاضطرار بأكل قدر منه فالزائد محرم»[2].

ويقول الله عز وجل في موضع آخر: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

والمعنى: أن من دعته الضرورة إلى أكل الميتة وسائر المحرمات المذكورة في الآية، بسبب الخمص وهو ضمور البطن من شدة الجوع، وكان هذا المضطر غير مائلٍ للحرام بشكل متعمد ومقصود فيه للمعصية، فإن الله تعالى له غفور رحيم[3].

ويخلص من هذا إلى أن المضطر يأكل من المحظور بالقدر الذي يزيل عنه الضرورة التي ألجئ إليها فقط، ولا يزيد على ذلك فيدخل في دائرة التلذذ وقضاء شهوة الأكل، ولا ينقص من ذلك فيؤدي إلى هلاك نفسه.

ويخلص من هذا إلى أن ضوابط الاضطرار متمثلة في حصول اليقين أو غلبة الظن بوقوع الضرر، وتعذر الوسائل المشروعة في إزالة الضرر الواقع، ووجوب تقدير الضرورة بقدرها دون زيادة أو نقصان، وبارتكاب أخف الضررين لينجو بنفسه.

(١) انظر: المصدر السابق، ١/ ٢٢٣.
(٢) مفاتيح الغيب، ٥/ ٢٠٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ٦٥.

مقاصد الشريعة في اعتبار الاضطرار

إن مراعاة حالة الاضطرار ينتج عنها تحقيقٌ لبعض مقاصد الشريعة الإسلامية، وتفصيل هذه المقاصد وبيانها كما يأتي:

أولًا: التيسير والتخفيف ورفع الحرج والمشاق عن المكلفين:

إن الله سبحانه وتعالى عندما أحل الحلال وحرم الحرام، قد جعل الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد نص شرعي على تحريمه، فالحلال كثير وواسع، أما الحرام فهو معدود وضيق.

يقول الله جل جلاله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام:١١٨-١١٩].

ففي هاتين الآيتين يأمر الله عز وجل المسلمين أن يأكلوا مما ذكر اسم الله عز وجل عليه، فكل ما ذكر الذابح عليه اسم الله تعالى كان حلالًا إن كان مما أباح الله تعالى أكله، ثم أنكر سبحانه وتعالى عليهم عدم أكلهم مما سموا عليه بعد أن أذن الله تعالى لهم بذلك.

والحال أنه جل جلاله قد فصل لهم ما حرم عليهم، وبين لهم بيانًا مفصلًا شافيًا يدفع الشك ويزيل الشبهة، ثم استثنى الله تعالى من هذه المطعومات المحرمة عليهم ما كان في حالة الضرورة؛ وذلك لأن الضرورة تحلل الحرام، ثم بين سبحانه وتعالى أن الكفار الذين كانوا يحرمون البحيرة والسائبة ونحوهما أن أفعالهم هذه مبنية على الجهل الذي كانوا يضلون الناس فيتبعونهم ولا يعلمون أن ذلك صادر منهم عن جهل وضلالة، وليس فيه شيء من العلم.

وبعد ذلك أمر الله عز وجل المؤمنين أن يتركوا ظاهر الإثم من أفعال الجوارح، وأن يتركوا أيضًا باطن الإثم من أفعال القلوب، ثم توعد الكاسبين للإثم بالجزاء بسبب افترائهم على الله جل جلاله[1].

وعليه فإن هذه الشريعة الإسلامية السمحة مبنية على التيسير والتخفيف عن أفراد الأمة الإسلامية، ورفع الحرج والمشاق عنهم، وقد وردت كثير من النصوص القرآنية والنبوية أيضًا على هذا المقصد.

ومنها: قوله عز وجل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقوله جل جلاله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء:٢٨].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١٧٨.

﴿ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

فهذه النصوص وغيرها تفيد أن الله عز وجل لا يريد لنا المشقة والتعسير والوقوع في الحرج؛ بل يريد لنا التيسير والتخفيف ورفع الحرج لأداء العبادة التي فرضها سبحانه وتعالى علينا وأدائها على أكمل وجه.

أما من السنة النبوية المطهرة، فقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المقصد، ومنها- على سبيل المثال-: عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا، ولا تنفروا)[(١)]، وأيضًا قوله صلى الله عليه وسلم: (إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة)[(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، رقم ٦٩، ١/ ٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم ١٧٣٤، ٣/ ١٣٥٩، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٢٩١، ٣٦/ ٦٢٤، عن أبي أمامة الباهلي. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٩٢٤، ٦/ ١٠٢٢.

ثانيًا: الحفاظ على الضروريات الثلاث:

الضروريات جمع كلمة ضروري، والضروريات عرفها علماء الأصول بأنها: «هي الأمور التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة؛ بل على فسادٍ وتهارج، وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين»[(٣)]، وهي ضروريات خمس، وقد أجمع العلماء عليها، وهي متمثلة في حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والمال[(٤)].

وقد ذكر العلماء أنه قد علم بالاستقراء التام الحاصل بتتبع النصوص القرآنية الكريمة، والسنة النبوية المطهرة، ومن خلال قرائن الأحوال والأمارات المتفرقة، علم مراعاة الشارع الحكيم لهذه الضروريات الخمسة، واعتماده عليها في جميع أحكامه، ويستحيل عليه أن يفوت هذه الضروريات الخمسة في شيء من أحكامه، فجميع التكاليف الشرعية من أوامر ونواه تدور حول هذه الضروريات الخمسة بالحفظ والصيانة[(٥)].

(٣) الموافقات، الشاطبي، ٢/ ٨.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، ٢٨/ ٢٠٧.

(٥) انظر: روضة الناظر، ابن قدامة المقدسي، ص٤٨١.

فالإنسان المضطر عندما تلجئه الضرورة من مخمصة، أو جوع شديد، أو إكراه، أو خوف على النفس من الهلاك، فتلجئه إلى تناول الحرام وأكله بشرط أن يأكل ما يسد به رمقه ويبقيه على قيد الحياة.

كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ [البقرة:١٧٣].

وقوله عز وجل: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ [المائدة:٣].

فمراعاته لحكم الاضطرار الذي هو عليه جعله يسعى إلى إنقاذ نفسه من الموت.

وذكر الرازي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ [البقرة:١٧٣]: أن الله تعالى إنما أباح هذه المحرمات إبقاءً للنفس ودفعًا للهلاك عنها[١].

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء:٢٩].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].

فإن في الامتناع عن الأكل من المحرمات عند الضرورة سعيًا في قتل النفس، وإلقائها في التهلكة.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ٥/ ٢٠٣.

ثالثًا: جلب المصالح للعباد ودرء المفاسد عنهم:

إن الشريعة الإسلامية مبنية أيضًا على جلب المصالح للعباد ودفع المفاسد عنهم[٢]، وقد تواترت كثير من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على ذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

والمعنى: أي وما أرسلناك بالقرآن وأمثاله من الشرائع والأحكام التي بها مناط السعادة في الدارين إلا لرحمة الناس وهدايتهم في شئون معاشهم ومعادهم.

قال المراغي: «بيان هذا أنه عليه الصلاة والسلام أرسل بما فيه المصلحة في الدارين، إلا أن الكافر فوت على نفسه الانتفاع بذلك، وأعرض عما هنالك؛ لفساد استعداده وقبح طويته، ولم يقبل هذه الرحمة، ولم يشكر هذه النعمة، فلم يسعد لا في دين ولا دنيا، كما قال: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨﴾ [إبراهيم:٢٨].

وقال في صفة القرآن: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت:٤٤]»[٣].

(٢) انظر: الأشباه والنظائر، السبكي، ١/ ١٠٥.

(٣) تفسير المراغي، ١٧/ ٧٨.

ومن النصوص الدالة على هذه القاعدة أيضًا قوله عز وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

حيث تعد هذه الآية جامعة لكل الأوامر والنواهي.

قال السعدي: «صارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء؛ ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي: بما بينه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها»[(١)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٤٧.

ووجه دلالة هاتين الآيتين أن الله عز وجل لم يكلف على عباده إلا ما فيه مصلحة يجلبها لهم، سواءٌ كانت في الدنيا أم في الآخرة، كما أنه تعالى لم يحرم عليهم شيئًا إلا وفيه مفسدة يدفعها عنهم في الدنيا أو في الآخرة، أما من السنة النبوية المطهرة فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا ضرر ولا ضرار)[(٢)].

وعليه فإن مراعاة الإنسان المضطر لحكم الاضطرار الذي هو عليه جعله يدرأ مفسدة الهلاك عن نفسه، ويجلب لنفسه مصلحة النجاة والبقاء على الحياة.

ويخلص من هذا إلى أن مراعاة حكم الاضطرار يحقق مقاصد الشريعة الإسلامية من التيسير والتخفيف ورفع الحرج والمشاق عن المكلفين، ومن الحفاظ على الضروريات الثلاث: النفس والعقل والنسب، ومن جلب المصالح ودرء المفاسد.

موضوعات ذات صلة:

الإكراه، الحرام، الحلال، الضر

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٢٣٤١، ٢/ ٧٨٤.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، رقم ٨٩٦، ٣/ ٤٠٨.





عناصر الموضوع

مفهوم الإعراض	٣٢
الإعراض في الاستعمال القرآني	٣٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٤
المأمورون بالإعراض في القرآن	٣٧
أنواع الإعراض	٤٢
عاقبة الإعراض	٥٧



مفهوم الإعراض

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «العين والراء والضاد بناءٌ تكثر فروعه، وهي مع كثرتها ترجع إلى أصلٍ واحدٍ، وهو العرض الذي يخالف الطول»[١].

يأتي الإعراض في اللغة بعدة معان، منها:

١. التولي والإضراب: إذا عدي بـ (عن)؛ فإذا قيل: أعرض عني، فمعناه: ولى مبديًا عرضه[٢].

٢. تنحية الوجه وإشاحته: قال ابن الأعرابي: «أعرض بوجهه وأشاح أي: جد في الإعراض»، وأعرض بوجهه: أي مال[٣].

٣. الصد: فتقول: أعرضت بوجهي عنه أي صددت، ويقال: أعرضت عن الأمر: صددت عنه. وقال الخليل بن أحمد: «وأعرضت بوجهي عنه، أي: صددت وحدت»[٤].

مما سبق يتبين لنا: أن معاني الإعراض في اللغة تدور حول الانصراف، والبعد عن الشيء.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج تعريف الإعراض اصطلاحًا عن أحد معانيه اللغوية.

فقد عرف السمعاني الإعراض بقوله: «الإعراض صرف الوجه عن الشيء، أو إلى من هو أولى منه، أو لإذلال من يصرف عنه الوجه»[٥].

وعرفه الكفوي بقوله: «والإعراض الانصراف عن الشيء بالقلب»[٦].

وقال ابن عاشور: «حقيقة الإعراض عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه»[٧].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٦٩.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٥٩، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٠٢.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٩٦، مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٧٤، الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ٢/ ٢٣١، شمس العلوم، نشوان الحميري ٧/ ٤٤٩٧، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٠١، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥١٥.

(٤) انظر: العين، الفراهيدي ١/ ٢٧٢، المنجد في اللغة، كراع النمل ١/ ١٢٩، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٧٤٨.

(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٣٥.

(٦) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٨.

(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٧٤.



الاعراض في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أعرض) في القرآن (٥٣) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٣	﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧]
الفعل المضارع	٦	﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر:٢]
فعل الأمر	١٣	﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود:٧٦]
اسم الفاعل	١٩	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف:٣]
المصدر	٢	﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء:١٢٨]

وجاء الإعراض في القرآن بمعناه اللغوي الذي يدور حول الانصراف عن الشيء.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٩٩-٥٠٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الانصراف:

الانصراف لغة:

هو: رد الشيء عن وجهه. صرفه يصرفه صرفًا فانصرف، وصارف نفسه عن الشيء صرفها عنه[١].

الانصراف اصطلاحًا:

هو الإعراض عن الشيء ورده والهروب عنه[٢].

الصلة بين الانصراف والإعراض:

بهذا المعنى تتبين لنا العلاقة بين الانصراف والإعراض؛ حيث إن كلًا من الإعراض والانصراف يدل على رد الشيء، وعدم قبوله، ولكن الإعراض أعم من الانصراف.

٢ التولي:

التولي لغة:

تولى عن الشيء، أي: أدبر عنه، و ولى عنه أي: أعرض عنه أو نأى[٣].

فالتولي إذا عدي بنفسه اقتضى معنى الولاية، وحصوله في أقرب المواضع منه، يقال: وليت سمعي كذا: أقبلت به عليه، وإذا عدي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتضى معنى الإعراض[٤].

التولي اصطلاحًا:

قال المناوي: «التولي هو الإعراض المتكلف بما يفهمه التفعل»[٥].

وقول المناوي: «بما يفهمه التفعل» معناه أن صيغة تفعل هنا تفيد التكلف كما في قولهم: تحلم، أي تكلف الحلم[٦].

وذهب الكفوي إلى أن التولي: الإعراض مطلقًا، ولا يلزمه الإدبار والتولي بالإدبار،

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ١٨٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥١٣.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٨.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٤٠٥.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٨٧.
(٥) انظر: التوقيف، المناوي ص ٢١٦.
(٦) انظر: نضرة النعيم ٩/ ٤٣٠٨.



وعلل بذلك أن تولي الرسول صلى الله عليه وسلم عن ابن أم مكتوم رضي الله عنه لم يكن بالإدبار، وعنده كذلك قد يكون على حقيقة بالإدبار؛ كما في قوله تعالى ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء:٥٧].

وقد يكون كناية عن الانهزام، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وعنده كذلك التولي قد يكون لحاجة تدعو إلى الانصراف مع ثبوت النية[1].

الصلة بين التولي والإعراض:

نجد أن أهل العلم قد اختلفوا في التفريق بين الإعراض والتولي:

فذهب جماعة من أهل التفسير إلى أن كلًا من الإعراض والتولي بمعنى واحد، وإن اختلفت الألفاظ.

قال القرطبي: «والإعراض والتولي بمعنًى واحدٍ، مخالفٌ بينهما في اللفظ»[2].

وهناك من فرق فقال: إن التولي يكون بالجسم، والإعراض يكون بالقلب.

فعلى هذا التفريق يكون كل من المعرض والمتولي يشتركان في ترك السلوك، إلا أن المعرض أسوأ حالًا؛ لأن المتولي متى ندم سهل عليه الرجوع، والمعرض يحتاج إلى طلب جديد وغاية الذم الجمع بينهما[3].

٣ الصد:

الصد لغة:

الصد في اللغة يدور على معانٍ، وهي: الصرف والامتناع، وشدة الضحك والجلبة، وكذلك الإعراض والعدول.

قال ابن منظور في لسان العرب: « الصد الإعراض والصدوف..... ويقال صده عن الأمر يصده صدًا منعه وصرفه عنه قال الله عز وجل: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل:٤٣]»[4].

(١) انظر: الكليات، الكفوي ص ٢٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٧، وممن اختار هذا القول أبو حفص عمر بن عادل الحنبلي في تفسير اللباب ٢/ ٢٤٤، والآلوسي في روح المعاني ١/ ٣١٠، والشوكاني في فتح القدير ١/ ١٢٧.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٨.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٤٥.

الصد اصطلاحًا:

عرفه المناوي فقال: الصد المنع بالأعز الصارف عن الأمر ذكره بعضهم. وقال الحرالي: الصد صرف إلى ناحية بإعراض وتكره[(١)].

وعرفه أبوالبقاء الكفوي فقال: «والصد هو العدول عن الشيء عن قلىً يستعمل لازمًا بمعنى الانصراف والامتناع ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ﴾[النساء:٦١]. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[النحل:٨٨]. ومتعديًا بمعنى الصرف والمنع....»[(٢)].

الصلة بين الصد والإعراض:

يتبين لنا وجه العلاقة بين الإعراض والصد، فكل من الإعراض والصد يوجد فيه معنى العدول عن الشيء من قبل الشخص ذاته، ويفترقان في أن الصد قد يصدر من الشخص تجاه الآخرين بحملهم على العدول والامتناع، وهي صفة مذمومة؛ لأنها غالبا لم تستعمل إلا في الصد عن سبيل الله، وأما الإعراض فمنه ما هو إعراض محمود، وإعراض مذموم على حسب السياق والمعنى.

---

(١) انظر: التوقيف، المناوي ص ٢١٦.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ٢٨.



المأمورون بالإعراض في القرآن

إن من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أنه قد بيَن لهم طريقة التعامل مع المعرضين؛ لئلا يجرف المعرضون غيرهم إلى إعراضهم، فيصدوهم عن الحق، ويزينوا لهم الباطل، ورأس الأمر الرباني في التعامل مع المعرضين هو الإعراض عنهم.

وأمر الله تعالى بعض رسله وأهل الإيمان بالإعراض عن أهل الشرك والكفر والضلال، وكان هذا الأمر من الله تعالى لرسله عليهم السلام وعباده المؤمنين؛ من باب الجزاء من جنس العمل، فهم أعرضوا عن شرع الله واتباع طريقه المستقيم، فكان الجزاء لهم من جنس عملهم وهو أن يعرض عنهم رسل الله وعباد الله المؤمنين.

أولًا: الرسل عليهم السلام:

قد ورد في كتاب الله تعالى في بعض آيات الإعراض الأمر من الله تعالى لبعض أنبيائه عليهم السلام بالإعراض وهو من الإعراض المحمود، ومن هؤلاء الأنبياء:

١ . إبراهيم عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦ ﴾ [هود:٧٦].

ففي هذه الآية الكريمة قد أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بالأمر بالإعراض، وذلك كان في موضع المجادلة مع الملائكة عليهم السلام في شأن قوم لوط عليه السلام، فأمر بالإعراض عن تلك المجادلة، فقال له الملائكة: دع عنك الجدال في أمرهم والخصومة فيه؛ لأنه ﴿قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾، وهو قول عامة أهل التفسير، وكانت سبب مجادلة إبراهيم عليه السلام، إنما كانت في قوم لوطٍ؛ بسبب مقام لوطٍ فيما بينهم[(١)].

وقد ذكر أهل التفسير أن إبراهيم عليه السلام أمر بترك الإعراض وترك المجادلة في قوم لوط؛ لأنه قد جاء التعليل في آخر الآية، وأنهم قد شارفهم وقع العذاب، وفسر بعضهم المجادلة بطلب الشفاعة، وقيل: هي سؤاله عن العذاب هل هو واقع بهم لا محالة أم على سبيل الإخافة؛ ليرجعوا إلى الطاعة؟[(٢)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٠٧، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٧٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٧٢.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢٩٩-٣٠٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٢٣.

٢. يوسف عليه السلام.

فقد ورد في كتاب الله تعالى الأمر لنبي الله يوسف عليه السلام، وكان ذلك في قول الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف:٢٩].

وكان الأمر بالإعراض ليوسف عليه السلام، كان عقب حادثة اتهامه بالفاحشة، ومع ذلم فقد أمر بالإعراض عن ذكر ما كان منها إليك فيما راودتك عليه؛ حيث قد ظهر صدقك ونزاهتك، فلا تذكره لأحدٍ؛ حرصًا على التستر عليها(١).

٣. نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد تعددت الآيات التي وردت في حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالأمر بالإعراض أو تذكر إعراضه، واختلفت وقائعها وكانت في مواقف عدة، ولقد وردت آيات عدة من الله تعالى تأمر النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن المشركين.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر:٩٤]، أي: لا تبالِ بهم ولا تلتفت إليهم؛ إذا لاموك على إظهار الدعوة.

ثم أكد هذا الأمر سبحانه وتعالى، وثبت قلب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٥].

مع كونهم كانوا من أكابر الكفار، وأهل الشوكة فيهم؛ فإذا كفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى(٢).

فهذا هو التوجية الرباني لنبيه صلى الله عليه وسلم في أول الدعوة هو الصدع بالدعوة والجهر بالحق، والإعراض عن هؤلاء الكفار والمشركين؛ من أجل تحقيق الغاية التي من أجلها قد أرسله الله تعالى، وهي تعبيد الخلق لله تعالى، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ويتأكد هذا الأمر بالإعراض عن أهل الشرك والكفر في مواقف كثيرة وآيات أخرى تدل على نفس المعنى، وهو الأمر بالإعراض عن أهل الشرك والكفر، وكان ذلك في خضم دعوتهم.

قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام:١٠٦].

ففي تلك الآية هو حث من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يترفع ويترك أقاويل هؤلاء الأصاغر من الكفار والمشركين.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٦٠، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٣٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٧٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٦٥، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٧٣.

قال الطبري: «اتبع، يا محمد صلى الله عليه وسلم، ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك، فاعمل به، وانزجر عما زجرك عنه فيه، ودع ما يدعوك إليه مشركو قومك من عبادة الأوثان والأصنام، فإنه لا إله إلا هو»[1].

مع التنبيه أن المراد بالإعراض عن المشركين هو: الإعراض عن مكابرتهم وأذاهم لا الإعراض عن دعوتهم، فإن الله لم يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقطع الدعوة لأي صنفٍ من الناس، وكل آيةٍ فيها الأمر بالإعراض عن المشركين فإنما هو إعراضٌ عن أقوالهم وأذاهم[2].

وفي موضع آخر من كتاب الله تعالى يبين الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم كيف يتعامل مع هؤلاء الكفار والمشركين الذين لم يريدوا إلا الحياة الدنيا، وتولوا عن التذكير بالقرآن.

قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم:٢٩].

أي: اترك مجادلتهم فقد بلغت وأتيت بما عليك، ولا تهتم بشأنهم؛ فإن من غفل عن الله وأعرض عن ذكره، وانهمك في الدنيا بحيث كانت منتهى همته ومبلغ علمه؛ فلا تغتم وتتحسر على كفرهم[3].

وفي موضع آخر يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن الجاهلين، وعدم التبالي بأفعالهم وهذا من باب حسن العشرة مع الناس.

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩].

فقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة[4].

وفي موضع آخر يخبر الله تعالى عن ما حدث من نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه قد أعرض عن بعض أزواجه، وهي حفصة رضي الله عنها.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم:٣].

---

(١) انظر: جامع البيان، ١٢/ ٣٢.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٢٢٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٢٥.
(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٨/ ١٩١، روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٦٠.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٤٤، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٩/ ٤٣٢.

ففي تلك الآية الكريمة تبين مدى كرم خلق النبي صلى الله عليه وسلم بأن هذا الإعراض منه صلى الله عليه وسلم لكرم خلقه وشدة حيائه وحسن عشرته صلى الله عليه وسلم.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي صلى الله عليه وسلم حديثًا، وأمر أن لا تخبر به أحدًا، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها صلى الله عليه وسلم، ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمًا منه صلى الله عليه وسلم، وحلمًا، كما قال سفيان: «ما زال التغافل من فعل الكرام».

وإعراض الرسول صلى الله عليه وسلم عن تعريف زوجه ببعض الحديث الذي أفشته من كرم خلقه صلى الله عليه وسلم في معاتبة المفشية وتأديبها إذ يحصل المقصود بأن يعلم ببعض ما أفشته فتوقن أن الله يغار عليه. فـ ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى [(١)].

وفي موضع آخر يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء:٢٨].

ففي هذه الآية يخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾: أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتحرمهم، وإنما يجوز له أن يعرض عنهم عند عجز يعرض، وعند عائق يعرض، وأنت عند ذلك ترجو من الله فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحال عن المواساة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾، يعمل في مسرة نفسه عمل المواساة فتقول: الله يرزق، والله يفتح بالخير [(٢)].

وهذا تعليمٌ عظيمٌ من الله لنبيه لمكارم الأخلاق، وأنه إن لم يقدر على الإعطاء الجميل فليتجمل في عدم الإعطاء؛ لأن الرد الجميل خيرٌ من الإعطاء القبيح [(٣)].

ثانيًا: المؤمنون:

قد ذكر سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن المؤمنين وإعراضهم عن أهل الكفر والنفاق، ففي موضوعين يأتي البيان القرآني لإعراض المؤمنين من باب الإخبار عن

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٠٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٦٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٥٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٢.

(٢) انظر: أحكام القرآن، إلكيا الهراسي ٢/ ٢٥٦.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٨٦.

حالهم، وأن إعراضهم عما لا يليق هو من دأب أهل الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون:٣].

أي: معرضون عن الباطل وما يكرهه الله من خلقه فهم معرضون عن كل باطل ولهو وما لا يحل من القول والفعل(١). وكذلك قال الله تعالى في الإخبار عنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص:٥٥].

فأهل الإيمان يعرضون عن اللغو وهو مالا يليق من القول، ويقولون على جهة التبري: «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» أي: كلٌ سيجازى بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء. ولزم من ذلك، أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون، من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم، فإننا ننزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه.

﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ من كل وجه(٢).

وفي موضع آخر يأتي الأمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالإعراض عن المنافقين.

قال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة:٩٥].

ففي هذه الآية أمر من الله تعالى لأهل الإيمان بالإعراض عن المنافقين، وبيان حقيقتهم أنهم سيؤكدون لكم اعتذارهم بالأيمان الكاذبة إذا انقلبتم وتحولتم إليهم من سفركم؛ لأجل أن تعرضوا عن عتبهم وتوبيخهم على قعودهم مع الخالفين من النساء والأطفال والعجزة، وبخلهم بالنفقة، فأمر الله بالإعراض عنهم فقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: إعراض إهانةٍ واحتقارٍ، لا إعراض صفحٍ وإعذارٍ.

وهذا التعبير من الأسلوب الحكيم، وهو قبول ما يبغون من الإعراض عنهم ولكن على غير الوجه الذي يرجونه منه بل على ضده، وقد علل الأمر بقوله: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي: قذرٌ معنويٌ يجب الإعراض عنه تنزهًا عن القرب منه بأشد مما يتنزه الطاهر الثوب والبدن عن ملابسة الأرجاس والأقذار الحسية(٣).

«إن هؤلاء المنافقين رجس البواطن أخباث الاعتقادات، لا يقبلون التطهير؛

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٩-١٠، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤٠٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٠.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٤.

لأنهم منافقون، ومسكنهم جهنم، جزاء بما اكتسبوه في الدنيا من الآثام والخطايا، فلا ينفع معه التوبيخ أو اللوم في الدنيا والآخرة. وحقيقة أيمانهم الكاذبة أنها ليست لوجه الله، وإنما لمجرد استرضاء لكم معشر المؤمنين؛ لتستمروا في معاملتهم كالمسلمين. وإنكم إن رضيتم عنهم، فلا ينفعهم رضاكم، إذا كانوا في سخط الله، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين، أي: الخارجين عن طاعة الله والرسول، فليكن همهم إرضاء الله ورسوله، لا إرضاؤكم، كما وصفهم الله بقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء:١٠٨].

وقوله عز وجل: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر:١٣].

وهذا إرشاد ونهي للمؤمنين عن الرضا عن المنافقين، والاغترار بأيمانهم الكاذبة، وكفى بالله عليمًا ومعلمًا للمؤمنين منهج الحياة الاجتماعية وطريق معاملة المنافقين وغيرهم من أصحاب البدع المنكرة، فعلى المؤمنين أن يبغضوا المنافقين، وألا يرضوا عنهم لسبب دنيوي، من غير تفرقة بين منافق حضري أو بدوي»[(١)].

أنواع الإعراض

تحدث القرآن الكريم عن نوعين من الإعراض؛ أحدهما محمود، والآخر مذموم، وسوف يتم الحديث عنهما في هذا المبحث..

أولًا: الإعراض المحمود:

إن الإعراض المحمود هو ما أمر الله به عباده المؤمنين؛ من أجل زجر هؤلاء الكفار المعرضين عن دين الله تعالى وشريعته، وتصديق رسله، والإيمان بهم، فأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالإعراض عمن أعرض عن دين الله تعالى، وليس مساومته على شيء من الشريعة ليقبلها. فمن تولى عن ذكر الله تعالى، يعرض عنه بنص الكتاب؛ وذلك أن مهمة الرسل والدعاة من بعدهم هي البلاغ لا الهداية.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران:٢٠].

وقوله تعالى ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة:٣٠].

وكذلك أمر الله عباده المؤمنين

(١) انظر: الوسيط، الزحيلي ١/ ٩٠٥.



بالإعراض عن أهل النفاق؛ لأن هؤلاء المنافقين يظهرون الخير ويبطنون الشر لأهل الإيمان، وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالإعراض عنهم؛ خشية أن لا يتخذهم المؤمنين بطانة من دون المؤمنين، وينخدعوا فيهم وفي أفعالهم الظاهرة، فأوجب الله تعالى الإعراض عن قولهم، وعدم أخذ نصيحتهم، ولا أن يتخذوا منهم بطانة؛ لأنهم أهل غش وخيانة، فإذا أعرض المؤمنون عنهم، وتوكلوا على الله تعالى لم يضرهم المنافقون شيئًا مهما بلغ كيدهم، وعظم مكرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء:٨١].

١. الإعراض عن اليهود.

فكما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وعباده المؤمنين بالإعراض عن اليهود؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر للمدينة، كانت اليهود تسأل النبي صلى الله عليه وسلم من باب التعنت ولبس الحق بالباطل، فكان الله تعالى ينزل القرآن فيما كانوا يسألون عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة:٤٢].

فهذه الآية وإن كان ظاهر الخطاب أنه خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن هذا الحكم باق، ويتناول حكام المسلمين وعلماءهم.

قال ابن عطية: «قال القاضي أبو محمد: وقال كثير من العلماء هي محكمة وتخيير الحكام باق، وهذا هو الأظهر إن شاء الله، وفقه هذه الآية أن الأمة فيما علمت مجمعة على أن حاكم المسلمين يحكم بين أهل الذمة في التظالم، ويتسلط عليهم في تغييره وينفر عن صورته كيف وقع فيغير ذلك، ومن التظالم حبس السلع المبيعة وغصب المال وغير ذلك، فأما نوازل الأحكام التي لا ظلم فيها من أحدهم للآخر، وإنما هي دعاوى محتملة وطلب ما يحل وما لا يحل، وطلب المخرج من الإثم في الآخرة، فهي التي يخير فيها الحاكم، وإذا رضي به الخصمان، فلا بد مع ذلك من رضى الأساقفة أو الأحبار.

قاله ابن القاسم في العتبية.

قال: وأما إن رضي الأساقفة دون الخصمين أو الخصمان دون الأساقفة فليس

له أن يحكم»[1].

ففي هذه الآية يخير الله تعالى نبيه وحكام المسلمين من بعده، ويبين لهم أنهم مخيرون بأن يحكموا بينهم، أو يعرضوا عن الحكم بينهم؛ من أجل أن اليهود لا قصد لهم في الحكم الشرعي إلا أن يكون موافقًا لأهوائهم، وعلى هذا فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم، يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض، لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم، فإن حكم بينهم وجب أن يحكم بالقسط، ولهذا قال: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء، فلا يمنعك ذلك من العدل في الحكم بينهم[2].

وقد اختلف أهل العلم في التخيير الوارد في هذه الآية هل هو منسوخ أم باق؟

وقد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين المسلم والذمي إذا ترافعا إليهم. واختلفوا في أهل الذمة إذا ترافعوا فيما بينهم؛ فذهب قوم إلى التخيير، وذهب آخرون إلى الوجوب، وقالوا: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾[المائدة:٤٩].

وبه قال ابن عباس، ومجاهد وعكرمة، والزهري وعمر بن عبد العزيز والسدي: وهو الصحيح من قول الشافعي، وحكاه القرطبي عن أكثر العلماء[3].

ولكن الصحيح هو التفصيل الذي ذكره ابن عاشور؛ حيث قال: «والذي يستخلص من الفقه في مسألة الحكم بين غير المسلمين دون تحكيم: أن الأمة أجمعت على أن أهل الذمة داخلون تحت سلطان الإسلام، وأن عهود الذمة قضت بإبقائهم على ما تقتضيه مللهم في الشؤون الجارية بين بعضهم مع بعضٍ بما حددت لهم شرائعهم؛ ولذلك فالأمور التي يأتونها تنقسم إلى أربعة أقسامٍ:

القسم الأول: ما هو خاصٌّ بذات الذمي من عبادته كصلاته وذبحه وغيرها مما هو من الحلال والحرام. وهذا لا اختلاف بين العلماء في أن أئمة المسلمين لا يتعرضون لهم بتعطيله إلا إذا كان فيه فسادٌ عامٌّ كقتل النفس.

القسم الثاني: ما يجري بينهم من المعاملات الراجعة إلى الحلال والحرام في الإسلام، كأنواعٍ من الأنكحة والطلاق

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٩٤. وانظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٤/ ٢٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٣٠٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٨٤-١٨٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٠٣-٢٠٦.

وشرب الخمر والأعمال التي يستحلونها ويحرمها الإسلام. وهذه أيضًا يقرون عليها.

قال مالكٌ: لا يقام حد الزنا على الذميين، فإن زنى مسلمٌ بكتابيةٍ يحد المسلم ولا تحد الكتابية. قال ابن خويز منداد: ولا يرسل الإمام إليهم رسولًا ولا يحضر الخصم مجلسه.

القسم الثالث: ما يتجاوزهم إلى غيرهم من المفاسد كالسرقة والاعتداء على النفوس والأعراض. وقد أجمع علماء الأمة على أن هذا القسم يجري على أحكام الإسلام؛ لأنا لم نعاهدهم على الفساد.

وقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]؛ ولذلك نمنعهم من بيع الخمر للمسلمين ومن التظاهر بالمحرمات.

القسم الرابع: ما يجري بينهم من المعاملات التي فيها اعتداء بعضهم على بعضٍ: كالجنايات، والديون، وتخاصم الزوجين. فهذا القسم إذا تراضوا فيه بينهم لا نتعرض لهم، فإن استعدى أحدهم على الآخر بحاكم المسلمين. فقال مالكٌ: يقضي الحاكم المسلم بينهم فيه وجوبًا؛ لأن في الاعتداء ضربًا من الظلم والفساد، وكذلك قال الشافعي، وأبو يوسف، ومحمدٌ، وزفر. وقال أبو حنيفة: لا يحكم بينهم حتى يتراضى الخصمان معًا»[1].

٢. الإعراض عن المنافقين.

ظاهرة النفاق قد ظهرت عندما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وقامت دولة الإسلام، وظهر من يكره الإسلام باطنًا ويظهر حبه وإيمانه، ولكن الله فضحهم وأظهر نفاقه، وبين للنبي صلى الله عليه وسلم ولعباده المؤمنين المخلصين كيف يتعاملوا مع هؤلاء المنافقين.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء:٦٣].

وقال ابن جرير الطبري: «هؤلاء المنافقون الذين وصفت لك، يا محمد، صفتهم ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ في احتكامهم إلى الطاغوت، وتركهم الاحتكام إليك، وصدودهم عنك من النفاق والزيغ، وإن حلفوا بالله: ما أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾، يقول: فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم، ولكن عظهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم، وعقوبته أن تنزل بدارهم، وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله»[2].

ولكن كما نبه ابن العربي المالكي: أن

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٠٣-٢٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥١٥.

النبي صلى الله عليه وسلم إنما أعرض عنهم تألفًا ومخافةً من سوء المقالة الموجبة للتنفير»[1].

فكانت هذه السياسة التي أمر بها القرآن في التعامل مع أهل النفاق هي ماتقتضيه الحكمة والسياسة الرفيعة والأسلوب الرفيع للنبي صلى الله عليه وسلم ويتخذها أصحابه من بعده.

وفي هذا المعنى يقول سيد قطب رحمه الله: «وكانت الخطة التي وجه الله إليها نبيه صلى الله عليه وسلم في معاملة المنافقين، هي أخذهم بظاهرهم- لا بحقيقة نواياهم- والإعراض والتغاضي عما يبدر منهم.. وهي خطة فتلتهم في النهاية، وأضعفتهم، وجعلت بقاياهم تتوارى ضعفًا وخجلًا»[2].

وفي آية آخرى يؤكد الله تعالى على هذا الأمر فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء:٨١].

أي: ويقولون لك إذا حضروا معك: أمرنا وشأننا طاعةٌ لك فيما تأمرنا به، ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ أي: خرجوا من عندك ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: دبرت ليلًا وأخفت من النفاق غير الذي تقول لك من قبول الإيمان وإظهار الطاعة، أو زورت خلاف ما قلت لها من الأمر بالطاعة، ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي: يثبته في صحائفهم فيجازيهم عليه، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لاتبال بهم وبما صنعوا أو تجاف عنهم ولا تتصد للانتقام منهم. والفاء لسببية ما قبلها لما بعدها، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يكفك شرهم، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ عليهم، فسينتقم لك منهم[3].

ويتوالى التأكيد على الإعراض عن هذه الفئة المنافقة في آية الخطاب فيها موجه لأهل الإيمان.

وذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة:٩٥].

فقوله: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾، يقول جل ثناؤه للمؤمنين: فدعوا تأنيبهم، وخلوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق[4].

قال الشوكاني: «وأمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد به: تركهم والمهاجرة لهم، لا الرضا عنهم والصفح عن ذنوبهم، كما تفيده جملة إنهم رجسٌ الواقعة

(١) انظر: أحكام القرآن ١/ ٢١.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٢٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٢٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٠٧.
(٤) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٥٣٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٠٧.

علةٌ للأمر بالإعراض. والمعنى: أنهم في أنفسهم رجسٌ لكون جميع أعمالهم نجسةً، فكأنها قد صيرت ذواتهم رجسًا، أو أنهم ذوو رجسٍ، أي: ذوو أعمالٍ قبيحةٍ، ومثله إنما المشركون نجسٌ وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير، والتحذير من الشر، فليس لهم إلا الترك.

وقوله ومأواهم جهنم من تمام التعليل فإن من كان من أهل النار لا يجدي فيه الدعاء إلى الخير»(١).

٣. الإعراض عن الجاهلين.

فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن الجاهلين، وعدم التبالي بأفعالهم وهذا من باب حسن العشرة مع الناس.

قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩].

و«الجهل» هنا في الآية هو ضد الحلم والرشد، وهو أشهر إطلاق الجهل في كلام العرب قبل الإسلام، والمراد بالجاهلين السفهاء كلهم؛ لأن التعريف في كلمة ﴿ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ للاستغراق، وأعظم الجهل هو الإشراك، إذ اتخاذ الحجر إلهًا سفاهةٌ لا تعدلها سفاهةٌ، ثم يشمل كل سفيه رأيٍ(٢).

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٥٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٢٩.

وقد أكد الله تعالى هذا الأمر أنه من صفات عباد الرحمن، فقال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣].

وكان هذا هو خلق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيسٍ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجهٌ عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه.

قال ابن عباسٍ: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله، ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر، حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله(٣).

وعن عبد الله بن الزبير قال: «أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٦٤٢.

أخلاق الناس، أو كما قال»[1].

فقد أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه[2].

وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق؛ لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفوًا عن اعتداءٍ فتدخل في خذ العفو، أو إغضاءً عما لا يلائم فتدخل في وأعرض عن الجاهلين، أو فعل خيرٍ واتسامًا بفضيلةٍ فتدخل في وأمر بالعرف[3].

٤. الإعراض عن اللغو.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص:٥٥].

نزلت هذه الآية في قوم كانوا مشركين فأسلموا، فكان قومهم يؤذونهم، فكانوا يصفحون عنهم، يقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[4].

وقد عرف الإمام الطبري اللغو بأنه هو: «الباطل من القول» ثم اختار الإمام الطبري أن المراد باللغو في هذه الآية هو ماقاله مجاهد حيث قال: «وهذا يدل على أن اللغو الذي ذكره الله في هذا الموضع، إنما هو ما قاله مجاهد، من أنه سماع القوم ممن يؤذيهم بالقول ما يكرهون منه في أنفسهم، وأنهم أجابوهم بالجميل من القول ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ قد رضينا بها لأنفسنا، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ قد رضيتم بها لأنفسكم»[5].

ولكن الصحيح أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو قول جمهور أهل العلم[6].

فـ﴿اللَّغْوَ﴾ هو: سقط القول والكلام العبث الذي لافائدة فيه، والقبيح من القول، فالفحش لغو، والسب لغو، والمراد من هذا في هذه الآية ما كان سبًا وأذى، فأدب أهل الإسلام الإعراض عنه، والقول على جهة التبري ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، ليس المراد سلام التحية ولكنه سلام المتارك، ومعناه: سلمتم منا لا نعارضكم بالشتم والقبح، ونظيره ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣].

ثم أكد ذلك تعالى بقوله حاكيًا عنهم ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، أي: دين الجاهلين، أي: لا نحب دينكم[7].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٦٤٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٣.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٢٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٩٨.
(٥) انظر: المصدر السابق ١٩/ ٥٩٧.
(٦) انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين الحربي ٢/ ٥٤٥.
(٧) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي ٤/ ٢٩٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور

فهذه الآية تدل على حال أهل الإيمان عند سماعهم اللغو، وأنهم يعرضون عنه، «وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عنه رأسًا مباشرة وتسببًا وميلًا وحضورًا فإن أصله أن يكون في عرض أي ناحية غير عرضه»[(١)].

خامسًا: الإعراض عن إيذاء من تاب من الفاحشة:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء:١٦].

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالإعراض والستر وترك التعيير والضرب بالنعال لمن ارتكب جريمة الزنا.

وقوله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ أي: أقلعا ونزعا عما كانا عليه، وصلحت أعمالهما وحسنت ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ أي: لا تعنفوهما بكلامٍ قبيح بعد ذلك؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها، ولا يثرب ثم إن زنت فليجلدها، ولا يثرب ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبلٍ من شعرٍ)**[(٢)].

أي: ثم لا يعيرها بما صنعت بعد الحد، الذي هو كفارةٌ لما صنعت[(٣)].

وقد ذهب جماعة من أهل التفسير أن هذا الإعراض والتوبيخ منسوخ بآية سورة النور، ولكن رجح القرطبي عدم النسخ فقال: وقيل وهو أولى: إنه ليس بمنسوخٍ، وأنه واجبٌ أن يؤدبا بالتوبيخ فيقال لهما: فجرتما وفسقتما وخالفتما أمر الله عز وجل[(٤)].

ثانيًا: الإعراض المذموم:

إن من أشد الخذلان، وأفدح الخسران: الإعراض عن الله تعالى، وذلك بالإعراض عن دينه وشريعته، أو الإعراض عن كتابه، أو الإعراض عن ذكره وعبادته. وبقدر إعراض العبد عن الله تعالى تكون خسارته وشقوته؛ فأهل الكفر والنفاق هم أهل الإعراض الكامل، فكان لهم الخسران المبين، والشقاء الأبدي في الدنيا والآخرة.

إن الإعراض عن الله تعالى وعن اتباع طريقه المستقيم؛ سبب للعذاب في الدنيا والآخرة، فالإعراض يزيغ القلب، ويطمس

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢٠٨-٢٠/ ١٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب بيع العبد الزاني، رقم ٢١٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، رقم ٤٥٤٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٨٦.

البصيرة عن اتباع الحق.

١ . الإعراض عن القرآن.

قد ذكر الله تعالى المعرضين عن القرآن والذكر في مواضع عدة من كتابه، ومع اختلاف أنواعهم، وعاقبتهم، وأحوالهم:

فقال الله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ [طه:١٠٠].

ففي تلك الآية ذم الله تعالى من انصرف وهجر وأعرض عن قرآنه، ولم يعمل به، والذكر في هذا الموضع المراد به القرآن؛ حيث قال الفخر الرازي: «ثم في تسمية القرآن بالذكر وجوه: أحدها: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم. وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه ففيه التذكير والمواعظ. وثالثها: فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤].

ثم قال: «واعلم أن الله تعالى سمى كل كتبه ذكرًا فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣]»[(١)]. فمن أعرض عن هذا الذكر الذي هو القرآن العظيم، أي: صد وأدبر عنه، ولم يعمل بما فيه من الحلال، والحرام، والآداب، والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد ويعتبر بما فيه من القصص، والأمثال، ونحو ذلك فإنه يحمل يوم القيامة وزرًا، والوزر هو: العقوبة الثقيلة الباهظة. سماها وزرًا تشبيهًا في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره، ويلقي عليه بوزره. أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم[(٢)].

وفي موضع آخر قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

ففي هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى حال وعاقبة الإعراض المذموم، ومنها الإعراض عن القرآن، فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: أعرض عن ديني، وتلاوة كتابي، والعمل بما فيه[(٣)].

وفي موضع آخر بيَن الله تعالى عاقبة الإعراض المذموم، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:١٧] قال ابن جرير الطبري: «ومن يعرض عن ذكر ربه الذي ذكره به، وهو هذا القرآن؛ ومعناه: ومن يعرض عن استماع القرآن واستعماله، يسلكه الله عذابًا صعدًا: يقول: يسلكه الله عذابًا شديدًا شاقًا»[(٤)].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٩٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٩٥.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٩٥.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٣٠٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٥٨، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٥٣.
(٤) جامع البيان، ٢٣/ ٦٦٤.

وفي موضع آخر قال الله تعالى عن أهل الإعراض المذموم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف:٥٧].

أي: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ولم يتدبرها ولم يتذكر بها وهذا السبك وإن كان مدلوله الوضعي نفي الأظلمية من غير تعرضٍ لنفي المساواة في الظلم، إلا أن مفهومه العرفي أنه أظلم من كل ظالم وبناء الأظلمية على ما في حيز الصلة من الإعراض عن القرآن للإشعار بأن ظلم من يجادل فيه ويتخذه هزوًا خارجٌ عن الحد ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: عمله من الكفر والمعاصي التي من جملتها ما ذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاء بالحق ولم يتفكر في عاقبتها»[1].

وفي موضع آخر بيَن سبحانه حال المعرضين عن الكتاب العظيم من كفار قريش، وذكر إعراضهم وتوبيخهم فقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ [ص:٦٧-٦٨].

فالنبأ العظيم هو القرآن، فإنه نبأ عظيم؛ لأنه كلام الله. قال الزجاج: قل: النبأ الذي أنبأتكم به عن الله نبأ عظيم، يعني: ما أنبأهم به من قصص الأولين، وذلك دليل على صدقه، ونبوته؛ لأنه لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله، وجملة ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ توبيخ لهم، وتقريع لكونهم أعرضوا عنه، ولم يتفكروا فيه، فيعلموا صدقه، ويستدلوا به على ما أنكروه من البعث[2].

٢. الإعراض عن الآيات الكونية.

فقد ذكر الله تعالى في مواضع عدة من كتابه المعرضين عن آيات الله الكونية، ولم يتدبروها ولم يتعظوا منها، ولم يتخذوها عبرة وعظة؛ ليؤمنوا بالله تعالى، بل أعرضوا عنها، وجحدوها.

قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ [يوسف:١٠٥].

قال الإمام الطبري: «يقول جل وعز: وكم من آية في السماوات والأرض لله، وعبرةٍ وحجةٍ، وذلك كالشمس والقمر والنجوم، ونحو ذلك من آيات السماوات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، يقول: يعاينونها فيمرون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهية لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٣٠.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٠٨.

شيء، فدبرها»(١).

وفي موضع آخر يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء:٣٢].

أي: وهؤلاء المشركون عن آيات السماء؛ كشمسها وقمرها ونجومها. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي: يعرضون عن التفكر فيها، وتدبر ما فيها من حجج الله عليهم، ودلالتها على وحدانية خالقها، وأنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا لمن دبرها وسواها، ولا تصلح إلا له(٢).

ويتأكد ذلك في موضع آخر يقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام:٤].

أي: وما تأتي هؤلاء الكفار الذين بربهم يعدلون ﴿ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وحجة وعلامة ودلالة من حجج ربهم ودلالاته وأعلامه على وحدانيته، ونبوة رسوله صلى الله عليه وسلم، وصدقه، فما كان من حالهم ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، عن هذه الآية، فصدوا عن قبولها والإقرار بما شهدت على حقيقته ودلت على صحته، جهلًا منهم بالله، واغترارًا بحلمه عنهم(٣).

بل يؤكد سبحانه وتعالى ماكان عليه هؤلاء الكفار من الجحود والإعراض عن آيات الله ومعجزاته التي حصلت لنبيه صلى الله عليه وسلم وقد رأوها رأي العين، وكان ذلك في وجودهم وحضورهم، وهي معجزة انشقاق القمر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر:١-٢].

فانشقاق القمر أيام النبوة معجزةٌ لرسول صلى الله عليه وسلم.

قال ابن كثير: «كان الانشقاق في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة».

ثم قال: «وهذا أمرٌ متفقٌ عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات»(٤).

وقد وردت أحاديث في ذلك:

١. فعن أنس بن مالك؛ «أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما»(٥).

٢. عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة

---

(١) جامع البيان ١٦/ ٢٨٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٨/ ٤٣٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٦٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٧٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الصحابة، باب انشقاق القمر، رقم ٣٨٦٨.

النبي صلى الله عليه وسلم آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾[1].

ومع هذه المعجزة العظيمة التي حصلت في حضورهم ووجودهم إلا أنهم أعرضوا عن الإيمان بالله وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم وكذبوا وقالوا: سحرٌ شديدٌ يعلو كل سحرٍ[2].

وفي موضع آخر بيَن الله جل ثناؤه كثرة الآيات وتجددها على هؤلاء الكفار، ومع ذلك يعرضوا عنها ولم يلتفتوا لها. قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٤٦﴾ [يس:٤٦] فـ«ما» هنا في هذه الآية نافية، وأتت مع صيغة المضارع؛ للدلالة على التجدد. و﴿مِّنۡ ءَايَةٖ﴾ فـ﴿مِّنۡ﴾ هنا؛ للتوكيد، و﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ﴾ فـ﴿مِّنۡ﴾ هنا تفيد التبعيض. والمعنى: ما تأتيهم من آية دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد في حال من الأحوال ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ وظاهره يشمل الآيات التنزيلية والتكوينية، والمراد بالإعراض عدم الالتفات إليها وترك النظر الصحيح فيها[3].

وجملة ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٤٦﴾ واقعة موقع التذييل لما قبلها، ففيها تعميم أحوالهم وأحوال ما يبلغونه من القرآن، فكأنه قيل: وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا، والإعراض دأبهم في كل ما يقال لهم.

والمراد بالآيات: آيات القرآن التي تنزل فيقرؤها النبي صلى الله عليه وسلم، فأطلق على بلوغها إليهم فعل الإتيان، ووصفها بأنها من آيات ربهم؛ للتنويه بالآيات والتشنيع عليهم بالإعراض عن كلام ربهم كفرًا بنعمة خلقه إياهم[4].

٣. الإعراض عن التوحيد.

فيخبر الله جل وعلا عن أهل الكفر والشرك، أنهم يلجؤون إليه سبحانه في الشدائد، ويوحدونه ويفردونه بالعبادة، ثم لما ينجيهم من الكرب والشدة، إذا هم يعرضون ويتركون ماكانوا عليه وقت الشدة من إفراده سبحانه بالعبادة، ثم يعودون لما كانوا عليه من الشرك والكفر.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ [الإسراء:٦٧].

فهذا إعراض جديد من أهل الكفر، وهو إن الكفار إذا مسهم الضر في البحر؛ أي: اشتدت عليهم الريح فغشيتهم أمواج

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب انشقاق القمر، رقم ٢٨٠٢.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٤٥.
(٣) انظر: فتح البيان، القنوجي ١١/ ٣٠١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣١.

البحر كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك، ضل عنهم؛ أي: غاب عن أذهانهم وخواطرهم في ذلك الوقت كل ما كانوا يعبدون من دون الله جل وعلا، فلا يدعون في ذلك الوقت إلا الله جل وعلا وحده؛ لعلمهم أنه لا ينقذ من ذلك الكرب وغيره من الكروب إلا هو وحده جل وعلا، فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هول البحر، فإذا نجاهم الله وفرج عنهم، ووصلوا البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر»[(١)].

ثم يخبر سبحانه أنهم بعد مانجاهم الله تعالى من الكرب، كان حالهم الإعراض عن توحيده، فقال تعالى: ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: عن الإخلاص لله وتوحيده، ورجعتم إلى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ أي: كثير الكفران لنعمة الله، وهو تعليلٌ لما تقدمه، والمعنى: أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله، وفي الرخاء يعرضون عنه[(٢)].

٤ . الإعراض عن شكر الله.

فيخبر الله تعالى في مواضع متعددة من كتابه عن من يعرض عن شكر نعمته سبحانه وتعالى، ويكفر بها بعدما أنعم الله عليه بها، ومن هؤلاء قوم سبأ، حيث قال الله تعالى عنهم: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ: ١٦].

وذلك لما أنعم الله تعالى على أهل سبأ كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ١٥].

ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التي أنعم بها عليهم، فقال: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن شكر نعمة الله تعالى، وكفروا بالله، وكذبوا أنبياءهم. ثم لما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة؛ أرسل الله عليهم نقمة فسلب بها ما أنعم به عليهم[(٣)]، فقال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: الصعب والمطر الشديد- أو الوادي- أو السكر الذي يحبس الماء- أو هو البناء الرصين المبني بين الجبلين؛ لحفظ ماء الأمطار وخزنها. وقد ترك فيه أثقاب على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم، فلما طغوا أهلكهم الله بخراب هذا البناء، فانهال عليهم تيار مائه، فأغرق بلادهم وأفسد عمرانهم وأرضهم. واضطر من نجا منهم للنزوح عنها. كما قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي: ثمر مر، أو بشع لا يؤكل ﴿وَأَثْلٍ﴾ شجر يشبه

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٧١.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٨٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٣٦٧.

الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له ﴿وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾ وهو شجر النبق، أي قلة لا تسمن ولا تغني من جوع. فهذا تبديل النعم بالنقم لمن لم يشكر النعم»[1].

وفي موضعين اثنين من القرآن العظيم يخبر الله تعالى عن نقص جنس الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمالٍ وعافيةٍ، وفتحٍ ورزقٍ ونصرٍ، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه[2].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾ [الإسراء:٨٣].

ففي هذه الآية إشارة إلى السبب في وقوع جنس الإنسان في أودية الضلال، وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى، وكفران نعمه تعالى بالإعراض عن شكرها، والجزع واليأس من الفرج عند مس شر قضى عليه، وكل ذلك مما ينافي عقد الإيمان، فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة، ويشاهده قدرة الله تعالى في كلتا الحالتين. ويتيقن في الحالة الأولى أن الشكر رباط النعم. وفي الثانية أن الصبر دفاع النقم، فيشكر ويصبر، ويعلم أن المنعم يقدر فلم يعرض عند النعمة بطرًا وأشرًا، ولم يغفل عن ولم يجزع عند النقمة جزعًا وضجرًا[3].

وفي موضع آخر يقول سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ [فصلت:٥١]

وليس بين الآيتين تنافٍ، فإن ذلك شأن بعض منهم غير بعض المذكور في الآية السابقة، فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه[4].

٥. الإعراض عن حكم الله ورسوله.

فيخبر سبحانه وتعالى عن أحوال أهل النفاق وإعراضهم عن حكم الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨﴾ [النور:٤٨].

يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولًا بألستهم، وحال هؤلاء المنافقين ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ أي: إذا طلبوا إلى اتباع الهدى، فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه. وهذه كقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٣٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١١٣.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٤٩٩.
(٤) انظر: فتح البيان، القنوجي ٧/ ٤٤٦.

﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النساء: ٦٠-٦١][1].

وهذا يدل على أنهم إنما يعرضون عن حكم الله متى عرفوا الحق لغيرهم أو شكوا. فأما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض وسارعوا إلى الحكم وأذعنوا ببذل الرضا[2].

٦. إعراض الزوج عن زوجته.

فيخبر سبحانه عن نوع معين من الإعراض المباح، وهو إعراض الزوج عن زوجته، في حالة كراهيتها أو دمامة أو كبر في السن؛ مما يرغب الزوج عن زوجته، فيبين الله تعالى ما هو الحل والمخرج من ذلك الأمر.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: ١٢٨].

وكان سبب نزول هذه الآية عن عائشة رضي الله عنها، ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ قالت: (الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثرٍ منها يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حلٍ فنزلت هذه الآية في ذلك)[3].

ففي هذه الآية حكم من الله تعالى في أمر المرأة التي تكون ذات سن ودمامة، أو نحو ذلك مما يرغب زوجها عنها، فيذهب الزوج إلى طلاقها، أو إلى إيثار شابة عليها، ونحو هذا مما يقصد به صلاح نفسه ولا يضرها هي ضررًا يلزمه إياها، بل يعرض عليها الفرقة أو الصبر على الأثرة، فتزيد هي بقاء العصمة، فهذه التي أباح الله تعالى بينهما الصلح، ورفع الجناح فيه، إذ الجناح في كل صلح يكون عن ضرر من الزوج يفعله حتى تعالجه، وأباح الله تعالى الصلح مع الخوف، وظهور علامات النشوز أو الإعراض، وهو مع وقوعها مباح أيضًا[4].

قال النحاس: الفرق بين النشوز والإعراض أن النشوز التباعد، والإعراض ألا يكلمها ولا يأنس بها[5].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٤.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٤/ ٤٢٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب إذا حلله من ظلمه فلا رجوع فيه، رقم ٢٤٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، رقم ٣٠٢١.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١١٩.
(٥) انظر: إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس ١/ ٢٤١.

عاقبة الإعراض

إن الإعراض عن الله تعالى سبب للعقوبات العاجلة والآجلة، وبه تزيغ القلوب، وتطمس البصائر، فتعمى عن الحق، وترتكس في الإثم، فيضيق الصدر، وتسود الدنيا عند المعرضين، وقد ذم النبي صلى الله عليه وسلم من أعرض عن تعلم شرع الله تعالى، فعن أبي واقدٍ الليثي (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالسٌ في المسجد والناس معه؛ إذ أقبل ثلاثة نفرٍ فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحدٌ، قال فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما أحدهما فرأى فرجةً في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله، فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه)[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه)، أي: لم يرحمه وسخط عليه.

وهو معنى الإعراض من الله تعالى؛ لأن من أعرض عن نبيه وزهد فيه فليس بمؤمن، وإن كان هذا مؤمنًا وذهب لحاجة من حوائج الدنيا وضرورة دعته إلى ذلك، فيكون إعراض الله تعالى عنه ترك رحمته وعفوه، وتقريبه وقبوله الذى أعطاها صاحبيه، فلم يثبت له حسنة ولا نفى عنه سيئة؛ إذ لم يكن منه ما يثاب بذلك[2].

أولًا: عاقبة أهل الإعراض في الدنيا:

فكما مر بنا أن الإعراض ينقسم في القرآن إلى إعراض محمود وإعراض مذموم.

أولًا: عاقبة الإعراض المحمود في الدنيا:

١. الكفاية والطمأنينة.

فقد أخبر الله تعالى أنه سبحانه وتعالى كفى رسوله شر المستهزئين وكيدهم. قال الله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥].

٢. الأمن والحفظ والنصرة.

قال الله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ١/ ٣٦، رقم ٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب من أتى مجلسًا فوجد فرجة فجلس فيها وإلا وراءهم، ٤/ ١٧١٣، رقم ٢١٧٦.

(٢) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٧/ ٦٧.

﴿يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٤٢﴾ [المائدة:٤٢].

فقوله تعالى: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ أي: إن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم، فلا سبيل لهم عليك؛ لأن الله حافظك وناصرك عليهم[1].

٣. الفلاح.

فقد أخبر الله تعالى بأن من صفات المؤمنين المفلحين هو الإعراض عن اللغو.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون:١-٣].

ثانيًا: عاقبة الإعراض المذموم في الدنيا:

١. سبب لنزول العذاب في الدنيا، ورفع العافية، وإبدال النعم نقمًا.

كما أخبر الله تعالى عن قوم سبأ وما هم فيه من نعيم الدنيا، ثم تحولت العافية عنهم، وأبدل حالهم من النعمة إلى النقمة بسبب إعراضهم ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦﴾ [سبأ:١٦].

٢. وقوع الطمس على القلب.

فيطمس الله على قلوب المعرضين، فلا تعي الذكر، ولا تبصر الحق، ولا يسير أصحابها فيما ينفعهم، بل يرتكسون في الكفر، ويرتمسون في النفاق والاستكبار، ويجادلون بالباطل.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾ [الكهف:٥٧].

٣. الصرف عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال.

المعرضون لا يستطيعون اتباع الحق؛ من الخذلان الذي حاق بهم؛ عقوبة لهم على إعراضهم ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت:٤-٥].

٤. العيش في ضيق وضنك.

ومن العذاب العاجل ما يجدونه في صدورهم من ضيق بالشريعة وأحكامها، ومن ضنك يجعل عيشهم مرًا ولو كانوا في الظاهر منعمين ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه:١٢٤].

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «رأيت سبب الهموم والغموم الإعراض عن

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٩.

الله عز وجل، والإقبال على الدنيا»[1].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه؛ فإن من أحب شيئًا غير الله عذب به، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا»[2].

ثانيًا: عاقبة أهل الإعراض المذموم في الآخرة:

١. حمل الأوزار يوم القيامة:

وأما عذاب الآخرة لأهل الإعراض عن الله تعالى وعن شريعته فشديد أليم.

قال الله تعالى في الكتاب العزيز: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه:٩٩-١٠١].

٢. الوعيد لهم من الله بالانتقام.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة:٢٢].

وانتقامه سبحانه منهم يكون في الدنيا بما يصيبهم في أنفسهم وأهلهم وأموالهم، ويكون في الآخرة بالعذاب الشديد ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٦].

٣. يحشرون عميًا يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته، أعمى الله به بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب، كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركه ذكره، تركه في العذاب.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧].

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الطاعة، النفاق

(١) انظر: صيد الخاطر ص ٣٤١.
(٢) انظر: زاد المعاد ٢/ ٢٥.





عناصر الموضوع

مفهوم الافتراء	٦٢
الافتراء في الاستعمال القرآني	٦٣
الألفاظ ذات الصلة	٦٤
ميادين الافتراء ومظاهره	٦٦
ذم المفترين والرد عليهم	٧٩
أسباب الافتراء	٨٥
آثار الافتراء	٨٧
عاقبة الافتراء	٨٩



مفهوم الافتراء

أولًا: المعنى اللغوي:

الافتراء مصدر مشتق من مادة (فري): بمعنى قطع الشيء، يقال: فراه يفريه فريًا: شقه شقًّا، ثم يفرع منه ما يقاربه، من ذلك، فيقال: فريت الشيء أفريه فريًا، وذلك قطعك له لإصلاحه، ومن الباب: فلانٌ يفري الفري إذا كان يأتي بالعجب، كأنه يقطع الشيء قطعًا عجبًا[(١)]. وفرى الكذب: اختلقه، يقال: فرى فلانٌ كذبًا يفريه إذا خلقه[(٢)].

فالافتراء في اللغة هو: اختلاق الكذب.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي للافتراء هو ذاته المعنى اللغوي؛ إذ إن الافتراء في الاصطلاح هو: اختلاق الأخبار التي لا أصل لها، وهو بذلك من الكذب العمد؛ بل هو شر الكذب.

قال ابن عاشور: «الافتراء: اختلاق الأخبار، أي: ابتكارها، وهو الكذب عن عمد»[(٣)].

وقال ابن عطية: «الافتراء أخص من الكذب، ولا يستعمل إلا فيما بهت به المرء وكابر، وجاء بأمر عظيم منكر»[(٤)].

وبالتأمل في المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي نجد أنه لا فرق بينهما؛ إذ كلاهما يعني: اختلاق الكذب، والافتراء أخص من الكذب، وأشد منه.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٩٧.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٢٣٠.
(٣) التحرير والتنوير ١٩/ ١٣.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٣.



الافتراء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فري) في القرآن (٦٠) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٥	﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨]
الفعل المضارع	٢٦	﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه:٦١]
المصدر	٢	﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾[الأنعام:١٤٠]
اسم الفاعل	٣	﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[الأعراف:١٥٢]
اسم المفعول	٣	﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[هود:١٣]
الصفة المشبهة	١	﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾[مريم:٢٧]

وجاء الافتراء في القرآن على معناه اللغوي، وهو: الاختلاق والكذب في حق الغير بما لا يرتضيه، فهو أخص من الكذب، وأصله من الشق والقطع للإفساد، ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٦٧-٢٦٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٨٧٥-٨٧٦.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤٩٦-٤٩٧، لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ١٥٢-١٥٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكذب:

الكذب لغة:

مادة كذب: الكاف والذال والباء: أصلٌ صحيحٌ يدل على خلاف الصدق[١].

الكذب اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «هو الإخبار عن الشيء على خلاف الواقع؛ سواء بالقول، أو بالإشارة، أو بالسكوت»[٢].

الصلة بين الكذب والافتراء:

أن الافتراء أخص من الكذب، وأشد قبحًا منه؛ لأن الافتراء اختلاق الأخبار الكاذبة التي لا أصل لها، وكذلك فإن الافتراء كذبٌ في حق الغير بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب فإنه قد يكون في حق المتكلم نفسه لا في حق الغير؛ ولذا يقال لمن قال: «فعلت كذا ولم أفعل كذا» مع عدم صدقه في ذلك: هو كاذب، ولا يقال: هو مفتر، وكذا من مدح أحدًا بما ليس فيه، يقال: إنه كاذب في وصفه، ولا يقال: هو مفتر؛ لأن ذلك مما يرتضيه المقول فيه غالبًا، وقال سبحانه وتعالى حكاية عن الكفار: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[الشورى: ٢٤]؛ لزعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم بما لا يرتضيه الله سبحانه مع نسبته إليه[٣].

٢ الإفك:

الإفك لغةً:

أفك إفكًا وأفوكًا: كذب، وأفك فلانًا: جعله يكذب، وحرمه مراده[٤].

الإفك اصطلاحًا:

أعظم الكذب، وكل شيء في القرآن إفك فهو كذب[٥].

قال الشنقيطي: «واعلم بأن الإفك هو أسوأ الكذب؛ لأنه قلب للكلام عن الحق إلى

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ١٦٨، المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٥٢٨.
(٢) التعريفات، ص٧٤، وانظر: التوقيف، المناوي، ص٩٥٢.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٥٠- ٤٥١.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٩٣١.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٥٣.



الباطل، والعرب تقول: أفكه بمعنى قلبه»[١].

الصلة بين الإفك والافتراء:

يشترك الإفك والافتراء في أن كلًا منهما يعد من أشنع الكذب وأفظعه؛ وفي كليهما إساءة وإيذاء، ويختلف الإفك عن الافتراء بأن الإفك فيه قلب للحقيقة، أما الافتراء فهو اختلاق أخبار كاذبة ليس لها حقيقة أصلًا، وكلاهما شرٌّ محض.

٣ البهتان:

البهتان لغة:

مشتقٌّ من بهت الرجل يبهته بهتًا وبهتانًا فهو بهات، أي: قال عليه ما لم يفعله، فهو مبهوتٌ، والبهتان: افتراءٌ[٢].

البهتان اصطلاحًا:

هو الافتراء على الغير، وهو: الخبر المكذوب الذي لا شبهة لكاذبه فيه؛ لأنه يبهت من ينقل عنه[٣].

وقيل: هو كذب يبهت سامعه ويدهشه ويحيره؛ لفظاعته، وقال أبو البقاء: «سمي به؛ لأنه يبهت أي: يسكت؛ لتخيل صحته، ثم ينكشف عند التأمل»[٤].

الصلة بين البهتان والافتراء:

قال الكفوي: البهتان: هو الكذب الذي يبهت سامعه أي: يدهش له ويتحير. وهو أفحش من الكذب؛ لأنه إذا كان عن قصد يكون إفكًا، والإفك: إذا كان على الغير يكون افتراء، والافتراء: إذا كان بحضرة المقول فيه يكون بهتانًا[٥].

(١) أضواء البيان ٦/ ١٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٠٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٨.
(٤) انظر: التوقيف، المناوي ص ٨٤، الكليات، الكفوي ص ٢٢٦.
(٥) الكليات، الكفوي ص ١٥٤.

ميادين الافتراء ومظاهره

الميادين التي يكثر فيها الافتراء، ويظهر بقوة متعددة ؛نجملها فيما يلي:

أولًا: الافتراء في العقائد:

١ . الألوهية.

من أعظم أنواع الافتراء: الفرية على الله سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته وأفعاله، والذي يعني الاختلاق عليه والحكاية عنه ما لم يقله، أو اتخاذ الأنداد والشركاء.

١ . الافتراء على الله بادعاء الشركاء:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

أي: ومن يجعل لغير الله شركة مع الله قيوم السموات والأرض -سواء كانت الشركة بالإيجاد أو بالتحليل والتحريم- فقد اخترع ذنبًا عظيم الضرر[١]؛ لأن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد، فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة، إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون، مقطوعو الصلة بالله رب العالمين.

٢ . الافتراء على الله بما لم يقله:

ومن صور الافتراء على الله تزكية اليهود والنصارى لأنفسهم من غير برهان على ذلك، كما قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤٩-٥٠].

هذا توبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه؛ وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨].

ويقولون: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة:١١١].

وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، فتزكيتهم أنفسهم من أعظم الافتراء على الله عز وجل؛ لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقًّا، وما عليه المؤمنون المسلمون باطلًا، وهذا أعظم الكذب، وقلبٌ للحقائق بجعل الحق باطلًا، والباطل حقًّا[٢].

ولما كان الشرك أعظم الافتراء على الله أرسل الله الرسل لإبطال ما اختلقه المشركون على الله من عبادة غير الله، ودعوتهم إلى عبادة الله، كما قال هود عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

أي: ولقد أرسلنا إلى عادٍ أخاهم هودًا

(١) تفسير المراغي ٥/ ٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨٢.

آمرًا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهيًا لهم عن عبادة الأوثان التي افتروها، واختلقوا لها أسماء الآلهة[1]، وتسميتهم إياهم شفعاء يتقربون بهم أو بقبورهم أو بصورهم وتماثيلهم ويرجون النفع وكشف الضر عنهم بجاههم عنده.

ولما قام الأنبياء -صلوات الله عليهم- بدعوة أقوامهم إلى ترك عبادة غير الله، والقيام بعبادة الله؛ آمن بهم فريق، وعاندهم فريق آخر، سماهم القرآن الملأ.

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩].

أي: ما أعظم افتراءنا على الله إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهدانا الصراط المستقيم باتباع ملة إبراهيم[2].

وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في الدعوات أن يقوم الرسل وورثتهم من بعدهم بدعوة أقوامهم إلى عبادة الله، وترك عبادة غير الله، فيؤمن فريق، ويكفر فريق، ويتدافع الفريقان، ويجاهد الرسل والمؤمنون في الله حق جهاده، فيثبتون، وتكون العاقبة لهم، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

٢. النبوة والمعجزات.

من قبح المفترين ادعاؤهم على الرسل أنهم لم يأتوا بالمعجزات الباهرة والدلائل القاهرة من عند الله، وإنما هي اختلاق من عند أنفسهم، كما حكى الله عن فرعون وقومه من دعوة موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا﴾ [القصص: ٣٦].

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة على صدقهما فيما أخبر عن الله عز وجل من توحيده، واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة؛ وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢٩.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ٥.

فما صعد معهم ذلك[(١)].

وقد جعلوا انتفاء بلوغ مثل هذه الدعوة إلى آبائهم حتى تصل إليهم بواسطة آبائهم الأولين دليلًا على بطلانها؛ وذلك آخر ما يلجأ إليه المحجوج المغلوب حين لا يجد ما يدفع به الحق بدليل مقبول، فيفزع إلى مثل هذه التلفيقات والمباهتات[(٢)].

ولما جاءت مريم -عليها السلام- بعيسى عليه السلام المعجزة الإلهية من غير أب تحمله، أنكر عليها قومها ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾.

والذي يفهم من الآية أن مرادهم بقولهم: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: منكرًا عظيمًا؛ لأن «الفري» فعيلٌ من الفرية، يعنون به الزنا؛ لأن ولد الزنا كالشيء المفترى المختلق؛ لأن الزانية تدعي إلحاقه بمن ليس أباه، ويدل على أن مرادهم بقولهم: «فريًا» الزنا؛ قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

لأن ذلك البهتان العظيم الذي هو ادعاؤهم أنها زنت، وجاءت بعيسى من ذلك الزنا -حاشاها وحاشاه من ذلك- هو المراد بقولهم لها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، ويدل لذلك قوله تعالى بعده: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]. والبغي الزانية، يعنون كان أبواك عفيفين لا يفعلان الفاحشة، فما لك أنت ترتكبينها؟! ومما يدل على أن ولد الزنا كالشيء المفترى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢].

قال بعض العلماء: أي: ولا يأتين بولد زنًا يقصدن إلحاقه برجلٍ ليس أباه، هذا هو الظاهر الذي دل عليه القرآن في معنى الآية[(٣)].

وعندما ينسخ الله حكمًا، ويأتي بحكم آخر لحِكَم يعلمها ورحمة بعباده سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

قدحوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢].

يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو أن الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٣٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٥٥.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤١٤.

تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكمًا مكان آخر لحكمته ورحمته، فإذا رأوه كذلك قدحوا في الرسول، وبما جاء به، و﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢ﴾.

قال الله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشرعه.

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحًا صحيحًا؛ لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتًا بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئًا فشيئًا حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضًا فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكمًا من الأحكام ثم نسخه علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم، وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية.

﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجرًا حسنًا، ماكثين فيه أبدًا، وأيضًا فإنه كلما نزل شيئًا فشيئًا كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكمًا وبشارة أكثر، فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترووا منه أنزل نظيره وهكذا.

ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغًا عظيمًا، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها غيرهم.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم أن يتربوا بعلومه ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية[١].

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن المشركين لا يدركون وظيفة هذا الكتاب، لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي، وأنه الرسالة الأخيرة التي ليست بعدها من السماء رسالة، وأن الله الذي خلق البشر عليم بما يصلح لهم من المبادئ والشرائع، فإذا بدل آية انتهى أجلها واستنفدت أغراضها، ليأتي بآية أخرى أصلح للحالة الجديدة التي صارت إليها الأمة، وأصلح للبقاء بعد ذلك الدهر الطويل الذي لا يعلمه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٩.

إلا هو، فالشأن له، ومثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء تعطى للمريض منه جرعات حتى يشفى، ثم ينصح بأطعمة أخرى تصلح للبنية العادية في الظروف العادية.

إن المشركين لا يدركون شيئًا من هذا كله، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فحسبوها افتراء منه، وهو الصادق الأمين الذي لم يعهدوا عليه كذبًا قط[1].

وقد حاول المشركون بكل الطرق فتنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ليفتري على الله غير القرآن بما يوافق أهواءهم، لكن الله حفظ نبيه صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

يذكر تعالى منته على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك[2].

٣. الكتب.

أخبرنا الله عز وجل في كتابه الكريم عن تعنت الكافرين، واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه:

فتارة يزعمون أنه سحرٌ.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

إنهم بقولهم هذا يغالطون أنفسهم، ويغالطون قومهم لستر مكابرتهم ولدفع ما ظهر من الغلبة عليهم، وهذا شأن المغلوب المحجوج أن يتعلق بالمعاذير الكاذبة.

وتارة يزعمون أنه أضغاث أحلام، وتارة يزعمون أنه شعر جاء به شاعر، كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

يذكر تعالى ائتفاك المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم سفهوه، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة.

فتارة يقولون: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ بمنزلة كلام النائم الهاذي، الذي لا يحس بما يقول، وتارة يقولون: ﴿افْتَرَاهُ﴾ واختلقه وتقوله من عند نفسه.

وتارة يقولون: إنه ﴿شَاعِرٌ﴾ وما جاء به شعر.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع، من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به، جزم جزمًا لا يقبل الشك، أنه أجل الكلام

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٩٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٣.

وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحدًا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى الله أعداءه بذلك، ليعارضوا مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدروا على شيء من معارضته، وهم يعلمون ذلك وإلا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقض مضاجعهم وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء.

وإنما يقولون هذه الأقوال فيه -حيث لم يؤمنوا به- تنفيرًا عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وصدقه، وهو كاف شاف.

فمن طلب دليلًا غيره، أو اقترح آية من الآيات سواه، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه وطلبوا من الآيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة؛ لأنهم إن كان قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة -على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات- لا يؤمنون قطعًا، فلو جاءتهم كل آية، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم[(١)].

وتارة يزعمون أنه: ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ وهذا القول من بهتانهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

يقول تعالى مخبرًا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار، في قولهم عن القرآن: إن هذا القرآن كذب كذبه محمد، وإفك افتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون، فرد الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرة منهم، وإقدام على الظلم والزور.

فهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول صلى الله عليه وسلم وكمال صدقه وأمانته وبره التام، وأنه لا يمكنه، لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه على ذلك، فقد جاءوا بهذا القول ظلمًا وزورًا.

ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم التي تتلقاها الأفواه، وينقلها كل أحد استنسخها محمد ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وهذا القول منهم فيه عدة عظائم:

منها: رميهم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن الذي

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١٨.

هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أن في ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه للخالق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد علمت حالته، وهم أشد الناس علمًا بها، أنه لا يكتب، ولا يجتمع بمن يكتب له، وقد زعموا ذلك[(١)]، وما جرأهم على هذا البهتان إلا إشراكهم وتصلبهم فيه، ليس ذلك لشبهة تبعثهم على هذه المقالة لانتفاء شبهة ذلك[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣].

يخبر تعالى عن حالة المشركين عندما تتلى عليهم آيات الله البينات، وحججه الظاهرات، وبراهينه القاطعات، الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءتهم، ومنةٍ وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق والانقياد والتسليم، أنهم يقابلونها بضد ما ينبغي، ويكذبون من جاءهم بها[(٣)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨٢.

«فلم يثبتوا على صفة له، ولا على رأي يرونه فيه؛ لأنهم إنما يتمحلون ويحاولون أن يعللوا أثره المزلزل في نفوسهم بشتى التعللات، فلا يستطيعون، فينتقلون من ادعاء إلى ادعاء، ومن تعليل إلى تعليل، حائرين غير مستقرين، ثم يخلصون من الحرج بأن يطلبوا بدل القرآن خارقة من الخوارق التي جاء بها الأولون»[(٤)].

ودفاعًا عن القرآن ضد افتراءات المكذبين قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: لو افتريت يا محمد على القرآن كذبًا لطبع الله على قلبك، ولسلبك ما آتاك من القرآن، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى: ٢٤].

ثم برأ عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم مما نسبه إليه المفترون، وأثبت أنه الحق الكامل من ربه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣].

فالقرآن هو الحق من رب العالمين: «الحق بما في طبيعته من صدق ومطابقة لما في الفطرة من الحق الأزلي، وما في طبيعة الكون كله من هذا الحق الثابت.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٦٨.

الحق.. بما يحققه من اتصال بين البشر الذين يرتضون منهجه وهذا الكون الذي يعيشون فيه ونواميسه الكلية، وما يعقده بينهم وبين قوى الكون كله من سلام وتعاون وتفاهم وتلاق.

الحق.. الذي تستجيب له الفطرة حين يلمسها إيقاعه، في يسر وسهولة، وفي غير مشقة ولا عنت؛ لأنه يلتقي بما فيها من حق أزلي قديم، الحق.. الذي لا يظلم أحدًا في دنيا أو آخرة»[1].

ثم نفى سبحانه وتعالى أن يختلق هذا القرآن كذبًا، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المتقدمة، ومهيمنًا عليها، ومبينًا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وفيه بيان الأحكام والحلال والحرام، بيانًا شافيًا كافيًا حقًّا لا مرية فيه من الله رب العالمين[2].

قال سيد قطب رحمه الله: «وما كان من شأنه أصلًا أن يفترى، فليس الافتراء هو المنفي، ولكن جواز وجوده هو المنفي، وهو أبلغ في النفي وأبعد»[3].

ثم بين سبحانه وتعالى أن المتفعين بهذا القرآن هم المؤمنون فهو هدى ورحمة لهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي: يكذب ويختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات.

فلهذا كان: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويبتغون به الرحمة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٠٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٩.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٦.

من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد[١].

هكذا عرض القرآن الكريم افتراءات المكذبين، ثم دحضها عن القرآن وعن حامله، ثم أثبت بأنه من رب العالمين، ثم حدد المنتفعين به، وهم المؤمنون.

الافتراء على كتاب الله في الزمن الحاضر:

لقد ظهر في هذا العصر أحفاد للمفترين السابقين ساروا على نهجهم، واستخدموا طريقتهم في الافتراء، لم يوص بعضهم بعضًا بذلك، بل تشابهت قلوبهم في الافتراء، كما قال الله: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

فـ«منهم من أنكر الوحي، وادعى أن القرآن «أثر أدبي خالد» وأنه «منتج ثقافي» لا أكثر»[٢].

وصنف آخر اختلقوا قرآنًا يسمونه الفرقان الحق[٣]، وهو زيف وكذب وافتراء وتشويه وطمس للحقائق، لتشويه القرآن الكريم ورسالته السامية النبيلة، لقد بلغ صاحب هذا الكتاب ما لم يبلغه مسيلمة الكذاب، بل مسيلمة الكذاب لم يبلغ كذبه وافتراؤه إلى هذا الحد، بل كان يقر للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة، لكن كان يدعي أنه رسول آخر، ولا ينكر وجود الرب، ولا ينكر القرآن في الظاهر، وهذا المفتري جحد الرب، وأشرك به كل شيء، وافترى هذا الكتاب الذي يزعم أنه أعظم من القرآن.

وهذه المحاولة للدس والافتراء على كتاب الله الكريم ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة، ولكنها محاولات فاشلة. وسيبقى كتاب الله تعالى محفوظًا في الصدور وفي السطور، ولن تؤثر فيه محاولات التحريف والتزييف.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٢٧.

(٢) المفترون، خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، ص٣٢.

(٣) الفرقان الحق، كتبه القسيس الأمريكي «أنيس شوروش» بلغة عربية؛ لأنه من أصل عربي، فهو من نصارى مدينة «الناصرة» في فلسطين، وقد ادعى في كتابه أنه نجح في معارضة القرآن، وأنه بديل القرآن! وقد ادعى «شوروش» في كتابه النبوة «متنبئ الأمريكان» ويزعم أن الله أرسله نبيًا للعالمين في القرن الحادي والعشرين، أنزل عليه كتابه الأخير «الفرقان الحق» وقد استغرق إعداد الكتاب سبع سنوات، حيث بدأ إعداده بعد حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م، وانتهى منه عام ١٩٩٩م، وطبعه ثلاث طبعات، كانت الطبعة الثالثة عام ٢٠٠٢م وأصدره في ولاية تكساس في أمريكا باللغتين العربية والإنجليزية في سبع وسبعين سورة، ودعا فيه المسلمين بصراحة إلى التخلي عن ما هم فيه من كفر وضلال، أخذوه من القرآن والإيمان به، هو، وإفكه المفترى «الفرقان الحق»، ليكونوا على هدى وفلاح! وبذلك جعل كتابه بديلًا عن القرآن.

انظر: الانتصار للقرآن، تهافت فرقان متنبئ الأمريكان أمام حقائق القرآن، صلاح الخالدي ص ١٠.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وسيقذف الله بنور «القرآن الحق» على ظلام «الفرقان الحق المزعوم» فإذا هو مضمحل، كما اضمحلت المحاولات السابقة للافتراء على القرآن، ويخرج القرآن من هذه الافتراءات منتصرًا مضيئًا للخلق طريق الحق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وإنا من ذلك لعلى يقين.

لكن منزل القرآن سبحانه وتعالى يحب من حملته أن يكونوا درعًا حصينة في صد ودحض الافتراءات التي لا تنتهي ولن تنتهي؛ لأنها سنة الله في دعوته، وهذه الافتراءات زبد يتلاشى؛ إذ لا نفع فيها، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[الرعد: ١٧].

رابعًا: آيات الله وبراهينه:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧].

أي: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجرامًا ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك.

فليس أحد أكبر جرمًا ولا أعظم ظلمًا من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء!

فإن من قال هذه المقالة صادقًا أو كاذبًا فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس.

فإن الفرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حندس الظلماء، فمن سيما كل منهما وكلامه وفعاله يستدل من له بصيرة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وكذب مسيلمة الكذاب، وسجاح، والأسود العنسي[(١)].

و «من» استفهام إنكاري مستعمل في تهويل ظلم هذا الفريق، المعبر عنه بمن افترى على الله كذبًا و «من» الثانية موصولة، وهي عامة لكل من تتحقق فيه الصلة، وإنما كانوا أظلم الناس ولم يكن أظلم منهم لأن الظلم اعتداء على حق، وأعظم الحقوق هي حقوق الله تعالى، وأعظم الاعتداء على حق الله الاعتداء عليه بالاستخفاف بصاحبه العظيم، وذلك بأن يكذب بما جاءه من قبله، أو بأن يكذب عليه فيبلغ عنه ما لم يأمر به، فإن جمع بين الأمرين فقد عطل مراد الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٥٥.

تعالى من جهتين:

جهة إبطال ما يدل على مراده، وجهة إيهام الناس بأن الله أراد منهم ما لا يريده الله، والمراد بهذا الفريق: هم المشركون من العرب، فإنهم كذبوا بآيات الله التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وافتروا على الله الكذب فيما زعموا أن الله أمرهم به من الفواحش[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

«أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا كزعم من زعم أن له ولدًا أو شريكًا، أو أن غيره يدعى معه أو من دونه ويتخذ وليًا له يقرب الناس إليه زلفى ويشفع لهم عنده، أو زاد في دينهما ليس منه أو كذب بآياته المنزلة كالقرآن المجيد، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته أو التي يؤيد بها رسله»[(٢)].

ثانيًا: الافتراء في الشرائع:

من أعظم القضايا التي يقع فيها الافتراء قضية التحليل والتحريم، وهما تشريع شرعه الله سبحانه لعباده، وليس لمخلوقٍ حقٌّ في تحريم شيءٍ أباحه الرب لعباده تدينًا به إلا بوحيه وإذنه، وقد أنكر الله على من فعل ذلك.

فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وقد أوضح جل وعلا هذا المعنى في آياتٍ كثيرةٍ؛ كقوله: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩].

وقوله: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

وقد نهى سبحانه وتعالى عن القول عليه بما لم يقل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٦.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٢٨٧.

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي، أو حلل شيئًا مما حرم الله، أو حرم شيئًا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه[(١)].

فـ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ حين تقولونها بلا نص هي الكذب عينه، الذي تفترونه على الله، والذين يفترون على الله الكذب ليس لهم إلا المتاع القليل في الدنيا، ومن ورائه العذاب الأليم، والخيبة والخسران، ثم يجرؤ ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله، وبغير نص في شريعته يقوم عليه ما يشرعونه من القوانين، وينتظرون أن يكون لهم فلاح في هذه الأرض أو عند الله![(٢)].

وانتصب (الكذب) على المفعول المطلق لـ(تصف) أي: وصفًا كذبًا؛ لأنه مخالف للواقع؛ لأن الذي له التحليل والتحريم لم ينبئهم بما قالوا، ولا نصب لهم دليلًا عليه[(٣)].

وقد وقعوا فيما نهاهم الله عنه كما أخبر عنهم ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٨-١٣٩].

أي: من أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عمومًا، وجعلها رزقًا ورحمة، يتمتعون بها وينتفعون، قد اخترعوا فيها بدعًا وأقوالًا من تلقاء أنفسهم.

فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي: محرم ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف -من عندهم-.

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة إلا أهويتهم، وآراؤهم الفاسدة، وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها، ويسمونها الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم، وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله.

وهم كذبة فجار في ذلك ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ على الله، من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل، والمنافع.

ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام، ويعينونها محرمًا ما في بطنها على

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٠٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٥٠.

الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي: حلال لهم، لا يشاركهم فيها النساء، ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ أي: نسائنا، هذا إذا ولد حيًا، وإن يكن ما في بطنها يولد ميتًا فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله ﴿وَصْفَهُمْ﴾ حين وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يمهلهم جل جلاله.

ثم بين خسرانهم وسفاهة عقولهم، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم -بعد العقول الرزينة- السفه المردي، والضلال ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقًا لهم، فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال.

وكل هذا ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ أي: كذبًا يكذب به كل معاند كفار ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: قد ضلوا ضلالًا بعيدًا، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم[(١)].

وقد ذمهم الله سبحانه على قولهم وفعلهم، فقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

أي: ما شرع الله هذه الأشياء، ولا هي عنده قربة، ولكن المشركين افتروا ذلك، وجعلوه شرعًا لهم وقربة يتقربون بها إليه، وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم[(٢)].

والبحيرة: ناقة يشقون أذنها، ثم يحرمون ركوبها ويرونها محترمة.

والسائبة: ناقة، أو بقرة، أو شاة، إذا بلغت شيئًا اصطلحوا عليه، سيبوها فلا تركب ولا يحمل عليها ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئًا من ماله يجعله سائبة.

والحام: جمل يحمى ظهره عن الركوب والحمل، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم.

فكل هذه مما جعلها المشركون محرمة بغير دليل ولا برهان، وإنما ذلك افتراء على الله، وصادرة من جهلهم، وعدم عقلهم[(٣)].

روى البخاري بسنده عن سعيد بن المسيب قال: «البحيرة: التي يمنع درها

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ٢١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٦.

للطواغيت، فلا يحلبها أحدٌ من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيءٌ».

قال: وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت عمرو بن عامرٍ الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب).

والوصيلة: الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثني بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكرٌ، والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيءٌ وسموه الحامي[1].

وكان أول من تولى كبر هذا الافتراء «عمرو بن لحي»، فهو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام، روى ابن حبان بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (عرضت علي النار، فرأيت فيها عمرو بن لحي بن قمعة ابن خندف يجر قصبه[2] في النار، وكان أول من غير عهد إبراهيم، وسيب السوائب)[3].

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة)، رقم ٤٦٢٣.

(٢) الأقصاب: الأمعاء، واحدها قصب. انظر: غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام ٢/ ٣٢.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ذكر رؤية المصطفى صلى الله عليه وسلم في النار ابن قمعة يعذب فيها، رقم ٧٤٩٠. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٦٧٧.

ذم المفترين والرد عليهم

تنوعت أساليب القرآن في ذم المفترين والرد عليهم، وستتناول هذه الأساليب في النقاط الآتية:

أولًا: وصفهم بالظلم:

قال سبحانه وتعالى في معرض المبالغة في افتراء المفترين على الله الذين لم يبلغ أحد من الظالمين قبلهم ظلمهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

فلا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا ما بأن أوجب على عباده من العبادات ما لم يوجبه، أو حرم عليهم في الدين ما لم يحرمه، أو عزا إلى دينه أي حكمٍ لم يتزله على رسله، أو كذب بآياته المنزلة عليهم بالقول أو بما هو أدل منه وهو الاستكبار عن اتباعها، أو الاستهزاء بها، أو تفضيل غيرها عليها بالعمل[4].

«وإنما كانوا أشد الظالمين ظلمًا؛ لأن الظلم الاعتداء على أحد بمنعه من حقه،

(٤) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٦٧.

وأشد من المنع أن يمنعه مستحقه، ويعطيه من لا يستحقه، وأن يلصق بأحد ما هو بريء منه، ثم إن الاستحقاق وعدمه قد يثبتان بحكم العوائد، وقد يثبتان بأحكام الشرائع، وقد يثبتان بقضايا العقول السليمة، وهو أعلى مراتب الثبوت، ومدار أمور أهل الشرك على الافتراء على الله بأن سلبوا عنه ما هو متصف به من صفات الإلهية الثابتة بدلالة العقول.

وأثبتوا له ما هو منزه عنه من الصفات والأفعال بدلالة العقول، وعلى تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، ونكران دلالة المعجزة التي يقتضيها العقل، وعلى رمي الرسول صلى الله عليه وسلم بما هو بريء منه بشهادة العقل والعادة التي عرفوها منه بهتانًا وكذبًا، فكانوا بمجموع الأمرين وضعوا أشياء في مواضع لا يمكن أن تكون مواضعها، فكانوا أظلم الناس؛ لأن عدم الإمكان أقوى من عدم الحصول.

وتقييد الافتراء بالحال المؤكدة في قوله: ﴿كَذِبًا﴾ لزيادة تفظيع الافتراء؛ لأن اسم الكذب مشتهر القبح في عرف الناس، وإنما اختير الافتراء للدلالة على أنهم يتعمدون الاختلاق تعمدًا لا تخالطه شبهة»[1].

ثانيًا: تحديهم بالإتيان فيما زعموا أنه مفترى:

مر تحدي الله عز وجل للمشركين في القرآن المكي والمدني بأن يأتوا فيما زعموا أنه مفترى بمراحل:

المرحلة الأولى: أن الله سبحانه وتعالى تحداهم بالقرآن كله ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شاءوا، وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

أي: قل: لو اتفقت الإنس والجن على محاولة الإتيان بمثل هذا القرآن المعجز لا يستطيعون الإتيان به، ولو تعاونوا وتظاهروا على ذلك.

المرحلة الثانية: تدرج معهم إلى عشر سور منه، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

أي: فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

المرحلة الثالثة: ثم تحداهم بسورة، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٠٥.

﴿مِثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

أي: إن شككتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذبًا: «إن هذا من عند محمد»، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان، ولفظ سورةٍ هنا يشمل القصيرة والطويلة.

وكذا في سورة البقرة تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدًا، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم؛ وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقيادًا[(١)].

وهنا تساؤل: لم قال في سورة البقرة: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وقال في سورة يونس: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾؟

والجواب: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان رجلًا أميًا، لم يتعلم على أحد، ولم يطالع كتابًا، فقال في سورة البقرة ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ يعني: فليأت إنسان يساوي محمدًا صلى الله عليه وسلم في أميته بسورة تساوي هذه السورة، وحيث ظهر العجز ظهر المعجز.

فهذا لا يدل على أن السورة في نفسها معجزة، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم في أميته معجز، ثم إنه تعالى بين في سورة يونس أن تلك السورة في نفسها معجز، فإن الخلق وإن تعلموا وطالعوا وتفكروا فإنه لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور، فلا جرم قال تعالى في هذه الآية: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ ولا شك أن هذا ترتيب عجيب في باب التحدي وإظهار المعجز[(٢)].

وعن جهاده صلى الله عليه وسلم في دحض افتراءات المفترين: قال الفضيل بن عياض رحمه الله: فلم يزل يقرعهم النبي صلى الله عليه وسلم أشد التقريع ويوبخهم غاية التوبيخ ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٥٤.

أنفسهم بالتكذيب والإغراء بالافتراء[1].

ثالثًا: بيان تناقضهم في الاتهام والأقوال:

أخبر سبحانه عن تناقض أقوال المشركين، ولقن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بـ(قل) التلقينية، فقال: قل لهؤلاء: هل حرم الله الذكرين من الغنم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا في ذلك؛ لأنهم لا يحرمون كل ذكر من الضأن والمعز، وقل لهم: هل حرم الله الأنثيين من الغنم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا أيضًا؛ لأنهم لا يحرمون كل أنثى من ولد الضأن والمعز.

وقل لهم: هل حرم الله ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز من الحمل؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا أيضًا؛ لأنهم لا يحرمون كل حمل من ذلك، خبروني بعلم يدل على صحة ما ذهبتم إليه، إن كنتم صادقين فيما تنسبونه إلى ربكم.

قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

المعنى: قل لهم: إن كان حرم الذكور فكل ذكر حرام؛ لئن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام، لئن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعني من الضأن والمعز، فكل مولود حرام، ذكرًا كان أو أنثى، وكلها مولود فكلها إذًا حرام لوجود العلة فيها، فبين انتقاض علتهم وفساد قولهم[2].

«ففي هاتين الآيتين كشف الله لهم عما في معتقداتهم وتصوراتهم وتصرفاتهم من وهن وسخف وهزال، وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس، وقد ردهم إلى نشأة الحرث والأنعام التي يتصرفون فيها من عند أنفسهم، أو بوحي شياطينهم وشركائهم، بينما هؤلاء لم يخلقوها لهم، إنما الذي خلقها لهم هو الله، الذي يجب أن تكون له وحده الحاكمية فيما خلق وفيما رزق، وفيما أعطى من الأموال للعباد.

الآن يقرر لهم ما حرمه الله عليهم من هذا كله، ما حرمه الله حقًا عن بينة ووحي، لا عن ظن ووهم، والله هو صاحب الحاكمية الشرعية، الذي إذا حرم الشيء فهو حرام، وإذا أحله فهو حلال بلا تدخل من البشر،

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٠٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١١٥.

ولا مشاركة ولا تعقيب في سلطان الحاكمية والتشريع»[1].

رابعًا: إرخاء العنان لهم في المجادلة ثم إدانتهم:

الحق تبارك وتعالى يرخي للخصم العنان؛ ليقول كل ما عنده، وليأخذه إلى جانبه، لا بما يكره، بل بما يحب وأمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

ومعنى ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أنها مفتريات المعاني كما تزعمون على القرآن، أي بمثل قصص أهل الجاهلية وتكذيبهم، وهذا من إرخاء العنان والتسليم الجدلي، فالمماثلة في قوله: ﴿مِثْلِهِ﴾ هي المماثلة في بلاغة الكلام وفصاحته، لا في سداد معانيه[2].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود: ٣٥].

وهذه الآية وإن اختلف المفسرون في المراد منها، فقيل: إنها حكاية عن نوح صلى الله عليه وسلم، وما قاله لقومه، وقيل: هي حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكفار مكة[3].

وعلى القول بأنها في النبي صلى الله عليه وسلم فالمراد: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعله من عنده محمد ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي: فإثم ذلك علي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: ليس ذلك مفتعلًا ولا مفترى؛ لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه[4].

وفي هذه الجملة توجيه بديع وهو إفادة تبرئة نفسه من أن يفتري القرآن، فإن افتراء القرآن دعوى باطلة ادعوها عليه فهي إجرام منهم عليه، فيكون المعنى: وأنا بريء من قولكم الذي تجرمونه علي باطلًا[5].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف: ٨].

أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني -وليس كذلك- لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٢-٢٣].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٢٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢١٩.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٤٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣١٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٥٤.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

ولهذا قال ها هنا: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد[1].

وهذه الأمثلة من باب إرخاء العنان للخصم ليدخل في المقصود بألطف موعود.

خامسًا: التهديد والوعيد لهم بسوء المصير:

أقسم سبحانه وتعالى بذاته العلية أنه سوف يسأل المفترين يوم القيامة عن افتراءاتهم، وسيجازيهم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه، وائتفكوه، وليقابلنهم عليه، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠].

أن يفعل الله بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠].

والمراد منه تعظيم وعيد من يفتري على الله.

ثم قال سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: دعهم وافتراءهم، فأنا من ورائهم قادر على أخذهم ومدخر لهم جزاءهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

وكما ابتليناك -أيها الرسول- بأعدائك من المشركين ابتلينا جميع الأنبياء عليهم السلام بأعداء من مردة قومهم، وأعداء من مردة الجن، يلقي بعضهم إلى بعض القول الذي زينوه بالباطل؛ ليغتر به سامعه، فيضل عن سبيل الله، ولو أراد ربك جل جلاله لحال بينهم وبين تلك العداوة، ولكنه الابتلاء من الله، فدعهم وما يختلقون من كذب وزور.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٧٦.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٥٧٧.

أسباب الافتراء

للافتراء أسباب، منها:

١. الكفر.

أخبر تعالى أن الذين يفترون الكذب على الله وعلى رسوله شرار الخلق من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علمًا وعملًا وإيمانًا وإيقانًا، معروفًا بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد[(١)].

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان فيما قال له: وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله[(٢)].

٢. العناد.

أخبر تعالى أن العناد والظلم كان سببًا لافتراء المفترين، كما قال تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨].

فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فتجرأ عليه، وقال ما قال؟ ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾؟ فلا يستغرب منه، فإن الجنون فنون.

وكل هذا منهم، على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه.

فلو كان كاذبًا مجنونًا لم ينبغ لكم -يا أهل العقول غير الزاكية- أن تصغوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون لا ينبغي للعاقل أن يلتفت إليه نظره، أو يبلغ قوله منه كل مبلغ، ولولا عنادكم وظلمكم لبادرتم لإجابته، ولبيتم دعوته[(٣)].

ولكن ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

٣. الجهل.

أخبر تعالى أن الجهل سبب افتراء المشركين، ومن على شاكلتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

(١) المصدر السابق ٤/ ٦٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، رقم ٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٥.

يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافترائهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر نصيبًا مما رزقهم الله، وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦][1].

قال أبو حيان رحمه الله: «قبح تعالى فعلهم ذلك، وهو أن يفردوا نصيبًا مما أنعم به تعالى عليهم لجماداتٍ لا تضر ولا تنفع، ولا تنتفع هي بجعل ذلك النصيب لها، ثم أقسم تعالى على أنه يسألهم عن افترائهم واختلاقهم في إشراكهم مع الله آلهةً، وأنها أهلٌ للتقرب إليها بجعل النصيب لها، والسؤال في الآخرة، أو عند عذاب القبر، أو عند القرب من الموت»[2].

ويقول سيد قطب رحمه الله: «ما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت، يجعلون نصيبًا من رزق الله لهم موقوفًا على ما يشبه آلهة الجاهلية، ما يزال بعضهم يطلق عجلًا يسميه «عجل السيد البدوي» يأكل من حيث يشاء لا يمنعه أحد، ولا ينتفع به أحد، حتى يذبح على اسم السيد البدوي لا على اسم الله! وما يزال بعضهم ينذرون للأولياء ذبائح يخرجونها من ذمتهم لا لله، ولا باسم الله، ولكن باسم ذلك الولي، على ما كان أهل الجاهلية يجعلون لما لا يعلمون نصيبًا مما رزقهم الله، وهو حرام نذره على هذا الوجه، حرام لحمه، ولو سمي اسم الله عليه»[3].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٨.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٥٤٧.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٧٧.

آثار الافتراء

أولًا: آثار الافتراء على الفرد:

١. المفتري على الله سبحانه وتعالى أعظم الظالمين والمجرمين. قال تعالى: ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [آل عمران: ٩٤].

٢. الافتراء سمة كل كافر. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

٣. يؤدي الافتراء إلى الوقوع في الشرك والبدع. قال ابن تيمية رحمه الله: «الشرك وسائر البدع مبناها على الكذب والافتراء، ولهذا كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد كان إلى الشرك والابتداع والافتراء أقرب، كالرافضة الذين هم أكذب طوائف أهل الأهواء، وأعظمهم شركًا، فلا يوجد في أهل الأهواء أكذب منهم، ولا أبعد عن التوحيد منهم، حتى إنهم يخربون مساجد الله التي يذكر فيها اسمه، فيعطلونها عن الجماعات والجمعات، ويعمرون المشاهد التي على القبور، التي نهى الله ورسوله عن اتخاذها»[1].

٤. سبب في الحرمان من الهداية. قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

٥. سبب في عدم الفلاح. قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩].

٦. يؤدي الافتراء إلى الذل والمهانة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]. قال السعدي: «وكذلك نجزي المفترين فكل مفترٍ على الله، كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيبًا من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا»[2].

٧. الافتراء سبب في وقوع العذاب في الدنيا. قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ٢/ ٢٨١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٣.

بِعَذَابٍۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾ [طه: ٦١].

٨. الافتراء سبب في شدة سكرات الموت والعذاب الأليم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [الأنعام٩٣].

٩. الافتراء سبب في استحقاق لعنة الله وغضبه. قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

١٠. الافتراء سبب في مناقشة الحساب يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

ثانيًا: آثار الافتراء على المجتمع:

١. الافتراء من أشد أنواع الخطر العظيم، والضرر البالغ الذي لا يقتصر على من فعله، بل يتعداه إلى سائر طبقات المجتمع وعموم جهاته، وما يجلبه من سخط الجبار، وعذاب النار، والخزي والذلة والعار.

٢. الكذب يؤدي بالمجتمع إلى التفكك، ويجعل أفراده المستهترين الممارسين الافتراء يفسدون في الأرض، ويمارسون كل أنواع الرذيلة؛ لأنهم لم يخافوا الله عز وجل .

٣. المجالس التي يعرض فيها الكذب وغيرها، وتمارس فيه من قبل بعض الحاضرين هي حقيقة مواطن عدوى، ومصادر فتنة، وخلايا فساد، ومعاول هدم بما تنشره من شرور تؤدى إلى هدم المجتمع المسلم.

٤. الافتراء أعظم خطرًا على المجتمع، حيث يؤدي إلى عدم تحقق مقصد من مقاصد الشريعة، وهو حفظ الأمة، والذي يعني بث الثقة والأمان بين أفرادها، وطرح ما من شأنه إدخال الشك؛ لأنه إذا فتح هذا الباب عسر سده، وكما يتهم المتهم غيره يتهم من اتهمه، وبذلك ترتفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق؛ إذ قد أصبحت التهمة تظل الصادق والمنافق.

٥. أسوأ آثار الكذب على العاملين الشرفاء: أنها تشغلهم عن المضي في رسالتهم بالدفاع عن أنفسهم؛ إثباتًا لبراءتهم تجاه جمهور لا يملك من الوعي ما يمحص به الحقائق من الأباطيل بسرعة وبدقة.

٦. فشو الافتراء وعدم تصدي العلماء له يؤدي إلى إصابة المجتمع بالذلة والمهانة في عيون أعدائه؛ لأن قريشًا لما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهدى واستمروا على الافتراء عاقبهم الله بالذلة، فأزال مهابتهم من قلوب العرب، واستأصلهم قتلًا وأسرًا، وسلب ديارهم، فلما أسلم منهم من أسلم صاروا أعزة بالإسلام.

عاقبة الافتراء

للافتراء عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة نتناولها فيما يأتي:

أولًا: عواقب الافتراء في الدنيا:

١. الخيبة والخزي.

أخبر الله عن كليمه موسى عليه السلام أنه حذر سحرة فرعون من الافتراء على الله، ووعدهم بعذاب من عند الله، وأنه سيخيب سعيهم، فلا يحققون النصر الذي يرجون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

أي: «لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم، وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويخيب سعيكم وافتراؤكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلمون من عذاب الله»[(١)].

وكانت لهذه الكلمات الأثر الكبير في زعزعة عقيدة سحرة فرعون الباطلة، وانتقلوا بفضل الله، ثم بفضل هذه الكلمات الصادقة من الكفر إلى الإيمان، وفي هذا المعنى قال سيد قطب رحمه الله: «وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٠٨.

كالقذيفة في معسكر المبطلين وصفوفهم، فتزعزع اعتقادهم في أنفسهم وفي قدرتهم، وفي ما هم عليه من عقيدة وفكرة»[1].

٢. استحقاق الوصف بالظلم.

أخبر تعالى أن المفترين على الله ورسوله هم المستحقون للوصف بالظلم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤].

والمعنى: وأي ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عنادًا وتكبرًا وتجبرًا[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

نزلت في كذاب اليمامة والأسود العبسي وسجاح زوج مسيلمة؛ كلهم تنبأ وزعم أن الله قد أوحى إليه.

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١٣٨.

قال القرطبي رحمه الله: «ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن يقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا؛ فيحكمون بما يقع في قلوبهم، ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار، وخلوها من الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون لتلك النصوص.

وقد جاء فيما ينقلون: «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون» ويستدلون على هذا بالخضر؛ وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى عليه السلام من تلك الفهوم، وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب؛ فإنه يلزم منه هد الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا صلى الله عليه وسلم»[3].

٣. عدم الفلاح.

أخبر سبحانه وتعالى أن المفترين لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة.

قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٣٩.

﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٨-٧٠].

توعد تعالى المفترين ممن زعم أن له ولدًا، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فلا ينالون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلًا، ثم ينتقلون إلى الله، ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب الشديد المؤلم بسبب كفرهم.

وجملة: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ استئناف بياني؛ لأن القضاء عليه بعدم الفلاح يتوجه عليه أن يسأل سائل: كيف نراهم في عزة وقدرة على أذى المسلمين وصد الناس عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم؟

فيجاب السائل بأن ذلك: متاع في الدنيا لا يعبأ به، وإنما عدم الفلاح مظهره الآخرة، فـ«متاعٌ» خبر مبتدأ محذوف يعلم من الجملة السابقة، أي: أمرهم متاع، والمتاع: المنفعة القليلة في الدنيا؛ إذ يقيمون بكذبهم سيادتهم وعزتهم بين قومهم، ثم يزول ذلك[(١)].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٣٦.

٤ . الغضب والذلة.

أخبر سبحانه وتعالى أن جزاء المفترين الغضب والذلة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلًا وصغارًا في الحياة الدنيا.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري رحمه الله: «إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين»[(٢)].

وعن أبي قلابة الجرمي رحمه الله أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ قال: «هي -والله- لكل مفتر إلى يوم القيامة»، وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: «كل صاحب بدعة ذليل»[(٣)].

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٧٨.
(٣) المصدر السابق.

وقال مالك بن أنس رحمه الله: «ما من مبتدع إلا ويجد فوق رأسه ذلة، وذلك؛ لأن المبتدع مفتر في دين الله»[(١)].

«فهو جزاء متكرر كلما تكررت جريمة الافتراء على الله، ووعد الله صادق لا محالة، وقد كتب على الذين اتخذوا العجل الغضب والذلة، وكان آخر ما كتب الله عليهم أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب.

فإذا بدا في فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون في الأرض، ويستعلون بنفوذهم، وأنهم يملكون سلطان المال، وسلطان أجهزة الإعلام، وأنهم يقيمون الأوضاع الحاكمة التي تنفذ لهم ما يريدون، وأنهم يستذلون بعض عباد الله، ويطردونهم من أرضهم وديارهم في وحشية، والدول الضالة تساندهم وتؤيدهم إلى آخر ما نراه في هذا الزمان.

فليس هذا بناقض لوعيد الله لهم، ولا لما كتبه عليهم، فهم بصفاتهم هذه وأفعالهم يختزنون النقمة في قلوب البشر، ويهيئون الرصيد الذي يدمرهم من السخط والغضب، وستجيء الصحوة من هذه الغيبوبة، وسيفيء أخلاف المسلمين إلى سلاح أسلافهم المسلمين.

ومن يدري فقد تصحو البشرية كلها يومًا على طغيان اليهود! لتحقق وعيد الله لهم، وتردهم إلى الذلة التي كتبها الله عليهم، فإن لم تصح البشرية فسيصحوا أخلاف المسلمين، هذا عندنا يقين»[(٢)].

وقد رأى سيد قطب رحمه الله هؤلاء الذين كانوا في خياله من أخلاف المسلمين وجدهم حقيقة في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، فقال لهم: «إلى الفتية الذين كنت ألمحهم بعين الخيال قادمين، فوجدتهم في واقع الحياة قائمين، يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، مؤمنين في قرارة نفوسهم، إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، إن أمامكم كفاحًا مريرًا شاقًا طويلًا، يجب أن تستعدوا له استعدادًا كبيرًا، بأن نرتفع إلى مستوى هذا الدين، نرتفع إلى مستواه في حقيقة إيماننا بالله، وفي حقيقة معرفتنا به فإننا لن نؤمن حق الإيمان حتى نعرفه حق المعرفة، ونرتفع إلى مستواه في عبادتنا لله، فإننا لن نعرف الله حق المعرفة إلا إذا عبدناه حق العبادة، ونرتفع إلى مستواه في وعينا لما حولنا، ومعرفتنا لأساليب عصرنا، ورحم الله رجلًا عرف زمانه، فاستقامت طريقته»[(٣)].

وصدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم بسنده عن ثوبان قال:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٣٧٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٧٦.

(٣) العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب ص٥.



قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك»[1].

ثانيًا: عواقب الافتراء في الآخرة:

١ . حرمان الشفاعة والنصرة.

«أخبر سبحانه وتعالى أن جزاء المفترين في الآخرة أن ما يعبدون من دونه لا يشفعون لهم، ولا يدفعون عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨- ٣٠].

أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس، وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر، ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وذهب عن المشركين ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه»[2]، فلا تنفعهم ولا تدفع عنهم العذاب.

«وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

فهو إفك، وهو افتراء؛ وذلك مآله، وتلك حقيقته، الهلاك والتدمير، فماذا ينتظر المشركون الذين يتخذون من دون الله آلهة بدعوى أنها تقربهم من الله زلفى؟ وهذه هي العاقبة وهذا هو المصير»[3].

«وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٦-٨٧].

أي: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله، فلا ناصر لهم، ولا معين ولا مجيز»[4].

٢ . الفضيحة على رؤوس الأشهاد.

أخبر سبحانه وتعالى عن حال المفترين وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق)، رقم ٥٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٦.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٩٣.

﴿يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤-٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٢- ٥٣].

وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

يبين تعالى حال المفترين عليه، وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق؛ من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان[(١)].

ويفسر ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذًا بيد ابن عمر؛ إذ عرض له رجلٌ، فقال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: في النجوى يوم القيامة؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(إن الله عز وجل يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون، فيقول الأشهاد:** ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[(٢)].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ حيث فوتوها أعظم الثواب، واستحقوا أشد العذاب ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله؛ لما جاء أمر ربك ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًا وصدقًا ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده لشدة حسرتهم وحرمانهم، وما يعانون من المشقة والعذاب[(٣)].

«إنه التشهير والتشنيع بالإشارة «هؤلاء» ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ وعلى من؟ ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لا على أحد آخر!

إن جو الفضيحة هو الذي يرتسم في هذا المشهد، تعقبها اللعنة المناسبة لشناعة الجريمة ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يقولها الأشهاد كذلك، فهو الخزي والتشهير -إذن- في ساحة العرض الحاشدة! أو هو

(١) المصدر السابق ٤/ ٣١٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، ٢/ ٧٤، رقم ٥٤٣٦.
وصححه الألباني في ظلال الجنة ص٦٠٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٧٩.

قرار الله سبحانه في شأنهم إلى جانب ذلك الخزي والتشهير على رءوس الأشهاد»[1].

إن جزاء اختلاق الكذب والتشهير والتشنيع بالمؤمنين الصادقين التشهير والتشنيع في الآخرة، والجزاء من جنس العمل.

٣. الاصطلاء في النار:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٥٩- ٦٠].

أيحسبون أنه يصفح عنهم ويغفر؟ كلا بل يصليهم في النار.

موضوعات ذات صلة:

الحرام، الحلال، الزور، الكذب، النبوة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٨٦٨.





عناصر الموضوع

مفهوم الاقتصاد	٩٨
الالفاظ ذات الصلة	٩٩
الموارد الاقتصادية	١٠٣
الإنتاج	١١٤
المبادئ الاقتصادية	١٢٢
حماية الاقتصاد من عوامل الفساد	١٣٤
الاقتصاد والاخلاق	١٤٠



مفهوم الاقتصاد

أولًا: المعنى اللغوي:

الاقتصاد افتعال من قصد.

ذكر ابن فاس أن أصل مادة (قصد) تدل على ثلاثة معانٍ: إتيان شيء وأمه، وكسر الشيء، والناقة القصيد: المكتنزة لحمًا[1].

وقال الراغب: «القصد: استقامة الطريق، يقال: قصدت قصده، أي: نحوت نحوه، ومنه: الاقتصاد»[2]، فهو يعود إلى الأصل الأول الذي ذكره ابن فارس، كأنه لصحة قصده للشيء فهو يسير في خط مستقيم إليه، لا يلتفت إلى غيره، واستعير هذا المعنى للقصد بالاستقامة في التوسط والاعتدال في الشيء، أي لا يميل إلى أحد طرفي التفريط والإفراط[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال في المعجم الوسيط: «(الاقتصاد) علم يبحث في الظواهر الخاصة بالإنتاج والتوزيع»[4].

وفي المعجم الاقتصادي: «الاقتصاد علم يبحث في كل ما يتعلق بالثروة، والمال، والتكسب، والتملك، والإنفاق، والاقتصاد يبحث أيضًا في مسائل الإنتاج والاستثمار، ومسائل الانتفاع والخدمات، ومسائل التوفير والادخار، ومسائل الغنى والفقر»[5].

وعرفه الدكتور عناية: «بأنه مجموعة الأصول والمبادئ العامة الاقتصادية الثابتة والمستخرجة من القرآن، والسنة، ومجموعة التطبيقات، والحلول الاجتماعية المتغيرة، والإجراءات الشرعية والسياسات الاقتصادية المستندة إلى تلك الأصول والمبادئ العامة، والتي تحكم وتنظم الحياة الاقتصادية للمجتمع الإسلامي»[6].

ولم يرد لفظ (الاقتصاد) في القرآن الكريم، وإن كان تحدث عن قضايا تتعلق به، كما سيأتي بيانه في هذا البحث إن شاء الله.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٩٥،٩٦.
(٢) المفردات، الأصفهاني ص ٦٧٢.
(٣) انظر: مجمع بحار الأنوار، الفتني ٤/ ٢٧٧.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٣٨.
(٥) المعجم الاقتصادي الإسلامي، الشرباصي ص ٣٦.
(٦) الأصول العامة للاقتصاد الإسلامي، غازي عناية ص ٣٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ القناعة:

القناعة لغة:

«الرضا بالقسم»[(١)]، وقال الراغب: «القناعة: الاجتزاء باليسير من الأعراض المحتاج إليها. يقال: قنع يقنع قناعةً وقنعانًا: إذا رضي، وقنع يقنع قنوعًا: إذا سأل. قال تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦].

قال بعضهم: القانع هو السائل الذي لا يلح في السؤال، ويرضى بما يأتيه عفوًا... وأقنع رأسه: رفعه. قال تعالى: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

وقال بعضهم: أصل هذه الكلمة من القناع، وهو ما يغطى به الرأس، فقنع، أي: لبس القناع ساترًا لفقره كقولهم: خفي، أي: لبس الخفاء، وقنع: إذا رفع قناعه كاشفًا رأسه بالسؤال نحو خفى إذا رفع الخفاء»[(٢)]، وقال المناوي: «القناعة: لغة: الرضى بالقسمة. وعرفًا: الإقصار على الكفاف. ويقال: الاجتزاء باليسير من الأعراض المحتاج إليها»[(٣)].

القناعة اصطلاحًا:

هي الرضا بما أعطى الله[(٤)].

وقال السيوطي: القناعة: الرضا بما دون الكفاية، وترك التشوف إلى المفقود، والاستغناء بالموجود[(٥)].

الصلة بين القناعة والقصد:

«أن القصد هو ترك الإسراف والتقتير جميعًا، والقناعة الاقتصار على القليل والتقتير، ألا ترى أنه لا يقال: هو قنوع، إلا إذا استعمل دون ما يحتاج إليه، ومقتصد لمن لا يتجاوز الحاجة ولا يقصر دونها، وترك الاقتصاد مع الغنى ذم، وترك القناعة معه ليس بذم، وذلك أن نقيض الاقتصاد الإسراف، وقيل: الاقتصاد من أعمال الجوارح؛ لأنه نقيض الإسراف، وهو من أعمال الجوارح والقناعة من أعمال القلوب»[(٦)].

(١) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٧٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٨٥.
(٣) التوقيف، المناوي ص ٢٧٥.
(٤) مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ١٨٧.
(٥) مقاليد العلوم، السيوطي ص ٢٠٥.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٣٠.

٢ الوسط:

الوسط لغة:

قال ابن فارس: «الواو والسين والطاء: بناءٌ صحيحٌ يدل على العدل والنصف. وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه»[١]، وفي لسان العرب: «وسط الشيء ما بين طرفيه»[٢].

الوسط اصطلاحًا:

قال المناوي: «الوسط: ما له طرفان متساويا القدر»[٣] وقال الكفوي: «ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة:١٤٣].

يعني متباعدين عن طرفي الإفراط في كل الأمور والتفريط»[٤].

قال أبو السعود عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾[المائدة:٨٩].

« أي من أقصده في النوع أو المقدار»[٥].

الصلة بين الوسط والقصد:

وعليه أن الوسط يقارب معنى الاقتصاد، وهو بمعنى الاعتدال أو ما بين طرفي الإفراط والتفريط، أو ما بين البخل والسرف.

٣ الإسراف:

الإسراف لغة:

قال ابن فارس: « السين والراء والفاء أصل واحد يدل على تعدي الحد، والإغفال أيضًا للشيء، تقول: في الأمر سرف، أي: مجاوزة القدر»[٦].

الإسراف اصطلاحًا:

تعريف الراغب الأصفهاني: «السرف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان»[٧]، وعرفه الطاهر ابن عاشور بقوله: « والإسراف: الإفراط والإكثار في شيءٍ غير محمودٍ»[٨].

(١) مقاييس اللغة، ٦/ ١٠٨.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٤٢٦.
(٣) التوقيف ص ٣٣٧.
(٤) الكليات، الكفوي ص ٩٣٨.
(٥) إرشاد العقل السليم ٣/ ٧٤.
(٦) مقاييس اللغة، ٣/ ١٥٣.
(٧) المفردات، ص٤٠٧.
(٨) التحرير والتنوير، ١١/ ١١٢.

الصلة بين الإسراف والقصد:

أن الاقتصاد يعني التوسط بين الإسراف والتقتير.

٤ التبذير:

التبذير لغة:

من بذر، أي: أفسد وأنفق في السرف، وكل ما فرقته وأفسدته، فقد بذرته، والتبذير: إفساد المال وإنفاقه في السرف[١].

التبذير اصطلاحًا:

حكى الإمام القرطبي عن الإمام الشافعي بأن التبذير هو: «إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير».

قال القرطبي تعليقًا على قول الإمام الشافعي: «وهذا قول الجمهور»، وحكى القرطبي أيضًا عن أشهب، عن الإمام مالكٍ: «أن التبذير هو أخذ المال من حقه، ووضعه في غير حقه»[٢].

الصلة بين التبذير والقصد:

أن الاقتصاد يعني التوسط بين التبذير والبخل.

٥ البخل:

البخل لغة:

مادة (ب خ ل) تدل على: «ضد الكرم»[٣]. وحد البخل الزبيدي رحمه الله تعالى بقوله: «إمساك المقتنيات عما لا يحل حبسها عنه»[٤].

البخل اصطلاحًا:

إمساك المال وعدم صرفه، حرصًا على بقائه وزيادته، وخوفًا من نفاده[٥].

الصلة بين البخل والقصد:

الظاهر أن البخل لفظ يدل على الإمساك، وهو مقابل للاقتصاد الذي يعني التوسط والاعتدال.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٥٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٢٤٧.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٠٧.
(٤) تاج العروس، ٢٨/ ٦٢، ٦٣.
(٥) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٢٤٥.

٦ الشح:

الشح لغة:

«هو البخل مع حرصٍ. ويقال تشاح الرجلان على الأمر، إذا أراد كل واحدٍ منهما الفوز به ومنعه من صاحبه. قال الله جل ثناؤه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦]»(١)، وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: «الشح أشد البخل، وهو أبلغ في المنع من البخل، وقيل: البخل في أفراد الأمور وآحادها، والشح عام، وقيل: البخل بالمال، والشح بالمال والمعروف»(٢).

الشح اصطلاحًا:

قال المناوي: «الشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة»(٣). وقال الجرجاني رحمه الله تعالى: «بخل الرجل من مال غيره»(٤).

الصلة بين الشح والقصد:

الظاهر أن الشح لفظ يدل على شدة المنع، أو البخل بمال الغير، وهو مقابل للاقتصاد الذي يعني التوسط والاعتدال.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٧٨.
(٢) لسان العرب، ٢/ ٤٩٥.
(٣) التوقيف، ص ٢٠٢.
(٤) التعريفات، ص ٤٢.



الموارد الاقتصادية

استخلف المولى سبحانه وتعالى الإنسان في الأرض لعمارتها واستثمار خيراتها ومواردها، وسخر له كل ما في الكون من سماء وأرض وما بينهما، وأغدق عليه نعمه، ليتمكن من القيام بواجب الاستخلاف، وسنوضح ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الموارد الاقتصادية نعمة إلهية:

من كمال ربوبية الله تعالى لعباده وقيوميته عليهم أنه سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وخلق لهم جميع ما يحتاجونه في هذه الحياة الدنيا من مستلزمات.

وقد حمد ربنا جل وعلا ذاته العلية على ذلك في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

أي: هو تعالى المربي جميع العالمين، بخلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها، لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة، فمنه تعالى، وهو معنى ربوبيته العامة لخلقه[١].

وربوبية الله تعالى لخلقه ليست مادية فقط، بل هي ربوبية عامة تشمل الأمور المعنوية أيضًا، ومن ذلك إرساله الرسل، وإنزاله الكتب، وأنه فطر عباده على معرفته.

قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف:١][٢].

ومن تلك المستلزمات الحياتية التي أنعم الله بها على عباده الموارد الاقتصادية، من الغذاء واللباس والمعادن والصخور والأخشاب والتراب وغيرها من مقومات الحياة والبناء والصناعة والعمل، وقد امتن الله تعالى على عباده بذلك في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم:٣٤].

أي: خلق لعباده كل شيء مما يحتاجون إليه في ليلهم ونهارهم، وحضرهم وسفرهم، وفي جميع أحوالهم[٣]، و(ما) في قوله: ﴿مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾ هي (ما) الموصولة، والتقدير: آتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال[٤].

وذلك من عظيم نعمة الله تعالى على عباده، أن هيأ لهم جميع ما يحتاجون إليه ويطلبونه لتقوم أمور حياتهم، ولذلك ذيل تعالى الآية بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾، ومن تلك النعم التي يحتاجها الإنسان في حياته ويسأل عنها الغذاء من

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١٤/ ٨٨٣٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٤٦.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٩٩.

الطعام والشراب، فهو قوت الإنسان الذي ينمو به ويعيش عليه، وقد امتن الله تعالى به على عباده في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾[الرحمن:١٣].

كما أقسم ببعض أنواعه في قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾[التين:١].

وذلك تنبيهًا لعباده على أهمية هذه الأنواع، وكونها آية من آياته، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم:٣٢].

فامتن تعالى بمورد عزيز على الإنسان، هو الماء، الذي أنزله تبارك وتعالى من السحب، فأخرج لهم به من الثمرات المختلفة الأشكال والألوان، والطعوم والروائح والمنافع، وجعل من هذا الماء بحارًا تحمل السفن العظيمة وتنقلها المسافات البعيدة، وجعل منه الأنهار التي تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقًا للعباد؛ ليشربوا ويسقوا زروعهم وأنعامهم وغير ذلك من أنواع المنافع[(١)].

ومن تلك الموارد التي يحتاجها الإنسان في حياته ويسأل عنها: الأصواف والأوبار والقطن مما يحتاجه في لباسه، ووقاية جسده من الحر والبرد، وتزيين منظره وتحسينه، وقد امتن تعالى بذلك على عباده في قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦﴾[الأعراف:٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[النحل:٨١].

والسرابيل الأولى في الآية: هي الثياب من القطن والكتان والصوف، وأما السرابيل الثانية في قوله: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ فهي الدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون عونًا لكم على طاعته وعبادته[(٢)].

وقال تعالى في بيان ما أنعمه على عباده من موارد الأرض الباطنة كالمعادن وغيرها: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد:٢٥].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٧٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٩١.

أي: خلق الله تعالى الحديد وأوجده لعباده، «لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحرية وما أشبه ذلك، وفيها القوة التي ترغم أنف الظالم، وتحمي المظلوم»[1]، وفيه منافع للناس «وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد»[2].

وقد ذكر الفخر الرازي كلامًا نفيسًا في منافع الحديد وفوائده.

قال رحمه الله: «وأما الحديد ففيه البأس الشديد فإن آلات الحروب متخذة منه، وفيه أيضًا منافع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾[الأنبياء: ٨٠].

ومنها أن مصالح العالم، إما أصول، وإما فروع، أما الأصول فأربعة: الزراعة، والحياكة، وبناء البيوت، والسلطنة، وذلك لأن الإنسان مضطر إلى طعام يأكله، وثوب يلبسه، وبناء يجلس فيه، والإنسان مدني بالطبع، فلا تتم مصلحته إلا عند اجتماع جمع من أبناء جنسه يشتغل كل واحد منهم بمهم خاص، فحينئذ ينتظم من الكل مصالح الكل، وذلك الانتظام لا بد وأن يفضي إلى المزاحمة، ولا بد من شخص يدفع ضرر البعض عن البعض، وذلك هو السلطان، فثبت أنه لا تنتظم مصلحة العالم إلا بهذه الحروف الأربعة، أما الزراعة فمحتاجة إلى الحديد، وذلك في كرب الأراضي وحفرها، ثم عند تكوُّن هذه الحبوب وتولدها لا بد من خبزها وتنقيتها، وذلك لا يتم إلا بالحديد،...

وأما الحياكة فمعلوم أنه يحتاج في آلات الحياكة إلى الحديد، ثم يحتاج في قطع الثياب وخياطتها إلى الحديد، وأما البناء فمعلوم أن كمال الحال فيه لا يحصل إلا بالحديد، وأما أسباب السلطنة فمعلوم أنها لا تتم ولا تكمل إلا بالحديد، وعند هذا يظهر أن أكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد، ويظهر أيضًا أن الذهب لا يقوم مقام الحديد في شيء من هذه المصالح فلو لم يوجد الذهب في الدنيا ما كان يختل شيء من مصالح الدنيا، ولو لم يوجد الحديد لاختل جميع مصالح الدنيا.

ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة، جعله سهل الوجدان، كثير الوجود، والذهب لما قلَّت الحاجة إليه جعله عزيز الوجود، وعند هذا يظهر أثر وجود الله تعالى ورحمته على عبيده»[3].

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

(١) تفسير المراغي ٢٧/ ١٨٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤٢.

(٣) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٤٧١، بتصرف.

[الحجر: ٢١].

فبين تعالى أنه مالك كل شيء، وأن جميع خزائن الأشياء بمختلف أجناسها وأنواعها عنده، «أي: في أمره وحكمه وتدبيره»[(١)].

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ أي: «حسب ما تقضي حكمته، مما يصلح به أمر الناس وتعمر الأرض»[(٢)].

فالله تعالى ينزل لعباده ما يحتاجون إليه في هذه الحياة بالقدر الذي يحتاجونه، فإذا زادت حاجاتهم من ذلك فتح الله تعالى لهم من خزائنه ويسر أبوابًا جديدة في العلم والإنتاج ما يكفل لهم ذلك الاحتياج، فمثلًا في الوقود، كان الناس قديمًا يستعملون الحطب وخشب الشجر في تحصيله.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ٧٢﴾ [الواقعة: ٧١-٧٢].

ثم لما اتسعت حاجات البشرية منه، فتح الله تعالى لهم بابًا جديدًا في إيجاده وتحصيله، فاكتشفوا الفحم الذي كان أصله نباتًا مطمورًا أو حيوانًا مطمورًا في الأرض؛ ثم اكتشف البترول والغاز.

وقد أعد سبحانه وتعالى كل شيء في الأرض، وقدر فيها الأقوات من قبل أن ينزل آدم عليه السلام إلى الأرض ليعمرها، ويكون خليفة فيها، هو وذريته إلى أن تقوم الساعة، فإذا اشتكى العالم من نقص في احتياجاته، فإنما مرجعه إلى التكاسل وعدم حسن استثمار ما خلقه الله وقدره من أرزاق في الأرض.

ونرى التعاسة في كوكب الأرض رغم التقدم العلمي والتقني؛ ذلك أننا نستخدم ما كنزه الحق سبحانه ليكون مجال سعادة لنا في الحروب والتنافر. ولو أن ما يصرف على الحروب؛ تم توجيهه إلى تنمية المجتمعات المختلفة لعاش الجميع في وفرة حقيقية.

ولكن سوء التنظيم وسوء التوزيع الذي نقوم به نحن البشر هو المسبب الأول لتعاسة الإنسان في الأرض[(٣)].

وهكذا يبين الله تعالى لعباده ما أنعمه عليهم من موارد اقتصادية ومستلزمات الحياة، دون سؤال منهم أو طلب، بل إنعام منه وكرم، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فهذه الآية وغيرها من الآيات التي بينت تلك الموارد والثروات دليل على تحقق كفاية حاجة الإنسان من تلك الموارد.

فالمشكلات الاقتصادية التي تحدث أحيانًا ليس سببها ندرة الموارد، وبخل الطبيعة، كما تصوره المذاهب الاقتصادية

(١) البسيط، الواحدي ١٢/ ٥٧٤.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٧/ ٢٢٧.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧٦٧١.

المنحرفة الأخرى؛ كالرأسمالية والشيوعية وغيرها.

وإنما سبب ذلك هو الإنسان نفسه، كما تقرره هذه الآية، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فظلم الإنسان في توزيع الثروات، وكفرانه للنعمة بعدم استغلال جميع المصادر التي تفضل الله بها عليه الاستغلال الأمثل، هما السببان المزدوجان للمشكلة التي يعيشها الإنسان.

وبمجرد تفسير المشكلة على هذا الأساس الذي دل عليه القرآن، يصبح بالإمكان التغلب عليها، والقضاء على الظلم وكفران النعمة بإيجاد علاقات توزيع عادلة، وتعبئة كل القوى المادية لاستثمار الطبيعة، واستكشاف كل كنوزها[1].

ثم إن ظلم الإنسان ليس مقصورًا على سوء توزيع الثروات، بل يشمل أيضًا ظلمه بترك الطاعات وارتكاب المعاصي، وإذا كانت المعاصي سببًا في احتباس الرزق، ورفع النعمة، فإن الاستغفار سبب في نزول الغيث، وحصول الأرزاق[2].

إن العالم طافح بالخيرات، مشحون بالقوى بين يدي الإنسان، وتحت قدميه، غير أن سنة الله في الكون قضت أن على الإنسان السعي، فإن الأرض لا تنشق عن خيرها ولا يهبط النعيم من السماء دون سعي الإنسان. فلا حصاد دون غرس، ولا وفرة في الإنتاج دون كثرة في الجهود.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة:٢٩].

«وهذه الآية ترشد إلى أن مواطن هذا النفع ليست خاصة بظواهر هذا الكون، وإنما هي مبثوثة في ظاهره الذي نحصل عليه بمجرد النظر، وفي باطنه الذي نحتاج إلى قوة في اقتحامه، وخوض غماره، وفي هذا إيحاء بالبحث عما استقر في باطن الأرض وطبقات الجبال، وقاع البحار، وما يحمل الماء والهواء من قوى الإنتاج، ومواد الصناعة والتعمير»[3].

ثانيًا: الموارد الاقتصادية:

١ . الأرض.

ومن أهم الموارد الاقتصادية التي أنعم الله بها على عباده: الأرض بما تحتويه من ثروات وخيرات، كالمياه والمعادن والبترول والأحجار، وبكونها صالحة للزراعة والبناء وغير ذلك، وقد بين الله تعالى إنعامه على عباده في تسخير الأرض وتذليلها لهم، وما أودعه فيها من خيرات عظيمة في مواضع كثيرة من كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

(١) انظر: اقتصادنا، محمد باقر الصدر ٢/ ٧٤٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٥١.
(٣) من توجيهات الإسلام، شلتوت، ص ١٣٦.

﴿ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[الملك:١٥].

فأخبر تعالى أنه جعل الأرض ذلولًا، أي: سهلة، من الذل وهو اللين وسهولة الانقياد.

أي: سهل تعالى الأرض وسخرها وذللها لما يراد منها من مشي عليها، أو غرس فيها، أو بناء فوقها، أو غير ذلك من وجوه الانتفاع بها[١].

وذلك من رحمته تعالى بخلقه أن ذلل لهم هذه الأرض الكبيرة الواسعة لتتمشى مع حياة الإنسان وسعيه فيها.

ولذلك قال سبحانه: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: «فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات»[٢].

وقد بين تعالى بعض أنواع هذا التذليل والتسخير للأرض، كتثبيتها بالجبال لتستقر وتثبت بمن عليها، وإلا لكثرت فيها الزلازل والاضطرابات.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[الأنبياء:٣١].

وكبسط الأرض ومدها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرعد:٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[نوح:٢٠].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[البقرة:٢٢].

فبين تعالى أنه أنعم على عباده بجعله الأرض مبسوطة لهم كالفراش والبساط، تسهيلًا لحياتهم فيها وتيسيرًا لانتقالهم في طرقها الواسعة للوصول إلى أغراضهم وحاجاتهم، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[الرحمن:١٠].

فالأرض كل الأرض موضوعة للأنام كل الأنام، لكي يستغلوها ويسعوا فيها[٣].

ومن تذليل الله تعالى للأرض وتسخيرها لعباده جعلها صالحة للزراعة بما جعله فيها من مقومات الزراعة والإنبات، كالتربة الخصبة الغنية بالأملاح والمواد العضوية التي يتغذى النبات عليها وغير ذلك من المقومات، «ولو شاء الله تعالى لجعلها حديدًا، ونحاسًا فلا يستطيع الإنسان أن يحرث فيها، ولا يحفر ولا يبني، وإذا مات لا يجد مدفنًا فيها»[٤].

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[الرعد:٣].

وقال: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾[عبس:٢٧].

(١) انظر: البسيط، الواحدي ٢٢/ ٥٣، الوسيط، سيد طنطاوي ٨/ ١٨٣،
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١١.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ١١٨٧.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٨.

ومن تسخير الله تعالى الأرض لعباده: أن جعلها أجزاء وبقاع مختلفة.

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد:٤].

فمنها أرض طيبة منبتة، وأخرى سبخة لا تنبت، ومنها أرض رخوة وأخرى صلبة، ومنها أرض صالحة للزرع لا للشجر، وأخرى صالحة للشجر لا للزرع إلى غير ذلك[1]، ﴿قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ﴾ أي: «بقاع متقاربات مختلفة الطبائع»[2]، وهو قول يدل على الإعجاز؛ فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلًّا منها تناسب الطقس الذي توجد فيه؛ فزراعة الذرة مثلًا تحتاج مناخًا معينًا؛ وكذلك زراعة الموز، وهكذا كل منطقة هي مناسبة لما تنتجه، فالأرض ليست عجينة واحدة، بل هي تربة مناسبة للجو الذي توجد به[3].

وهكذا يذلل الله تعالى الأرض لخدمة الإنسان ومصالحه، فباختلاف الأرض في أجزائها وبقاعها تتنوع الأشجار والنباتات، فمنها قوت للبشر، ومنها قوت للبهائم، ومنها الدواء، ومنها الفاكهة، ومنها الأنواع المختلفة في الحلاوة والحموضة.

ومن تسخير الله تعالى الأرض لعباده أنه جعل لهم التمكين فيها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠].

فبين تعالى أنه مكن عباده في الأرض، أي: أقدرهم على التصرف فيها[4]، ومنحهم القوة على استغلالها والانتفاع بمواردها، وذلك بما هيأه لهم فيها من الأسباب؛ كتذليل الأرض وتهيئتها للزراعة والبناء، وما جعل لهم فيها مما يعيشون به «مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات»[5]، وبما وهبهم من العقل والعلم والقوة.

وكل ذلك من تمكينه سبحانه لعباده وإنعامه عليهم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: أن أكثرهم مع هذا الإنعام لا يشكرونه عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وقد بين تعالى احتواء الأرض على الثروات والخيرات العظيمة في قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٣٣٧، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٩٧.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٥٨.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧١٩٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٣٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٤.

﴿فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٩-١٠].

فأخبر تعالى عن مدة خلقه الأرض وتهيئتها لعباده، وهي أربعة أيام، يومان للأرض، ويومان للبركة وتقدير الأقوات فيها[1].

و«هذا الزمن إنما هو منظور فيه إلى طبيعة المخلوق لا إلى قدرة الخالق، وإلى أن هذا الزمن هو الذي قدره الخالق سبحانه وتعالى لينضج فيه المخلوق، ويستوفى فيه تمام خلقه، كالجنين في الرحم، حيث يتم تكوينه في تسعة أشهر، في عالم الإنسان، وفى زمن أقل أو أكثر في العوالم الأخرى من الأحياء، فالزمن جزء من وجود كل موجود، وفى تطوره من حال إلى حال، سواء في هذا، الحيوان، والنبات، والجماد، فقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إشارة إلى الزمن الذي نضجت فيه الأرض، وتم تكوينها، وتهيأت لاستقبال الحياة فيها»[2].

وقد أخبر الله تعالى أنه بارك فيها أي: جعلها مباركة، بأن أكثر فيها خيرها، فجعلها زاخرة بأنواع الخيرات والمنافع، من الزروع والثمار المبثوثة فوقها، والمياه التي تخرج من جوفها. والكنوز التي تحصل من باطنها.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٢/ ١٢٩٠.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، أي: أرزاق ساكنيها ومعايشهم.

وقال قتادة: «خلق فيها جبالها وأنهارها وبحارها وشجرها، وساكنها من الدواب كلها»[3].

وقيل: «خصائصها التي قسمها في البلاد مما خص به كل إقليم، فيحتاج بعضها إلى بعض في التقوت من الملابس والمطاعم والنبات»[4].

وبذلك يتبادل الناس المنافع فيما بينهم، فيعمر الكون، ويزيد الاتصال والتعارف فيما بينهم.

والآية عامة فهي تعم جميع ما ذكر مما يقتاته أهل الأرض ويحتاجونه في معاشهم[5]، ولذلك قال تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: على وفق مراد من له حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه، كما قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤][6].

وهكذا يبين الله تعالى نعمته على عباده في تسخير الأرض وتذليلها، وجعلها موردًا من أهم موارد حياتهم ومقوماتها، وقد عد علماء الاقتصاد الأرض من أهم عوامل الإنتاج والموارد الاقتصادية.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٣٥.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٢٨٧.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٣٧.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٦.

٢. الإنسان.

ومن أهم الموارد الاقتصادية التي نوه إليها القرآن الكريم هو الإنسان بما آتاه الله تعالى من علم وعقل وقوة، وبما منحه من طاقة جبارة تمكنه من عمارة الأرض واستثمار خيراتها.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

فأخبر الله تعالى أنه خلق عباده من الأرض، ومكنهم من عمارتها، واستثمار ما فيها والانتفاع بخيرها[١].

قال أبو بكر الجصاص: «وقوله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يعني: أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه، وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية»[٢]، وقال ابن كثير: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: «جعلكم فيها عمارًا تعمرونها وتستغلونها»[٣].

كما وجه النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى عمارة الأرض وإصلاحها في أكثر من حديث، كما جاء عن سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أحيا أرضًا ميتةً فهي له)[٤].

والأرض الميتة أي: «التي لم تعمر، شبهت العمارة بالحياة، وتعطيلها بفقد الحياة، وإحياء الموات أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم ملك عليها لأحد فيحييها بالسقي أو الزرع أو الغرس أو البناء فتصير بذلك ملكه سواء كانت فيما قرب من العمران أم بعد سواء أذن له الإمام في ذلك أم لم يأذن، وهذا قول الجمهور»[٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة)[٦]، وغير ذلك من الأحاديث وهي كثيرة.

«إن الله سبحانه استخلف البشر في الأرض بقصد عمارة الكون وإنمائه واستغلال كنوزه وثرواته، والناس في ذلك شركاء، والمسلمون ينفذون أمر الله ومقاصده.

(١) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ٣١٨.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٣١٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٣٣١.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في القيامة، رقم ١٣٧٨، ٣/ ٦٥٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٩٧٦، ٢/ ١٠٣٦.
(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/ ١٨.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، رقم ٢٣٢٠، ٣/ ١٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، رقم ١٥٥٣، ٣/ ١١٨٩.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:٦١].

والاستعمار: معناه التمكين والتسلط، كما هو واضح من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[الأعراف:١٠].

وقوله عز شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية:١٣].

واللام في (لكم) تفيد الاختصاص على جهة الانتفاع للمخاطبين، أي أن ذلك مختص بكم، مما يدل على أن الانتفاع بجميع مخلوقات الأرض وما فيها من خيرات مأذون فيه، بل مطلوب شرعًا، «واعتبر الفقهاء تعلم أصول الحراثة والزراعة ونحوها مما تتم به المعايش التي بها قوام الدين والدنيا من فروض الكفاية»[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠].

فالله تعالى جعل الإنسان خليفة في الأرض ليصلحها ويعمرها، ولذلك اختاره على الملائكة في ذلك الاستخلاف.

قال المراغي: «وفي استخلاف آدم عليه السلام في الأرض معنى سام من الحكمة الإلهية خفي على الملائكة، فإنه لو استخلفهم فيها لما عرفوا أسرار هذا الكون وما أودع فيه من الخواص، فإنهم ليسوا بحاجة إلى شيء مما في الأرض، إذ هم على حال يخالف حال الإنسان، فما كانت الأرض لتزرع بمختلف الزروع، ولا تستخرج المعادن من باطنها، ولا تعرف خواصها الكيمائية والطبيعية، ولا تعرف الأجرام الفلكية ولا المستحدثات الطبية، ولا شيء من العلوم التي تفنى السنون ولا يدرك الإنسان لها غاية»[2].

٣. العمل.

ومن أهم الموارد الاقتصادية التي نوه القرآن الكريم إليها هو العمل والجد فيه، فقد حث القرآن الكريم على العمل، ودعا إليه في آيات عديدة.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك:١٥].

وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة:١٠].

فقوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ هو دعوة من الله تعالى لعباده إلى العمل في هذه الحياة، وإلى السعي في الأرض، والضرب في وجوهها المختلفة،

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٨/ ٦٣٨٧.

(٢) تفسير المراغي ١/ ٨٥.

فالله سبحانه قد سخر للناس خيرات كثيرة في هذه الأرض، وعليهم أن يتحركوا في كل وجه على هذا البساط، وأن يمدوا أيديهم إلى كل شيء يقدرون عليه من هذا الخير.

فإن هم لم يفعلوا، فقد بخسوا أنفسهم حقها من الحياة الكريمة على هذه الأرض، ومناكب الأرض، هي أجزاؤها العليا فيها، أشبه بمنكبي الإنسان، وهما جانبا الكتفين، وهذا يعنى أن يستدعي الإنسان قواه كلها حتى يأخذ مكانًا متمكنًا من الأرض، يستطيع به أن يستثمر قوى الطبيعة فيها.

فهذا هو مكان الإنسان الذي يعرف قدر إنسانيته، إنه الخليفة على هذه الأرض، ومقام الخلافة يقتضيه أن يأخذ مكان الصدارة فيها، وأن يجلس مجلس السلطان من رعيته، وفي تعدية الفعل (امشوا) بحرف الجر (في) بدلًا من (على) إشارة إلى أن ينفذ الإنسان في أعماق هذه المناكب، وإلى أن يعمل على كشف أسرارها، لا مجرد اتخاذها طريقًا يمشى عليه[1].

ورغم كثرة الأدلة التي تحث المسلمين على أن يكونوا منتجين لا مستهلكين، إلا أن العديد من الأقطار الإسلامية أصبحت أسواقًا لمنتجات غير المسلمين، وهذا ما يحرص عليه أعداء الإسلام حتى يبقى العالم الإسلامي سوقًا لمنتجاتهم، ويسهل عليهم التدخل في الشؤون الداخلية للأقطاره، ولذلك ينبغي على المسلمين أن يستغنوا عن غيرهم، وأن يكونوا منتجين لا مستهلكين، فإن من لا يملك قوته لا يملك قراره.

إنه لمن الواجب على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجياتها؛ لتستغني عن غيرها، فهي تحتاج إلى غيرها بقدر ما تقصر في الإنتاج، إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة وذات السيادة الدولية. وقد أعطى الله المؤمنين ما يؤهلهم للصدارة واحتلال مكانهم، والمحافظة على مكانتهم، وإشادة كيانهم بالدين والدنيا معًا[2].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢].

وقال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[القصص:٧٣].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[النبأ:١١].

فبين تعالى أنه خلق الكون على هذه الكيفية من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما لتنتظم أوقات عباده وأعمالهم، فيعملون ويكدون في النهار، ويرتاحون في الليل،

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٥/ ١٠٦١.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٩.

وفي ذلك بيان لمشروعية العمل وأن الله أراده من عباده.

والعمل المطلوب من الأمة أفرادًا وجماعات هو العمل الجاد والنشاط.

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[المزمل: ٢٠].

فسمى الله تعالى السعي على الرزق ضربًا في الأرض، وفي ذلك إعلام منه تعالى لعباده أن العمل والكفاح في هذه الحياة يجب أن يكون في منتهى القوة والجد[1].

قال الشعراوي: «والضرب -كما نعرف- هو انفعال الجارحة على شيء آخر بعنف وقوة. وقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١]. معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال، ولماذا الضرب في الأرض؟ لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق، فحين يحبون أن يخرجوا خيراتها؛ يقومون بحرثها حتى يهيجوها، ويرموا البذور، وبعد ذلك الري، ومن بعد ذلك تخرج الثمار، وهذه هي عملية إثارة الأرض. إذن كل حركة تحتاج إلى شدة ومكافحة، والحق سبحانه يقول: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[المزمل: ٢٠].

وما دامت المسألة ضربًا في الأرض فهي تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة»[2].

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ١١٧٩.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ٤/ ٢٥٥٥.

الإنتاج

من رحمة الله سبحانه وتعالى بالإنسان أنه لما قضى باستخلافه في الأرض، هيأه لهذه المهمة، وسخر له كل ما في الكون، وعلمه أصول الإنتاج، ودله على العديد من مجالاته، وسوف نبين ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: تعليم الله للإنسان أصول الإنتاج:

من نعم الله على عباده أن علمهم كيف يعملون؟، وكيف ينتجون؟، حتى يقوموا بما أراده منهم من عمارة الأرض وإصلاحها، وحتى يوفروا حاجاتهم وضرورياتهم مما يحتاجونه في هذه الحياة.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فالله تعالى أنعم على الإنسان بأن أوجد له كل ما يحتاجه من الأشياء ويسأل عنه في حياته، وأنعم عليه بتعليمه كيف يستخدم وينتج من تلك الأشياء أشياء أخرى يحتاجها، فقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: بإيجادها لكم مادة خامة، أو بهدايتكم إلى إنتاجها، وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٣-٥].

فمن كرمه تعالى على الإنسان أنه علمه العلوم المختلفة بالقلم آلة الكتابة الذي به تحفظ العلوم وتضبط الحقوق، بعد أن كان لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم[1].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

وقال تعالى في بيان امتنانه على خلقه بإيجاده ما يركبونه ويتنقلون عليه من الدواب: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

«أي: وخلق الخيل والبغال والحمير للحمل والركوب، وهي كذلك زينة وجمال، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: ويخلق في المستقبل ما لا تعلمونه الآن كوسائل النقل الحديث: القاطرات، والسيارات، والطائرات النفاثة وغيرها مما يجد به الزمان وهو من تعليم الله للإنسان»[2] وهدايته إلى ما يسد به حاجته، وييسر حياته، وهكذا كلما اتسعت حاجة الإنسان فتح الله له بابًا جديدًا من الرزق والعمل والاكتشاف والاختراع.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر:٢١].

وقال تعالى وهو يعدد نعمه على عبده ونبيه داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[الأنبياء:٨٠].

أي: «علم الله داود عليه السلام، صنعة الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها، وسرت صناعته إلى من بعده، فألان الله له الحديد، وعلمه كيف يسردها، والفائدة فيها كبيرة، ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ أي: هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب، واشتداد البأس»[3].

فعلم الله تعالى نبيه داود عليه السلام تلك الصنعة في عمل الدروع لينتفع بها ومن جاء بعده في مهمتهم في خلافة الأرض وإصلاحها، وهكذا الإنسان عمومًا في حاجة دائمة إلى المعرفة والتعلم؛ لأنه الخليفة في الأرض، ولن يؤدي هذه المهمة إلا بحركة واسعة بين الناس، هذه الحركة تحتاج إلى فهم ومعرفة وتفاعل وتبادل معارف وثقافات[4].

وفي قوله تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ إشارة إلى الأمة المسلمة في كل زمان ومكان، أن ترفع من دفاعاتها، وتتعلم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٣٠.
(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ١١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٨.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٦٠٩.

أمور حربها، وصناعة سلاحها، حتى لا يطمع أعداؤها فيها وفي خيراتها.

فقد أوجب الله تعالى على الأمة الإسلامية أن تأخذ بأسباب القوة، من تدريب للطاقات البشرية، وتخطيط، وإدارة، وتصنيع.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[الأنفال:٦٠].

وبذلك تحفظ الأمة الإسلامية لنفسها كرامتها وعزتها.

وقال تعالى في آية الدين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ أي: إذا طلب ممن علمه الله الكتابة أن يكتب بين متداينين كتاب الدين، فلا يمتنع من كتابة ذلك.

قال ابن كثير: «ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب»[(١)].

وفي الآية إشارة إلى «أن الإنسان لا يستقل بالعلم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾؛ حتى في الأمور الحسية التي تدرك عن طريق النظر، أو السمع، أو الشم، لا يستطيع الإنسان أن يعلمها إلا بتعليم الله عز وجل»[(٢)].

وهكذا يعلم الله تعالى عباده أصول الصناعات والحرف، تفضلًا منه تعالى عليهم، وكلما زادت احتياجاتهم فتح لهم آفاقًا جديدة في العلم والمعرفة، كما هو مشاهد في واقعنا اليوم، كلما زادت البشرية في عددها واحتياجاتها، تقدم العلم والتكنولوجيا تقدمًا عظيمًا يسد تلك الحاجات.

ثانيًا: الأصل الإباحة في النشاط الإنتاجي:

الأصل في النشاط الإنتاجي هو الإباحة، وأما التحريم فيتوقف على نص شرعي يبينه ويخصصه.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٩].

وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية:١٣].

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٧٢٤.

(٢) تفسير الفاتحة والبقرة، ابن العثيمين ٣/ ٤١٤.



فبين تعالى نعمته على خلقه بأن خلق لهم جميع ما في الأرض، وسخره وهيأه وأباح الانتفاع به.

قال رضا: «إن هذه الجملة هي نص الدليل القطعي على القاعدة المعروفة عند الفقهاء (إن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة) والمراد إباحة الانتفاع بها أكلًا وشربًا ولباسًا وتداويًا وركوبًا وزينة، وبهذا التفصيل تدخل الأشياء التي يضر استعمالها في بعض الأشياء وينفع في بعض، كالسموم التي يضر أكلها وشربها وينفع التداوي بها، وليس لمخلوق حق في تحريم شيء أباحه الرب لعباده تدينًا به إلا بوحيه وإذنه ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[يونس:٥٩]»[١].

فأخبر تعالى أنه خلق لعباده جميع ما في الأرض برها وبحرها وجوها، ظاهرها وباطنها، وسخرها له، وأمره بإعمارها وإصلاحها، والقيام بأمر الله فيها وشرعه، ولذلك جاء بعد هذه الآية من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠].

فهيأ الله تعالى الأرض، وأعدها للإنسان، ثم أوجده فيها.

كما بين تعالى أن الأرض بما فيها مسخرة للإنسان، لا العكس، فالأرض مخلوقة للإنسان ولمصلحته ودوره في الخلافة فيها، والإنسان «سيد الأرض وسيد الآلة! إنه ليس عبدًا للآلة كما هو في العالم المادي اليوم. وليس تابعًا للتطورات التي تحدثها الآلة في علاقات البشر وأوضاعهم كما يدعي أنصار المادية المطموسون، الذين يحقرون دور الإنسان ووضعه، فيجعلونه تابعًا للآلة الصماء وهو السيد الكريم!

وكل قيمة من القيم المادية لا يجوز أن تطغى على قيمة الإنسان، ولا أن تستذله أو تخضعه أو تستعلي عليه وكل هدف ينطوي على تصغير قيمة الإنسان، مهما يحقق من مزايا مادية، هو هدف مخالف لغاية الوجود الإنساني. فكرامة الإنسان أولًا، واستعلاء الإنسان أولًا، ثم تجيء القيم المادية تابعة مسخرة»[٢].

وقد ذم الله تعالى أهل الكفر في تحريمهم على أنفسهم بعض الأشياء التي أباحها لهم. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾[الأعراف:٣٢].

قال صاحب المنار: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: قل

(١) المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٠٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٤.

أيها الرسول لأمتك: هي -أي: الزينة والطيبات من الرزق- ثابتة للذين آمنوا بالأصالة والاستحقاق في الحياة الدنيا، ولكن يشاركهم غيرهم فيها بالتبع لهم، وإن لم يستحقها مثلهم. وهي خالصة لهم يوم القيامة ...كما تدل عليه الآيات الناطقة بأن دين الله الحق يورث أهله سعادة الدنيا والآخرة جميعًا[(١)].

ثالثًا: مجالات الإنتاج:

بين الله تعالى في كتابه الكريم بعض مجالات الإنتاج المختلفة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠].

أي: أمر الله تعالى عباده المؤمنين إذا فرغوا من صلاة الجمعة أن ينتشروا في الأرض، والانتشار يعني: «أن ينساح البشر لينتظموا في كل حركات الحياة، وبذلك تعمر كل حركة فيها»[(٢)].

وفي ذلك «دعوة إلى أن يملأ المسلمون وجوه الأرض سعيًا وعملًا، وأن يأخذوا بكل ما يمكن لهم منها، ويقيم لهم فيها المقام الكريم، وألا يقصروا جهدهم على جانب منها، أو في ميدان من ميادينها، بل ينبغي أن يكون لهم في كل ميدان مجال، وفي كل موقع عمل، وفي الدعوة إلى الانتشار في الأرض بعد الاجتماع بين يدى الله في الصلاة، في هذا جمع بين العبادة والعمل، وبين ذكر الله والسعي في الأرض»[(٣)].

وقد ذكر القرآن الكريم بعض مجالات الإنتاج، منها:

١ . الزراعة.

التي بها حياة الأرض واستثمارها، وبها ينتج الإنسان قوته ورزقه.

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس:٢٤-٣٢].

أي: فليتأمل الإنسان وليتدبر في أمر طعامه الذي فيه بقاؤه، كيف دبرناه له وقدرناه، ليعلم أن الكون كله مسخر له، وأننا لو لم نيسره له لهلك، فمبدأ ذلك أننا صببنا الماء من السحاب صبًا، ثم شققنا الأرض شقًا، أي: بالنبات الذي هو في غاية الضعف يشق الأرض المتماسكة بالماء ويخرج خارجها، فأنبت الله من هذا الماء الحبوب كالحنطة والشعير، والعنب.

وقوله: ﴿وَقَضْبًا﴾ وهو الرطب من البقل

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٤٧.

(٢) تفسير الشعراوي، ٣/ ١٤٨٧.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٤/ ٩٥٢.

وغيره، والزيتون والنخل...»، إلى آخر ما ذكرته الآيات من النعم[1]، فبين الله تعالى أن زراعة الأرض سبب من أسباب رزق الإنسان وحصوله على طعامه منها.

كما ذكر تعالى بعض تفاصيل عملية الزراعة في قصة يوسف عليه السلام، في قوله سبحانه: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:٤٧].

أي: يطلب يوسف من أهل مصر أن يزرعوا بدأبٍ أي: بمواظبة وبدون كسل، وما حصدوه فأخبرهم أن يأكلوا القليل منه، ويتركوا بقيته محفوظًا في سنابله، والحفظ في السنابل يدل على ما آتاه الله عز وجل ليوسف عليه السلام من علم في كل نواحي الحياة، من اقتصاد ومقومات التخزين، وغير ذلك من عطاءات الله، وقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خزن في سنابله؛ فتلك حماية ووقاية له من السوس[2].

٢. التجارة.

ومن مجالات الإنتاج التي بينها القرآن الكريم، التجارة، وفيها يتحصل الإنسان على المال والبضائع المختلفة.

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة:٩-١٠].

أي: «إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم. ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي من رزقه»[3].

٣. الصناعة.

ومن مجالات الإنتاج التي بينها القرآن الكريم: الصناعة، وبها يوجد الإنسان ما يحتاجه من أمور حياته.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠].

وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز كثيرًا من أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها، فمن الصنائع:

- **الخياطة.**

قال تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢].

---

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢١/ ٢٦٤، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٧٩٢.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١١/ ٦٩٧٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٠٨.

❁ **الحدادة.**

قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ:١٠-١١].

❁ **الغزل.**

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل:٩٢].

❁ **النسيج.**

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:٤١].

❁ **الفلاحة.**

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤].

❁ **الصيد.**

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة:٢].

وقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦].

❁ **الغوص.**

قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص:٣٧].

❁ **الملاحة.**

قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف:٧٩].

❁ **الكتابة.**

قال تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:٤].

❁ **الطحن والخبز.**

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ [يوسف:٣٦].

❁ **الطبخ.**

قال تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:٦٩].

❁ **البناء.**

قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩].

وغير ذلك[1].

كما جاء في القرآن الكريم تفصيل بعض الصناعات وبيانها، كقوله تعالى عن نبيه داود عليه السلام: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ:١٠-١١].

قيل: أي: ألان الله الحديد لداود عليه السلام، وجعله في يده كالعجين، يشكله كيف يشاء دون أن يدخله نارًا أو يضربه بمطرقة، والظاهر أن إلانة الحديد لداود، إنما كانت جارية على العادة، وذلك بما علمه الله تعالى من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها؛ لأن الله امتن بذلك على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد، لم يمتن عليهم بذلك، ويذكر فائدتها، وأن

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٤٣٢.

الله سبحانه قد علمه الأسلوب الذي يلين به الحديد، وهو عرضه على النار حتى يحمر، ويقبل الطرق[1].

وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ التقدير هنا بمعنى الإحكام والإجادة وحسن التفكير في عمل الشيء. والسرد: نسج الدروع وتهيئتها لوظيفتها. أي: آتينا داود كل هذا الفضل الذي من جملته إلانة الحديد في يده، وقلنا له يا داود: اصنع دروعًا سابغات تامات، وأحكم نسج هذه الدروع، بحيث تكون في أكمل صورة، وأقوى هيئة»[2].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان.

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)[3]»[4].

٤. الثروة الحيوانية.

ومن مجالات الإنتاج التي بينها القرآن الكريم: الثروة الحيوانية.

قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥].

وقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه:٥٤].

٥. الثروة المائية.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:١٤].

٦. الثروة المعدنية.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٨، التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١١/ ٧٨٥.
(٢) الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١١/ ٢٧٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٢، ٣/ ٥٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٦٧.

المبادئ الاقتصادية

اشتمل القرآن الكريم على تشريعات تتلاءم مع فطرة الإنسان وحاجاته، ولذلك شرع الملكية الفردية، وحفظ الحقوق الخاصة، كما أمر بحفظ المال العام، والتكافل الاجتماعي، وسوف نبين هذه المبادئ الاقتصادية الأصيلة في النقاط الآتية:

أولًا: الملكية الخاصة:

الإنسان مفطور على حب التملك أو ما يعرف بالملكية الفردية، منذ أن أهبطه الله تعالى إلى الأرض إلى أن يرثها، وهو أمر معلوم بالضرورة[1].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨].

أي: المال[2]، وبإثبات هذه الملكية كحق للفرد يتحقق الأمن في المجتمع، فيأمن كل شخص على ممتلكاته، ومدخراته، وثمرة عمله وجهده، مما يدفعه إلى العمل والجد والاجتهاد، وتقوية أواصر المودة والاحترام بين أفراد المجتمع، ولقد قرر القرآن الكريم هذه الملكية كحق من حقوق الأفراد، وسن التشريعات التي تحميها وتضمن عدم الاعتداء عليها، كما وضع ضوابط لتهذيبها وتنظيمها.

فمن تقرير القرآن للملكية الفردية واحترامه لها.

قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

فالكاف ضمير الخطاب في آتاك ونصيبك يدل على هذه الملكية، ويشهد لها.

وقال تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف:٣٢].

أي: قسم الله تعالى الأرزاق بين عباده، وفاوت بينهم فيها، فجعل منهم الغني والفقير والخادم والمخدوم والحاكم والمحكوم.

والحكمة من هذا التفاوت في الأرزاق أن يستخدم بعضهم بعضًا في حوائجهم، ويعاون بعضهم بعضًا في مصالحهم، وبذلك تنتظم الحياة، وينهض العمران. ويعم الخير بين الناس، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدر الله تعالى له من رزق واستعداد[3].

فدلت الآية الكريمة على أن تفاوت

---

(١) انظر: المذاهب الفكرية المعاصرة، غالب عواجي ٢/ ١١٩٣.

(٢) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٣٠١، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٨١٨.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٤٦، الوسيط، سيد طنطاوي ١٣/ ٧٧.

الناس في الأرزاق والحظوظ سنة من سنن الله الكونية القدرية التي أرادها لعباده، لتنتظم بها حياتهم، فلا يستطيع أحد من أهل الأرض البتة تبديلها ولا تحويلها، بوجه من الوجوه، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[فاطر:٤٣][1].

«وكل محاولة للإنسان في تغيير هذه السنة الثابتة تؤدي إلى اضطراب نظام الحياة والعمل، لأنها تعني محاولة التسوية بين الخلق جميعًا فيما يكتسبه كل منهم من رزق دونما فارق في ذلك بين العامل والكسول... فهي ببساطة تسقط كل قيمة حقيقية للعمل»[2].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[النحل:٧١].

قال الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة نص صريح في إبطال مذهب الاشتراكية القائل بأنه لا يكون أحد أفضل من أحد في الرزق، ولله في تفضيل بعضهم على بعض في الرزق حكمة»[3].

كما جاء في القرآن الكريم النهي عن الاعتداء على هذه الملكية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام:١٥٢].

فالأمر برعاية مال اليتيم، والوفاء في الكيل والميزان، كل ذلك لحفظ الحقوق لأصحابها، واحترام ملكيتهم لها، إلى غير ذلك من التشريعات التي بينها القرآن الكريم لحماية الملكية الخاصة من أي اعتداء.

ويصل القرآن باحترام هذا الحق مداه حين يأمر بقطع يد السارق الذي يعتدي على هذا الحق في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة:٣٨][4].

كما بين القرآن الكريم بعض أسباب ووسائل حصول هذه الملكية وانتقالها، ومنها:

* الميراث.

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١١٤.
(٢) الملكية الفردية في النظام الاقتصادي الإسلامي، محمد بلتاجي ص ٣٠.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٤١١.
(٤) انظر: الاقتصاد الإسلامي، محمود الوادي ص ١٠٣.

﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء:١١].

❁ البيع.

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة:٢٧٥].

❁ الهبة.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥].

كما أمر القرآن بالعمل والتكسب وهو سبب من أسباب التملك.

قال تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[الملك:١٥].

إلى غير ذلك.

والقرآن الكريم إذ يقرر الملكية الخاصة كحق من حقوق الأفراد، فإنه لا يترك تقرير هذا الحق حتى يطغى دون تقييد، فليس معنى الملكية الخاصة للفرد أن يتصرف فيها خارج حدود الشرع، وفيما حرمه الله، وليس معناها أيضًا أن يمنع حقوق الله منها ولا يؤديها، ولذلك حرم الله تعالى كنز الأموال المفضي إلى منع أداء الزكاة، كما حرم التبذير لأنه إنفاق للمال فيما حرم الله تعالى؛ كالخمر والميسر والرشوة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾[الإسراء:٢٦-٢٧].

كما حرم تعالى الإسراف.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١].

كما بين القرآن الكريم حرصه على ألا تتحول هذه الملكية إلى تكدس في الثروات يؤدي إلى ترف وفساد وسيطرة.

وقد استشف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الحشر:٧].

حيث ترك الأراضي المفتوحة في العراق والشام ومصر بيد أهلها، ولم يقسمها بين الفاتحين، حتى لا تنحصر الثروة بأيديهم، ولا يبقى شيء لمن يأتي بعدهم، ووافقه على ذلك الصحابة رضي الله عنهم مستدلًا بهذه الآية[١].

(١) انظر: الخراج، أبو يوسف ص٣٤، الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٧/ ٥٠١٥.

ثانيًا: حفظ المال العام:

المال عصب الحياة، وضرورة من ضرورياتها، «وقد اعتبر الشارع المال من الكليات الخمس التي تقوم بها حياة الناس، وشرع الحدود والعقوبات والزواجر للحفاظ عليها»[(١)].

قال الغزالي: «ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة»[(٢)].

وقد بين القرآن الكريم شرف المال وقيمته، وأمر بحفظه في آيات كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[النساء:٥].

فنهى تعالى عباده المؤمنين عن إعطاء الأموال للسفهاء الذين لا يحسنون التصرف فيها خشية إفسادها وإتلافها.

وأشار تعالى إلى علة ذلك النهي بقوله في الآية: ﴿قِيَٰمًا﴾ أي: التي «تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها»[(٣)].

وقال الفخر الرازي: «اعلم أنه تعالى أمر المكلفين في مواضع من كتابه بحفظ الأموال.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧﴾[الإسراء:٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء:٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

وقد رغب الله في حفظ المال في آية المداينة حيث أمر بالكتابة والإشهاد والرهن، والعقل أيضًا يؤيد ذلك؛ لأن الإنسان ما لم يكن فارغ البال لا يمكنه القيام بتحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ولا يكون فارغ البال إلا بواسطة المال؛ لأن به يتمكن من جلب المنافع ودفع المضار.

فمن أراد الدنيا بهذا الغرض كانت الدنيا في حقه من أعظم الأسباب المعينة له على اكتساب سعادة الآخرة، أما من أرادها لنفسها ولعينها كانت من أعظم المعوقات عن كسب سعادة الآخرة»[(٤)].

والمال باعتبار الملكية ينقسم إلى قسمين: خاص، وقد تقدم الكلام على الملكية الخاصة، وعام، وهو المال الذي

(١) الملكية الفردية في النظام الاقتصادي الإسلامي، محمد بلتاجي ص ٣٠.
(٢) المستصفى، ص ١٧٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١٤.
(٤) مفاتيح الغيب، ٩/ ٤٩٦.

خصص للمنفعة العامة، أي: جماعة المسلمين، ويشمل هذا النوع من الملكية: المرافق الأساسية للدولة، كالطرقات ومجاري الأنهار والشوارع، وكالبحار والغابات، والنفط والمعادن إن ظهرت في أرض غير مملوكة لأحد، وغير ذلك، يقرها الإسلام حماية للدولة وصيانة لسلامتها والعمل على تقدمها، والمحافظة على مرافقها العامة[1].

فالأساس في اعتبار الملكية العامة أنها منفعة للجميع، فلو احتكرها بعض الأفراد لأنفسهم لكان فيه تضييق على الآخرين، وإلحاق الضرر بهم[2].

وقد بين القرآن الكريم بعض أنواع الملكية العامة، كالفيء، وهو «المال المأخوذ من الكفار بغير قتال، كالخراج والجزية، أما المأخوذ بقتال فيسمى غنيمة»[3].

قال القرطبي: «الفيء، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفوًا صفوًا من غير قتال ولا إيجاف، كالصلح والجزية والخراج والعشور المأخوذة من تجار الكفار. ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له»[4].

قال تعالى في بيان حكم الفيء: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

فبين تعالى حكم الفيء ومصارفه، «فالفيء يقسم خمسة أقسام: خمس منها يقسم خمسة أخماس: سهم لله وللرسول، كان له في حياته ثم يصرف على مصالح المسلمين بعد وفاته، وسهم لذوي القربى من أقارب الرسول، وهم: بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل، وأما الأربعة أخماس الباقية فهي للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وقد وزعها في حياته على المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلا رجلين أظهرا الفقر، وبعد وفاته تصرف للمرتزقة من الجند، أي: للجيش ما لم يوجد لهم تبرع أو مرتب خاص»[5].

قال القرطبي: «وأما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالذي كان من الفيء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف عند الشافعي في قول إلى

(١) انظر: الاقتصاد الإسلامي، محمود الوادي وآخرون ص ٩٧.
(٢) انظر: الاقتصاد الإسلامي أسس ومبادئ وأهداف، عبدالله الطريقي ص ٣٥.
(٣) التعريفات الفقهية، البركتي ص ١٦٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٤.
(٥) التفسير الواضح، حجازي ٣/ ٦٤٦.

المجاهدين المترصدين للقتال في الثغور؛ لأنهم القائمون مقام الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي قول آخر له: يصرف إلى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر، يقدم الأهم فالأهم.

وهذا في أربعة أخماس الفيء. فأما السهم الذي كان له من خمس الفيء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته صلى الله عليه وسلم بلا خلاف... وكذلك ما خلفه من المال غير موروث، بل هو صدقة يصرف عنه إلى مصالح المسلمين»[(١)].

وهكذا يقرر القرآن الكريم مبدأ الملكية العامة في الأمة ويحترمها، ولكنه لا يجعلها تطغى وتستبد على الملكية الخاصة، بل إنه يوازن بين الملكيتين بما يحقق لكل منهما مصلحته، ودون أن تطغى إحداهما على الأخرى.

ومن الجدير بالذكر: أن دعاة بعض المذاهب الاقتصادية الفاسدة، يحتجون بقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ على أنه يجوز للدولة أن تستولي على مصادر الإنتاج ورؤوس الأموال؛ لتعطيها أو تشرك فيها الفقراء، وما يسمونهم طبقة العمال.

وهذا على ما فيه من كساد اقتصادي، وفساد اجتماعي، قد ثبت خطؤه، وظهر بطلانه مجانبًا لحقيقة الاستدلال؛ لأن هذا المال ترك لمرافق المسلمين العامة من الإنفاق على المجاهدين، وتأمين الغزاة في الحدود والثغور، وليس يعطى للأفراد كما يقولون، ثم هو أساسًا مالٌ جاء غنيمة للمسلمين، وليس نتيجة كدح الفرد وكسبه.

ولما كان مال الغنيمة ليس ملكًا لشخص، ولا هو أيضًا كسب لشخص معين، تحقق فيه العموم في مصدره، وهو الغنيمة، والعموم في مصرفه، وهو عموم مصالح الأمة، ولا دخل ولا وجود للفرد فيه، فشتان بين هذا الأصل في التشريع وهذا الفرع في التضليل[(٢)].

ومن حماية القرآن الكريم للملكية العامة تحريمه الغلول، وهو: «الخيانة في المغنم والسرقة من الغنيمة قبل القسمة»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وذلك لأن الغنيمة قبل قسمتها تكون ملكًا عامًا، فحرم تعالى الأخذ منها وهي كذلك، وتوعد من يفعله بقوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يحمله يوم القيامة.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٢.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٢.

(٣) التعريفات الفقهية، البركتي ص ١٥٩.

قال القرطبي: «أي: يأتي به حاملًا له على ظهره ورقبته، معذبًا بحمله وثقله، ومرعوبًا بصوته، وموبخًا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد»[١].

كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فذكر الغلول، فعظمه وعظم أمره، ثم قال: (لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاءٌ، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرسٌ له حمحمةٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاةٌ لها ثغاءٌ، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفسٌ لها صياحٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاعٌ تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامتٌ[٢]، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك)[٣].

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: اعلم يا من تغل شيئًا ولو كان حقيرًا أنك ستعود إلينا وستحاسب على ذلك، حسابًا عادلًا لا ظلم فيه ولا تفويت، وفي هذه الآية تهديد شديد ووعيد لمن يعتدي على الملكية العامة.

ثالثًا: حفظ الحقوق الخاصة:

ومن مبادئ الاقتصاد التي بينها القرآن الكريم ودعا إليها: حفظ الحقوق الخاصة، كالدين، وقد أنزل تعالى بيان حكمه في أطول آية من كتابه.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فأمر تعالى بحفظ الدين بكتابته والإشهاد عليه حتى لا يضيع حق صاحبه، وفي طول الآية وما فيها من مؤكدات ما يدل على المبالغة الشديدة في الاحتياط في حفظ الحقوق لأصحابها وخاصة الحقوق المالية.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٤/ ٢٥٦.

(٢) قال النووي: «والرغاء بالمد: صوت البعير، وكذا المذكورات بعد وصف كل شيء بصوته، والصامت: الذهب والفضة». المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٢/ ٢١٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، رقم ١٨٣١، ٣/ ١٤٦١.

قال الفخر الرازي: «حث على الاحتياط في أمر الأموال لكونها سببًا لمصالح المعاش والمعاد،... والذي يدل على ذلك أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار، وفي هذه الآية بسط شديد، ألا ترى أنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾.

ثم قال ثانيًا: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾.

ثم قال ثالثًا: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ فكان هذا كالتكرار لقوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾؛ لأن العدل هو ما علمه الله.

ثم قال رابعًا: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ وهذا إعادة الأمر الأول.

ثم قال خامسًا: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾. وفي قوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ كفاية عن قوله: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾؛ لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يملى عليه.

ثم قال سادسًا: ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ وهذا تأكيد.

ثم قال سابعًا: ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ فهذا كالمستفاد من قوله ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾

ثم قال ثامنًا: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ﴾ وهو أيضًا تأكيد لما مضى.

ثم قال تاسعًا: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾ فذكر هذه الفوائد الثلاثة لتلك التأكيدات السالفة»[(١)].

ويضاف إلى ما ذكره الرازي ما بينته الآية وشددت عليه في مسألة الإشهاد على الدين.

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾، ثم بين تعالى الحكم في عدم وجود شهيدين من الرجال، فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾، ثم أكد على أن يكون الشهيد مرضيًا عنه موثوقًا فيه، فقال: ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، ثم بين تعالى العلة في تعدد النساء، فقال: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ أي: «لنقص عقلهن وضبطهن»[(٢)]، فاحتاط الشارع لذلك.

قال الفخر الرازي: «فائدة الكتابة والإشهاد أن ما يدخل فيه الأجل، تتأخر فيه المطالبة ويتخلله النسيان، ويدخل فيه الجحد، فصارت الكتابة كالسبب لحفظ المال من الجانبين؛ لأن صاحب الدين إذا علم أن حقه قد قيد بالكتابة والإشهاد يحذر من طلب الزيادة، ومن تقديم المطالبة قبل حلول الأجل، ومن عليه الدين إذا عرف ذلك يحذر عن الجحود، ويأخذ قبل حلول الأجل في تحصيل المال، ليتمكن من أدائه

(١) مفاتيح الغيب، ٥/ ٢٥٢.
(٢) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٦٣.

وقت حلول الدين»[1].

ومن الحقوق الخاصة التي بينها القرآن الكريم، وحث على حفظها وأدائها إلى أهلها: الميراث، وقد جاء تفصيل أحكامه في آيات كثيرة من القرآن الكريم، بين فيها تعالى تقسيم الفرائض، وحصة كل وارث؛ وذلك لأنه كسب بدون مقابل، والنفوس متطلعة إليه فتولى الله تعالى تقسيمه حتى لا تحصل النزاعات فيه[2].

وهكذا يقرر القرآن الكريم مبدأ حفظ الحقوق الخاصة أتم تقرير، ويدعو إلى حفظها والاحتياط فيها أبلغ درجات الاحتياط.

ومن المؤسف له في زماننا ما نشاهده من حرمان المرأة من حقها في الميراث أو انتقاص حقها، مع ما أمر الله به من الوفاء بهذا الحق قليلًا كان أو كثيرًا.

قال سبحانه: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١].

رابعًا: التكافل الاجتماعي:

من عظمة الاقتصاد الإسلامي تضمنه لمبدأ التكافل الاجتماعي، والذي يتحقق به التعاون والترابط في المجتمع، ويسود بين أفراده الحب والإخاء والاحترام، وينتشر بينهم جو السلم والأمن، وقد بين القرآن الكريم هذا المبدأ الاقتصادي وأرسى معالمه، فمن ذلك بيانه لشريعة الزكاة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

فبين تعالى مصارف الزكاة المفروضة:

١. ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ أي: الذين لا شيء لهم أو لهم شيء لا يقع موقعًا من كفايتهم.
٢. ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ أي: الذين لا يجدون ما يكفيهم.
٣. ﴿وَالْعَامِلِينَ﴾ أي: المؤتمنين في السعاية والولاية على جمعها.
٤. ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ليسلموا أو يثبت إسلامهم أو يسلم نظراؤهم أو يذبوا عن المسلمين.
٥. ﴿وَفِي﴾ فك ﴿الرِّقَابِ﴾ أي: المكاتبين.
٦. ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ أهل الديون.
٧. ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: المجاهدين.
٨. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: المنقطع في سفره[3].

فبين تعالى مصارف الزكاة، وهي عماد

(١) مفاتيح الغيب، ٧/ ٩٢.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٤.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٥٠٤.

مبدأ التكافل الاجتماعي، وبها ينصلح حال المجتمع ويسود العدل والإخاء فيه، ويبدأ تعالى بالفقراء، فهم أحق جماعة في المجتمع الإنساني بالرعاية والحماية من آفة الفقر التي تفتك بهم، وتتعبهم في حياتهم، ومحاربة هذه الآفة بالإضافة إلى كونها مساعدة للفقراء، فهي في نفس الوقت حماية للأغنياء أنفسهم، وضمانة لأمنهم وسلامتهم في أموالهم وأنفسهم من عادية الفقراء عليهم.

ذلك أن الفقير الذي يجد الغني يعينه ويكرمه، فإنه سيتمنى له الخير ويحبه، أما إذا وجد الفقير الغني لا يعطيه شيئًا، بل ويزداد غنى، وهو يزيد فقرًا، فلربما حقد عليه وأبغضه(١).

وإذا استمر به الحال كذلك فإنه قد يفكر في السرقة أو النهب أو القتل، وهكذا يفقد المجتمع أمنه وهدوءه، بل ويفقد خيرة أبنائه ممن لجؤوا إلى عالم الجريمة والانحراف ليسدوا احتياجاتهم(٢).

«ومن هنا كان من تدبير الإسلام لمحاربة الفقر، وحماية الفقراء من قسوة هذه الآفة المهلكة، أن فرض على المسلمين الزكاة، وجعلها ركنًا من أركان الدين، لمن ملك نصابًا معينًا من المال، وكان من تدبير الإسلام أيضًا أن بدأ بالفقراء، وجعل داءهم هو الداء الأول، الذي يتهدد المجتمع، بالضياع، ويؤذنه بالهلاك، إن لم تعمل الجماعة جاهدة على محاربة هذه الآفة، ورصد كل قواها للقضاء عليها، وشفاء المجتمع منها»(٣).

ولقد رغب القرآن الكريم بالإنفاق عمومًا في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

فضرب تعالى مثلًا لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾.

قال ابن كثير: «وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل، لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة»(٤).

وجعل فعل الزكاة سببًا من أسباب الفلاح في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١].

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٤٣١.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٥/ ٨٠٨.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٨٠٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٩١.

إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون:٤].

ومن صور التكافل التي بينها القرآن الكريم: الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، حيث يتعاون الأفراد ويشتركون في الذود عن أنفسهم وديارهم، وذلك بالجهاد بالنفس والمال، والإنفاق على المجاهدين وتزويدهم بما يحتاجون إليه من مال وعتاد وغذاء.

قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١].

وقال: ﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصف:١٠-١٣].

فجعل تعالى الإيمان به والجهاد في سبيله بالمال والنفس تجارة رابحة تنجي صاحبها من العذاب الأليم، ويفوز بالمغفرة ودخول الجنان، والنصر على الأعداء.

ومن صور التكافل التي بينها القرآن الكريم: الإنفاق في الكفارات، ومنها:

- **كفارة اليمين.**

قال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩].

فبين تعالى أن كفارة اليمين المنعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حنث صاحبها فيها تكون بإحدى ثلاثة أمور على التخيير بينها، وهي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم من أوسط ما يطعم الحانث في يمينه أهله، والمراد بالوسط هنا: المتوسط بين طرفي الإسراف والتقتير، أو أن يعتق رقبة، فإن لم يجد من ذلك شيئًا فليصم ثلاثة أيام[(١)].

ويرى بعض العلماء أن كلمة (أوسط) بمعنى الأمثل والأحسن، وهو ما يرجحه الباحث؛ لأن لفظ الأوسط كثيرًا ما يستعمل بهذا المعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:٢٨].

أي: قال أحسنهم عقلًا وأمثلهم فكرًا ونظرًا[(٢)].

فجعل تعالى في تكفير العبد عن يمينه التي حنث فيها ما يتحقق به التكافل بين أفراد المجتمع، فيطعم أو يكسو ليس مسكينًا

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٨٢-٨٣.
(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ٢٦٦.

واحدًا بل عشرة مساكين يواسيهم ويعينهم، أو أن يعتق رقبة وفي ذلك تحرير لنفس من العبودية.

- كفارة الإفطار في رمضان في حق الشيخ الكبير أو الزمن.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾[البقرة:١٨٤].

- كفارة الظهار.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾[المجادلة:٤].

والظهار أصله مشتق من الظهر، وذلك أن الرجل في الجاهلية كان يقول لزوجته: أنت علي كظهر أمي، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقًا، فأرخص الله لهذه الأمة، وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقًا كما كانوا يعتمدونه[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾، «أي: فيه بأن يخالفوه بإمساك المظاهر منها الذي هو خلاف مقصود الظهار من وصف المرأة بالتحريم»[(٢)].

ثم بين تعالى الواجب على المظاهر إذا أراد أن يتدارك ويتلافى ظهاره، ويعود عنه، أن يعتق رقبة، فإن لم يجد فليصم شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا[(٣)].

ويفعل ذلك قبل أن يجامع المظاهر زوجته التي ظاهر منها.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٧.

(٢) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٧٢٥.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢١٦.

حماية الاقتصاد من عوامل الفساد

شرع المولى سبحانه وتعالى تشريعات من شأنها أن تحمي الاقتصاد من الانهيار وعوامل الفساد، وأن تحقق أمن الإنسان واستقراره وسعادته في الدنيا والآخرة، ومن عوامل الفساد الاقتصادي التي تحدث عنها القرآن ما يأتي:

أولًا: الربا:

قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ﴾[البقرة:٢٧٦].

فنبه تعالى بقوله: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ﴾ على أن الزيادة المعقولة المعبر عنها بالبركة مرتفعة عن الربا، ولذلك قال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ اللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[الروم:٣٩].

فأضاف المضاعفة إلى الزكاة[١].

والربا في الشرع هو: «فضل خالٍ عن عوض شرط لأحد العاقدين»[٢].

أو هو: «فضل أحد المتجانسين على الآخر من مال بلا عوض»[٣].

وعرفه الشافعية بأنه: «عقدٌ على عوضٍ مخصوصٍ غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخيرٍ في البدلين أو أحدهما»[٤].

وقد حرم الله سبحانه وتعالى الربا حماية للاقتصاد من عوامل الفساد، وذلك لما فيه من أضرار وخيمة عليه.

فالفائدة الربوية التي يحصل عليها المرابي لا تأتي نتيجة عمل إنتاجي، بل استقطاع من مال الفرد أو مال الأمة دون مقابل، كما أن فيه دفعًا للمرابي إلى الكسل والبطالة لتمكنه من زيادة ثروته بدون جهد أو عناء، كما أن الربا يؤدي إلى ظاهرة التضخم في المجتمع، وينمي الضغائن والأحقاد بين أفراده بسبب استغلال بعضهم البعض في حاجاتهم، وعدم مراعاة أوضاعهم ومشاكلهم[٥].

وقد توعد القرآن الكريم المرابين بحرب من الله تعالى.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا

(١) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٣٤٠.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٠٩.
(٣) أنيس الفقهاء، القونوي ص٧٧.
(٤) مغني المحتاج، الشربيني ٢/ ٣٦٣، التوقيف، المناوي ص١٧٣.
(٥) انظر: الاقتصاد الإسلامي أسس ومبادئ وأهداف، عبدالله الطريقي ص ٨٧.

﴿يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾[البقرة:٢٧٥-٢٧٦].

إلى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٧٩].

وأخبر تعالى أن آكلي الربا: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: من قبورهم، ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾، وتوعدهم بمحق رباهم، أي: إذهاب بركته، وبأشد من ذلك وهو حرب منه تعالى، وبهذا التحذير القرآني من الربا وتعاطيه حماية للاقتصاد.

ثانيًا: الاحتكار:

قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[الحشر:٧].

فبين تعالى أنه لا يريد أن يجعل المال دولة بين الأغنياء فحسب، أي: يتداولونه دون غيرهم، بل يريد أن يجعل المال دولة بين الناس[1]، والاحتكار من أعظم الأسباب التي تجعل المال دولة بين الأغنياء، يتحكمون به في قوتهم، ويحددون سعر بيعه لهم.

قال الفخر الرازي: «معنى الآية كي لا يكون الفيء - الذي حقه أن يعطى للفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها - واقعًا في يد الأغنياء ودولة لهم»[2].

وقد حرم الإسلام الاحتكار؛ لأنه أكل لأموال الناس بالباطل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[البقرة:١٨٨].

ولما فيه من ظلم وتسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع[3].

وفي الحديث عن معمر بن عبد الله رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يحتكر إلا خاطئٌ)[4].

قال النووي: «قال أهل اللغة: الخاطئ بالهمز هو العاصي الآثم، وهذا الحديث صريح في تحريم الاحتكار... والحكمة في تحريم الاحتكار دفع الضرر عن عامة الناس، كما أجمع العلماء على أنه لو كان عند إنسان طعام واضطر الناس إليه ولم يجدوا غيره أجبر على بيعه دفعًا للضرر عن الناس»[5].

ثالثًا: السفه:

ومن حماية القرآن الكريم للاقتصاد

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٦/ ٣٣٨١.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٥٠٧.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١/ ٣٥٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات، رقم ١٦٠٥، ٣/ ١٢٢٨.

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١١/ ٤٣.

من عوامل إفساده: حمايته من تصرفات السفهاء.

«السفه: السرف والتبذير... السفيه: من ينفق ماله فيما لا ينبغي من وجوه التبذير، ولا يمكن إصلاحه بالتمييز والتصرف فيه بالتدبير»[(١)].

وقد حمى القرآن الكريم الاقتصاد من السفه بالحجر على السفيه، رعاية لمصلحته، ومحافظة على ماله، وحتى لا يكون عالة على غيره.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٥].

قال السعدي: «السفهاء: جمع «سفيه» وهو: من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه، ونحوهما، وإما لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد. فنهى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم خشية إفسادها وإتلافها؛ لأن الله جعل الأموال قيامًا لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها.

فأمر الولي أن لا يؤتيهم إياها، بل يرزقهم منها ويكسوهم، ويبذل منها ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية، وأن يقولوا لهم قولًا معروفًا، بأن يعدوهم -إذا طلبوها- أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبرًا لخواطرهم.

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم، من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار»[(٢)].

وفي سياق حماية الاقتصاد من السفه، أمر الله تعالى بحفظ مال اليتيم.

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء:٦].

أي: اختبروا اليتامى المقاربين للرشد، فإن تبين رشدهم وصلاحهم في أموالهم، وبلغوا النكاح، فادفعوا إليهم أموالهم كاملة. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم.

﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها[(٣)].

فحمى القرآن الكريم مال اليتيم من

(١) الكليات، الكفوي ص ٥١٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٦٤.

(٣) انظر: المصدر السابق.

تصرف اليتيم نفسه حال سفهه، ومن ولي اليتيم في رعايته لذلك المال.

رابعًا: الإسراف:

ومن حماية القرآن الكريم للاقتصاد من عوامل إفساده: حمايته من الإسراف.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء:٢٩].

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا بالاقتصاد في العيش ذامًا للبخل ناهيًا عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلًا منوعًا...

وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملومًا محسورًا، وهذا من باب اللف والنشر أي: فتقعد إن بخلت ملومًا، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك...

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفًا وعجزًا»[1].

وقال تعالى في النهي عن الإسراف في أموال اليتامى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾[النساء:٦].

أي: ينهى تعالى أولياء اليتيم عن أكل ماله من غير حاجة ضرورية.

﴿إِسْرَافًا﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم.

﴿وَبِدَارًا﴾ أي: أي مبادرين إلى إنفاقها مخافة ﴿أَن يَكْبَرُوا﴾ رشداء فيلزمكم تسليمها إليهم، أي: لا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها[2].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١].

«فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما»[3].

قال ابن عاشور: «فوجه عدم محبة الله إياهم أن الإفراط في تناول اللذات والطيبات، والإكثار من بذل المال في تحصيلها، يفضي غالبًا إلى استنزاف الأموال، والشره إلى الاستكثار منها، فإذا

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٧٠.

(٢) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٩٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٧.

ضاقت على المسرف أمواله، تطلب تحصيل المال من وجوه فاسدة، ليخمد بذلك نهمته إلى اللذات، فيكون ذلك دأبه، فربما ضاق عليه ماله، فشق عليه الإقلاع عن معتاده، فعاش في كرب وضيق، وربما تطلب المال من وجوه غير مشروعه، فوقع فيما يؤاخذ عليه في الدنيا أو في الآخرة، ثم إن ذلك قد يعقب عياله خصاصة وضنك معيشة. وينشأ عن ذلك ملام وتوبيخ وخصومات تفضي إلى ما لا يحمد في اختلال نظام العائلة»[(١)].

والإسراف سبب من أسباب الفقر وإضاعة المال، فالمسرف يتبع شهوته ويجاريها، حتى إنه ربما افتقر وتعرض لسؤال الناس والتذلل لهم، أو ربما لجأ إلى الطرق المحرمة في سد شهواته، ثم إن الإسراف فيه استنزاف للموارد الموجودة دون مراعاة لقدرة الدخل الشرائية، مما يؤدي للعجز في تحقيق الموازنة في العملية الاقتصادية.

خامسًا: التعامل في المحرمات:

ومن حماية القرآن الكريم للاقتصاد من عوامل الفساد، حمايته من التعامل في المحرمات، كالخمر والميسر والقمار والمخدرات وغيرها، لما فيها من مفاسد عظيمة عليه وعلى المجتمع، فالتعامل في القمار مثلًا وصرف الأموال فيه يجعل الإنسان يعتمد في كسبه على الحظ والأماني الفارغة، لا العمل والجد، كما أنه أداة لهدم البيوت العامرة، وتفريغ الجيوب من المال، وافتقار العوائل الغنية، وهو يورث العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع مما يهدد السلم المجتمعي، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

وهكذا الحال في الخمر والمخدرات وغيرها من الأمور المحرمة التي تعود على الخمول والكسل، وتعطل الأمة عن العمل والإنتاج[(٢)]، وتدفع بالمجتمع إلى الجريمة.

وقد نهى القرآن الكريم عن الخمر والميسر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

أي: ينهى الله عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار، والأنصاب وهي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، والأزلام وهي قداح كانوا يستقسمون بها، فإنها شر من عمل الشيطان[(٣)].

ثم بين تعالى المفاسد المتعلقة بالخمر

(١) التحرير والتنوير، ٨/ ١٢٤.

(٢) انظر: الاقتصاد الإسلامي أسس ومبادئ وأهداف، عبدالله الطريقي ص ٩٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٧٨.



والميسر، فمنها ما يتعلق بالدنيا من إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، مما يفضي بهم إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن، وكل ذلك فيه إضاعة لمصالحهم وتشويش لحياتهم، ومنها ما يتعلق بالدين وهو الصد عن ذكر الله والصلاة[1].

سادسًا: كنز المال:

ومن حماية القرآن الكريم للاقتصاد من عوامل الفساد، حمايته من كنز المال وعدم أداء حقوقه، فالمال المكنوز لا ينتفع به، ولا يساهم في إنعاش الاقتصاد وتحسينه، ويحرم من المشاركة في العملية الإنتاجية بسبب طمع صاحبه وحرصه.

وقد حرم القرآن الكريم كنز المال قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

فتوعد الله تعالى من يكنزون أموالهم، أي: يمسكونها، ولا ينفقونها في سبيل الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم فسر العذاب بقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي: على أموالهم، في نار جهنم فيحمى كل دينار أو درهم على حدته، ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

ويقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فما ظلمكم الله ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكنز[2].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٥.

الاقتصاد والأخلاق

الإسلام دين الأخلاق في جميع تشريعاته، دين الأخلاق في تشريعاته في العبادات وأحكام المعاملات، ودين الأخلاق في تشريعاته في الجهاد والحرب والسلم، ودين الأخلاق في تشريعاته في الاقتصاد وغيره من مناحي الحياة.

قال تعالى في وصف خلق النبي عليه السلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[(١)].

وقد ربط القرآن الكريم بين الاقتصاد والأخلاق ربطًا وثيقًا، وذلك في آيات كثيرة منه، من ذلك أنه جعل الإيمان والتقوى والعمل الصالح سببًا لنمو الاقتصاد وزيادة الإنتاج.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

فبالإيمان والتقوى يبارك الله في أرزاق العباد وحياتهم، وقال تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾[نوح:١٠-١٢].

فالاستغفار وترك المعاصي سبب من أسباب زيادة الإنتاج ونمو الاقتصاد.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٢٨].

فنهى الله تعالى عباده المؤمنين عن تمكين المشركين من الاقتراب من الحرم بعد هذا العام التاسع من الهجرة، ثم أخبر تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، أي: «وإن خفتم فقرًا لانقطاع غارتهم عنكم، فإن الله سيعوضكم عنها، ويكفيكم من فضله إن شاء، إن الله عليم بحالكم، حكيم في تدبير شؤونكم»[(٢)].

ففي هذه الآية يبين القرآن أنه لا يجوز أبدًا تقديم المصلحة والغرض الاقتصادي على رعاية الفضائل التي يدعو إليها الدين، كما يبين أن اعتبار تلك الأخلاق في الاقتصاد هو أمر واجب، حتى ولو أدى ذلك إلى نقصان أو خسارة فيه، فلا شك أنه في منع حج الألوف وعشرات الألوف

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٨٩٥٢، ١٤/ ٥١٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٣٤٩.

(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ١٩١.

من الحجاج خسارة اقتصادية كبيرة على المسلمين. ولكن عليهم أن يتحملوا ذلك في سبيل إيمانهم.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[الجمعة:٩].

«ولا شك أن استمرار الناس يبيعون ويشترون في كل وقت فيه كسب خاص لهم، وإنعاش للحركة الاقتصادية على العموم، لكن القرآن يأمر المؤمنين في يوم الجمعة، إذا سمعوا النداء أن يوقفوا دولاب العمل، ويعطلوا كل بيع وشراء ليسعوا إلى ذكر الله، وأداء فرضه الأسبوعي»[(١)].

فالقرآن لا يجيز لنا في سبيل تنمية اقتصادنا أن ننسى أوامر ربنا وطاعته.

قال تعالى في وصفه عباده المؤمنين: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾[النور:٣٧].

وقال تعالى حاكيًا عن نبيه سليمان عليه السلام لما أرسلت إليه ملكة سبأ هدية ترشيه بها وتختبره: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾[النمل:٣٦].

ومع أن الهدية المالية فيها قيمة اقتصادية إلا أن سليمان عليه السلام رد هذه الهدية؛ لأنها كانت عوضًا عن سكوته عن الحق والدعوة إلى الإسلام والإيمان، فالهدية إن كانت على حساب العقيدة والقيم الأخلاقية، فهي مرفوضة مردودة. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة:١٨٨].

أي: أن أكل المال يجب أن يكون بالحق والعدل، لا بالباطل والجور، وبهذا النهي الواضح الصريح عن أكل المال بالباطل يوضح القرآن العلاقة بين الاقتصاد والأخلاق ومدى ارتباطهما الوثيق.

قال السعدي: «أي: ولا تأخذوا أموالكم أي: أموال غيركم، أضافها إليهم؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم ماله؛ ولأن أكله لمال غيره يجرئ غيره على أكل ماله عند القدرة»[(٢)].

ويدخل في أكل الحرام للمال: السرقة والغش والغصب والربا ونحو ذلك مما حرمه الشرع الحكيم ونهى عنه.

كما بين القرآن بعض الأخلاق الفاضلة التي يلتزم بها المسلم في الاقتصاد، كالصدق والعدل، وعدم الكذب والغش والخداع. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ

(١) المصدر السابق ص ٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٨.

﴿...اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

أي: «الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم، لا تكون إلا صدقًا»[1]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف:٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين:١-٣].

فتوعد الله تعالى المطفف الذي يبخس الناس حقهم، ونهى عن ذلك.

قال ابن كثير: «المراد بالتطفيف هاهنا: البخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم؛ ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل، بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾، أي: من الناس، ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصون»[2].

فأمرت هذه الآيات بالعدل وعدم الجور والغش في التعامل الاقتصادي مع الآخرين.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف:٢٩].

ومن أخلاق الاقتصاد التي بينها القرآن الكريم الوفاء بالعهد.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤].

فبين تعالى أنه سيسألنا عن عهودنا وهل التزمنا بها أم لا؟.

كما أشار القرآن الكريم إلى قضية الإتقان في العمل، كما في قوله تعالى لنبيه دواد عليه السلام: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ:١١].

فقوله: ﴿وَقَدِّرْ﴾ بتقدير دقيق، أي: يجب عليك يا داود عند صناعتك للدروع ونسجها أن تقدر ذلك تقديرًا دقيقًا، وفي ذلك دعوة قرآنية لأهل الصنائع والحرف أن يتقنوا أعمالهم وصناعاتهم، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله جل وعز يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه)[3].

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الإنفاق، الربا، الزكاة، المال

(١) المصدر السابق ص ٣٥٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٣٤٦.
(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده، رقم ٤٣٨٦، ٧/ ٣٤٩، والطبراني في المعجم الأوسط، رقم ٨٩٧، ١/ ٢٧٥، والبيهقي في الشعب، رقم ٤٩٣١، ٧/ ٢٣٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٨٨٠، ١/ ٣٨٣.





عناصر الموضوع

مفهوم الإكراه	١٤٤
الإكراه في الاستعمال القرآني	١٤٥
الألفاظ ذات الصلة	١٤٦
أنواع الإكراه	١٤٨
أسباب الإكراه	١٥٩
الإكراه القدري	١٦٨
أثر الإكراه في الأحكام الشرعية	١٧٠



مفهوم الإكراه

أولًا: المعنى اللغوي:

«الكاف والراء والهاء أصلٌ صحيحٌ واحد، يدل على خلاف الرضا والمحبة، يقال: كرهت الشيء أكرهه كَرْهًا. والكُره الاسم. ويقال: بل الكُره: المشقة، والكَره: أن تكلف الشيء فتعمله كارهًا، ويقال من الكره الكراهِيَة والكراهِيَة. والكريهة: الشدة في الحرب»[1].

وقيل: «الكُره بالضم: هو فعل المختار، والكَره بالفتح: هو فعل المضطر»[2]، «والإكراه عبارةٌ عن إثبات الكره»[3].

فمعنى الإكراه لغة يدور حول المشقة والشدة، وعدم الرضا والمحبة وعدم الاختيار.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «حمل الغير على ما يكرهه بالوعيد والإلزام والإجبار على ما يكره الإنسان طبعًا أو شرعًا، فيقدم على عدم الرضا ليرفع ما هو أضر»[4]، وقيل: «الإكراه حمل الغير على ما يكرهه بالوعيد الشديد»[5].

وقيل: «والكره معنى قائم بالمكره ينافي المحبة والرضا، ولهذا يستعمل كل واحد منهما مقابل الآخر. قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾[البقرة: ٢١٦]»[6].

وكلا المعنيين اللغوي والاصطلاحي فيهما الإلزام وعدم الاختيار مع عدم الرضا والمحبة.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٧٢.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٥٣٤.
(٣) بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ١٧٥.
(٤) التعريفات ص ٥٠.
(٥) التوقيف، المناوي ص٨٤.
(٦) بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ١٧٥.

الاكراه في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أكره) في القرآن (٧) مرات[١]:

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦]
الفعل المضارع	٣	﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور:٣٣]
المصدر	٢	﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]

وجاء الإكراه في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: حمل الإنسان على ما يكرهه، أي أنه بمعنى الإجبار[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٦٠٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٠٨، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٣٧٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الغصب:

الغصب لغةً:

(غصب)، «الغصب: أخذ الشيء ظلمًا، غصب الشيء يغصبه غصبًا واغتصبه فهو غاصبٌ، وغصبه على الشيء: قهره، وغصبه منه والاغتصاب مثله، والشيء غصبٌ»[(١)].

الغصب اصطلاحًا:

«الاستيلاء على حق الغير عدوانًا»[(٢)].

الصلة بين الإكراه والغصب:

بينهما افتراق واتفاق، إذ إن الغصب أخذ الشيء وسلبه بقوة السلطان وقهره، والإكراه حمل الغير على فعل الشيء بقوة السلطان وقهره، فهما يتفقان في إتيان الشيء بالقوة والسلطان، ويفترقان في فقدان ما يغتصب منه في حالة الغصب، وبقاء الشيء المكره عليه في حالة الإكراه.

٢ الإلجاء:

الإلجاء لغةً:

«التلجئة: الإكراه، وألجأه إلى كذا: اضطره إليه، وألجأ أمره إلى الله: أسنده»[(٣)].

الإلجاء اصطلاحًا:

«والإلجاء ما تشتد دواعي الانسان إليه على وجه لا يجوز أن يقع مع حصول تلك الدواعي، والإلجاء يكون فيما لا يجد الانسان منه بدًا من أفعال نفسه»[(٤)].

الصلة بين الإكراه والإلجاء:

بينهما فرق دقيق، فالإكراه يقع على المكره من خارج إرادته فيستعمل الإجبار مع الإكراه، بينما الإلجاء يقع بإرادة الملجأ ذاتيًا.

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٤٨.
(٢) التوقيف، المناوي ص٥٣٨.
(٣) مختار الصحاح، الرازي ص٦١٢.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص٤٤.



٣ الإلزام:

الإلزام لغةً:

«لزم الشيء يلزمه لزمًا ولزومًا ولازمه ملازمةً ولزامًا، والتزمه وألزمه إياه فالتزمه، ورجل لزمةٌ: يلزم الشيء فلا يفارقه، ألزمه الشيء فالتزمه»(١).

الإلزام اصطلاحًا:

وهو نفس التعريف اللغوي عند الفقهاء والمفسرين.

الصلة بين الإكراه والإلزام:

يتفقان في أنهما على الحق والباطل فيقال: أكرهته على الوقوع في المعصية، وفي الإلزام يقال: ألزمته الباطل، وفي الحق كذلك، «وبينما يختلفان في أن الإلزام أخص من الإكراه، حيث إن المكره يأتي المكره عليه ثم يفارقه، بينما في الإلزام تنعدم مفارقة الملزم عليه»(٢).

٤ التراضي:

التراضي لغةً:

«الراء والضاد والحرف المعتل أصلٌ واحد يدل على خلاف السخط. تقول: رضي يرضى رضىً. وهو راضٍ»(٣).

التراضي اصطلاحًا:

«قصد الفعل دون أن يشوبه إكراه»(٤).

الصلة بين الإكراه والتراضي:

هما نقيضان فلا يجتمعان.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٤١، مختار الصحاح، الرازي ص٦١٢.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص٤٥.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٠٢.
(٤) انظر: الموسوعة الكويتية الفقهية ٣٠/ ٢٢٠.

أنواع الإكراه

السياق القرآني من خلال عرضه لمصطلح الإكراه في ثنايا السور والآيات الكريمة بين أن الإكراه ينقسم إلى أنواع مادية ومعنوية، وذلك باختلاف الأمر المكره عليه المكره.

أولًا: الإكراه على الإيمان:

أورد ربنا سبحانه وتعالى من خلال السياق القرآني في معرض نفيه الإكراه على الإيمان، الآية الكريمة التي جاءت في سورة يونس.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

يقول الشيخ سيد طنطاوي رحمه الله في تفسيره للآية: «والهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ﴾ للاستفهام الإنكاري، والفاء؛ للتفريع، والمراد بالناس: المصرين على كفرهم وعنادهم.

والمعنى: تلك هي مشيئتنا لو أردنا إنفاذها لنفذناها، ولكننا لم نشأ ذلك فهل أنت يا محمد في وسعك أن تقهر الناس الذين لم يرد الله هدايتهم على الإيمان؟ لا، ليس ذلك في وسعك ولا في وسع الخلق جميعًا، بل الذي في وسعك هو التبليغ لما أمرناك بتبليغه»[1].

فالمعنى الظاهر للآية الكريمة: أن الإيمان لا يمكن أن يكون بالإكراه، ولا يمكن للإكراه أن ينشئ مؤمنًا، وأن أمر الايمان والكفر بمشيئته سبحانه وتعالى، بعد أن أرسل رسله ليبينوا للناس الحق، ويبلغوا الناس عن ربهم.

يقول الحق جل وعلا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وأورد سبحانه وتعالى آية أخرى في سورة البقرة في معرض نفيه أن دخول الإسلام يكون إجبارًا، وهي قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه

(١) انظر: الوسيط ٧/ ١٣٦.

ويصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا»[1].

ويقول شيخ المفسرين الطبري رحمه الله: «ومعنى قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ لا يكره أحد في دين الإسلام عليه، وإنما أدخلت (الألف واللام) في ﴿ٱلدِّينِ﴾، تعريفًا للدين الذي عنى الله بقوله: (لا إكراه فيه)، وأنه هو الإسلام»[2].

ويقول سيد قطب في الظلال: «وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه»[3].

ويقول المفسر العلامة السعدي في تفسيره: «يخبر تعالى أنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق»[4].

ومن هذا الاستدلال التفسيري لبيان معنى الآيتين يتضح لنا أن الإكراه غير معتبر في الإيمان والإسلام، وأن الدخول في الإسلام قائم على الحجة والعقل والمنطق، والاعتناق برغبة ذاتية كاملة من المكلفين، وأما دعوة الناس للإيمان والتزام أوامر الدين بالسنان وحملهم عليها فهذا مما لا يقبله الإسلام.

يقول الشيخ الزرقاني: «أما السيف ومشروعية الجهاد في الإسلام فلم يكن لأجل تقرير عقيدة في نفس، ولا لإكراه شخص أو جماعة على عبادة، ولكن لدفع أصحاب السيوف عن إذلاله واضطهاده، وحملهم على أن يتركوا دعوة الحق حرة طليقة، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله»[5].

وورد في نزول قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ أكثر من سبب للنزول، منها:

الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت المرأة تكون مقلاتًا[6]، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده،

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٨٢.
(٢) جامع البيان، ٥/ ٤١٥.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٧٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص١١٠.
(٥) مناهل العرفان، ٢/ ٤٠٦.
(٦) هي المرأة التي لا يعيش لها ولد، أو ليس لها إلا ولد واحد.
تاج العروس، الزبيدي٥/ ٤٢.

فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا! فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾»[1].

الثاني: قال السدي قوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ إلى ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار يقال له أبو الحصين: كان له ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما باعوا وأرادوا أن يرجعوا أتاهم ابنا أبي الحصين، فدعوهما إلى النصرانية، فتنصرا فرجعا إلى الشام معهم، فأتى أبوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إن ابني تنصرا وخرجا، فأطلبهما؟ فقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب، وقال: أبعدهما الله! هما أول من كفرا! فوجد أبو الحصين في نفسه على النبي صلى الله عليه وسلم حين لم يبعث في طلبهما، فنزلت: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥][2].

الثالث: قال مسروق: «كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان فتنصرا قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يحملون الطعام فأتاهما أبوهما فلزمهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا أن يسلما، فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ فخلى سبيلهما»[3].

القول الراجح في آية الإكراه على الدين:

في المسألة أقوال ثلاثة:

الأول: ذهب جمهرة من العلماء والمفسرين[4] بأن هذه الآية منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

قاله الصحابي زيد بن أسلم رضي الله عنه، ونقله الإمام ابن حزم رحمه الله، وابن سلامة، والكرمي، والمقري، -رحمهم الله تعالى-.

الثاني: ذهبت جمهرة أخرى من العلماء، «بأن الآية ليست منسوخة، ولكن ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ نزلت في أهل الكتاب، لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية، والذين يكرهون أهل الأوثان»[5]، فهم الذين نزلت فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٠٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٤١٠.
(٣) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٤٩.
(٤) انظر: قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ، مرعي الكرمي ص٧٥.
(٥) انظر: الناسخ والمنسوخ، النحاس ص٢٥٨.

﴿الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

الثالث: ذهب فريق ثالث إلى أن هذه الآية مخصوصة، وممن قال إنها مخصوصة ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال أبو جعفر: «قول ابن عباس في هذه الآية أولى الأقوال؛ لصحة إسناده، وأن مثله لا يأخذ بالرأي، فلما أخبر أن الآية نزلت في هذا وجب أن تكون أولى الأقوال، وأن تكون الآية مخصوصة نزلت في هذا، وحكم أهل الكتاب كحكمهم»[(١)].

وبهذا وبه قال شيخ المفسرين الإمام الطبري، وجمهرة كبيرة من العلماء.

هذا حاصل أقوال المتقدمين في الجمع بين هذه الآية؛ والواقع فإن الناظر في كتب التفسير المتقدمة عمومًا، يجد أن المفسرين لم يخرجوا عن هذه الأقوال في الأغلب، ورجح أكثرهم القول بأن آية البقرة خاصة بأهل الكتاب.

ثانيًا: الإكراه على الكفر:

تعتبر الدعوات السماوية مصدر إزعاج للماديين الدنيويين؛ فذلك لا يتوانون لحظة في إلحاق الأذى بأتباعها وأشياعها، ولما كان الإسلام دعوة الحق الذي ارتضاه لنا ربنا سبحانه وتعالى، وأرسل به النبي صلى الله عليه وسلم لمنح العباد الحرية من طواغيت الأرض، زاد الماديين نفورًا وعنادًا واستكبارًا وصدًا عن سبيل الله تعالى وإيذاءً للمؤمنين، فكانت المنحة الإلهية لهم بجواز الأخذ بالرخصة في الكفر باللسان بعد الإيمان تفاديًا لأذاهم، وبشرط اطمئنان القلب بالإيمان.

فقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

قال شيخ المفسرين الإمام الطبري: «﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الكفر، فنطق بكلمة الكفر بلسانه ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ موقن بحقيقته، صحيح عليه عزمه، غير مفسوح الصدر بالكفر، لكن من شرح بالكفر صدرًا فاختاره وآثره على الإيمان، وباح به طائعًا، ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾»[(٢)].

إن الإسلام العظيم يعنى بداخل الإنسان: القلب والجوهر والعقل، فإذا تهذب القلب واطمأن لحول الله وقوته وآمن لربه، واقتنع العقل والفكر؛ فإنه لا يمكن لقوة في الأرض أن تثني الإنسان عن ربه؛ ولو حصل فإنه

(١) جامع البيان، ١٢/ ٤١٤.

(٢) المصدر السابق ١٧/ ٣٠٥.

يكون باللسان والفعل لا بالقلب والاقتناع، ولذا فقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم أن ما استكره عليه الإنسان من الأقوال والأفعال، مما تجاوز عنه ربنا سبحانه وتعالى في حق أمة محمد صلى الله عليه وسلم: فعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[1].

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله في سياق عرضه للآية الكريمة في الظلال: «والنص هنا يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه؛ لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتد عنه إيثارًا للحياة الدنيا على الآخرة، فرماهم بغضب من الله، وبالعذاب العظيم، والحرمان من الهداية؛ ووصمهم بالغفلة وانطماس القلوب والسمع والأبصار؛ وحكم عليهم بأنهم في الآخرة هم الخاسرون. ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة، وحساب للربح والخسارة، ومتى آمن القلب بالله فلا يجوز أن يدخل عليه مؤثر من مؤثرات هذه الأرض؛ فللأرض حساب، وللعقيدة حساب ولا يتداخلان، وليست العقيدة هزلًا، وليست صفقة قابلة للأخذ والرد فهي أعلى من هذا وأعز، ومن ثم كل هذا التغليظ في العقوبة، والتفظيع للجريمة»[2].

إن الله سبحانه وتعالى إذ أعطى الإنسان المسلم رخصة النطق بكلمة الكفر إكراهًا واضطرارًا وجوز له فيها؛ إلا أنها تحت شروط معينة، فقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ولقد أجزل الله تعالى في العطاء لمن صبر في سبيل الله ولم يساوم على دينه وعقيدته من أجل دنيا فانية، ولنا خير مثال في أصحاب الأخدود الذين ما ساوموا على الكفر بعد الإيمان، فأجزل لهم العطاء الأخروي، وسجل الله عز وجل موقفهم في قرآن يتلى إلى يوم القيامة.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ٩-١٠].

وسجل ربنا سبحانه وتعالى أنهم انتصروا على عدوهم مع أنه رماهم في النار وحرقهم، إلا أن المبدأ انتصر وفاز على جبروت الطاغية وجلاوزته، ومن

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، رقم ١١٧٨٧، ٦/ ٨٤.
وصححه النووي في المجموع ٦/ ٣٠٩، والألباني في إرواء الغليل ١/ ١٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٤٩١.

هنا فإنه على أهل الإيمان في شتى بقاع الأرض أن يأخذوا بالعزيمة في الثبات على الإيمان والمبادئ والثوابت وانتزاع الحرية، وتحرير العباد من عبادة العباد، لعبادة رب العباد، وإن الثبات على الحق وتجرع المر أفضل مائة مرة من الهوان والعيش في ذلة وخنوع، «وهذا الصحابي الجليل حبيب بن زيد الأنصاري يعلمنا درسًا في الصمود والثبات على المبادئ، ولو على نفسه حينما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم برسالته إلى مسيلمة الكذاب، فقيده مسيلمة الكذاب وجعل يقول له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فجعل يقطعه عضوًا عضوًا حتى مات في يديه، لا يزيده على ذلك»[(١)].

وأورد الواحدي في كتابه (أسباب النزول) روايتين لسبب نزول الآية الكريمة، نذكر منها واحدًا، «فعن ابن عباس: نزلت في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرًا وأمه سمية وصهيبًا وبلالًا وخبابًا وسالمًا، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجئ قبلها بحربة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت وقتل زوجها ياسر وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن عمارًا كفر، فقال: كلا إن عمارًا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يمسح عينيه، وقال: (إن عادوا لك فعد لهم بما قلت)، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[(٢)].

الحد الذي إذا بلغه الشخص عد مكرهًا:

إذا كان الشارع قد أباح للإنسان المسلم النطق بكلمة الكفر كارهًا ومضطرًا، إلا أن الأمر ليس على إطلاقه؛ ولكن للضرورة أحكامًا، ولقد حدد العلماء شروطًا إذا بلغها الشخص عد مكرهًا، فقال ابن حجر: «شروط الإكراه أربعة»[(٣)]:

١. أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزًا عن الدفع ولو بالفرار.
٢. أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.
٣. أن يكون ما هدد به فوريًا، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غدًا لا يعد مكرهًا. ويستثنى ما إذا ذكر زمنًا قريبًا جدًا، أو جرت العادة بأنه لا يخلف.

(١) السيرة النبوية،ابن كثير ٢/ ٢١٢.

(٢) انظر: أسباب النزول ص١٩٠.
(٣) فتح الباري ١٢/ ٣١١.

٤. أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره.

ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور، ويستثنى من الفعل ما هو محرم على التأبيد كقتل النفس بغير حق، وقال الخازن: «قال العلماء: يجب أن يكون الإكراه الذي يجوز له أن يتلفظ معه بكلمة الكفر أن يعذب بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل والضرب».

ثالثًا: الإكراه على الكبائر:

ذكر القرآن الكريم بعض الكبائر والمعاصي التي قد يقع فيها الإكراه، ومن ذلك:

١. الإكراه على الزنا.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

أورد الشيخ الواحدي في كتابه أسباب النزول سببًا لنزول هذه الآية، فقال: «كانت جارية لعبد الله بن أبي بن سلول، يقال لها مسيكة، فآجرها أو أكرهها، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم، فشكت ذلك إليه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣]. يعني بهن»[(١)].

يقول الشيخ سيد طنطاوي في معرض تفسيره للآية: «ولا تكرهوا -أيها الأحرار- فتياتكم اللائي تملكوهن على الزنا إن كرهنه وأردن العفاف والطهر، لكي تنالوا من وراء إكراههن على ذلك بعض المال الذي يدفع لهن نظير افتراشهن، ومن يكره إماءه على البغاء فإن الله تعالى بفضله وكرمه- ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إكراهكم لهن، ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهن، أما أنتم يا من أكرهتموهن على الزنا فالله وحده هو الذى يتولى حسابكم، وسيجازيكم بما تستحقون من عقاب»[(٢)].

إن القرآن الكريم وهو يضع دعائم المجتمع المسلم، يعالج فيه مظاهر وظواهر نشأت في ظلمة الجاهلية الأولى، فيضع الشارع الحكيم من الأحكام والتشريعات والتوجيهات ما يحفظ المجتمع المسلم من كل دخائل وشوائب.

فبعد أن أمر بإنكاح الأيامي للتحصين البيوت والمجتمع، وأمر الذين لا يجدون نكاحًا بالعفاف حتى يغنيهم الله من فضله بالمال والنكاح، فقال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا

(١) انظر: أسباب النزول ص٢٤٤.
(٢) التفسير الوسيط ١/ ٣٠٧٩.

﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النور: ٣٢-٣٣].

فكان النداء بعدها للأحرار الأطهار بأن المجتمع المسلم يجب أن يتطهر من كل النقائص، وألا يغرق في أوحال الشهوات الجاهلية؛ بل إن الإسلام الحنيف كرم الإيماء في تعبير الله سبحانه وتعالى بذكره لهن الفتيات، وحض الإسلام على المزيد من تحصينهن وخوف الذين يكرهونهن بالعقاب في الآخرة، مستثنيًا المكرهات من العقوبة مع عظم الجريمة؛ ليتبقى أمام المكرهة على الزنا فرصة الرجوع والإنابة والثبات على المنهج القويم.

ثم إن الإسلام جفف منابع هذه الظاهرة المنتشرة (الاسترقاق) وحصرها في الحروب المشروعة التي تقوم بين المسلمين والكفار، ووسع أبواب العتق من خلال الكفارات، ثم إن الله أمر بالإحسان إلى الرقيق والتعامل معهم وفق أخلاق الإسلام.

وختامًا فإن الله سبحانه جعل البشر كلهم إخوة بينهم نسبٌ واحدٌ، وتسري في أوصالهم نفخة من روح الله، وأنهم سواسيةٌ في الحقوق والواجبات، وأنهم خلقوا ليتعارفوا ويتحابوا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾[الحجرات: ١٣].

٢. الإكراه على السحر.

أخبر القرآن الكريم أن سحرة فرعون بعد إيمانهم قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

يقول العلامة ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره للآية: أخذ فرعون أربعين غلامًا من بني إسرائيل فأمر أن يعلموا السحر بالفرما، وقال: علموهم تعليمًا لا يعلمه أحد في الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم من الذين قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]»[(١)].

مما لاشك فيه أن السحر المتعارف عليه بين الناس والذهاب للسحرة من كبائر الذنوب، والسحرة كذبة دجالون، ولقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من السحرة ومن التصديق والإيمان بأكاذيبهم.

وروى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(من أتى عرافًا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)**[(٢)].

وإن الإنسان المسلم مطالب باجتناب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٠٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، باب تحريم الكهانة، ٧/ ٣٧، رقم ٢٢٣٠.

السحر بأنواعه المتعددة ووسائله المتنوعة؛ لأن الأصل في أهداف السحرة هو التفرقة، سواء بين المرء ودينه أو المرء وزوجه وعائلته وأهله وعشيرته.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

بعد بيانه سبحانه وتعالى لمن اتبع الشياطين في سحرهم من اليهود والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه، «ذكر مفاسد السحر فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما؛ لأن الله قال في حقهما: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين»[1].

رابعًا: الإكراه في المعاملات:

١ . الإكراه على النكاح.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

روى البخاري «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١.

شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩][1].

يقول الإمام القرطبي في تفسيره لهذا الآية: «لا يحل لكم أن ترثوهن من أزواجهن فتكونوا أزواجًا لهن، فالمقصود إذهاب ما كانوا عليه في جاهليتهم، وألا تجعل النساء كالمال يورثن عن الرجال كما يورث المال، وقرأ حمزة والكسائي»[2].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾، يعني: ميراث نكاح النساء.

وقيل: أن ترثوا أموالهن كرهًا يعني وهن كارهات.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: لا تحبسوهن عندكم وتمنعوهن وكانوا إذا كانت جميلة تزوجوها وإذا كانت دميمة حبوسها حتى تموت فيرثونها، وتفعلون ذلك، ﴿...لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ...﴾، كأن هذا حكم آخر، لا ترثوا النساء كرهًا هذا حكم، و أيضًا لا تعضلوهن حكم ثانٍ.

والمثال: عندما يكون الرجل كارهًا لامرأته فيقول لها: والله لن أطلقك، أنا سأجعلك موقوفة ومعلقة لا أكون أنا لك زوجًا ولا أمكنك أيضًا من أن تتزوجي؛ وذلك حتى تفتدي نفسها فتبرئ الرجل من النفقة ومؤخر الصداق، فيحمي الإسلام المرأة ويحرم مثل تلك الأفعال.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، فحينئذٍ يحل لكم إضرارهن ليفتدين منكم واختلفوا في الفاحشة المبينة، فقيل: هي النشوز وسوء الخلق وإيذاء الزوج وأهله، وقيل الفاحشة: هي الزنى، يعني: أن المرأة إذا نشزت أو زنت حل للزوج أن يسألها الخلع، وقيل: كانت المرأة إذا أصابت فاحشة أخذ منها زوجها ما ساق إليها وأخرجها فنسخ الله ذلك بالحدود، ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

قال ابن عباس: «الخير الكثير: أن يعطف عليها، فيرزق الرجل ولدها، ويجعل الله في ولدها خيرًا كثيرًا»[3].

وقيل: في الآية ندب إلى إمساك المرأة مع الكراهية لها؛ لأنه إذا كره صحبتها وتحمل ذلك المكروه طلبًا للثواب وأنفق عليها وأحسن هو صحبتها استحق الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى، وقيل في معنى الآية: إنكم إن كرهتموهن ورغبتم في فراقهن فربما جعل الله في تلك المفارقة لهن خيرًا كثيرًا؛ وذلك بأن تخلص من هذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإكراه، باب من الإكراه، ٦/ ٢٥٨٤، رقم ٦٩٤٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٩٤.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٨/ ١٢٣.

الزوج الكاره لها وتتزوج غيره خيرًا منه[1].

٢. الإكراه في البيوع.

أصل القرآن الكريم لحرمة أكل المال وبين الاستثناء في تداول وتبادل المال في ذلك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء: ٢٩].

يقول العلامة ابن عاشور[2] في تفسيره للآية: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمْ﴾، وهو يقتضي أن الاستثناء قد حصر إباحة أكل الأموال في التجارة، و﴿عَن﴾ فيه للمجاوزة، ﴿تَرَاضٖ مِّنكُمْ﴾ أي: صادرة عن التراضي وهو الرضا من الجانبين بما يدل عليه من لفظ أو عرف، والتراضي يحصل عند التبايع بالإيجاب والقبول، وهذه الآية أصل عظيم في حرمة الأموال، لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل مال امرئٍ يعني مسلمًا إلا بطيبٍ من نفسه)[3].

من الملاحظ أن الله عز وجل لم يذكر صيغة التراضي في القرآن الكريم سوى أربع مرات، ثلاثة في الأحوال الشخصية وواحدة في المعاملات، والتراضي: «هو الرضا من الجانبين بما يدل عليه من لفظ أو عرف، وهو أساس العقود بصفة عامة، وأساس المبادلات المالية بصفة خاصة، فلا بيع ولا شراء ولا إجارة ولا شركة ولا غيرها من عقود التجارة ما لم يتحقق الرضا»[4].

ويعطينا ذلك دلالة كافية وواضحة على أهمية تحقق شرط التراضي في المعاملات الشخصية والمالية، بحيث يتحقق التراضي من المتعاقدين؛ وذلك لما يترتب عليه من آثار ونتائج، والتراضي هو الحالة المقابلة للإكراه فلا يمكن في حالة البيوع والتداول والتجارة أن يكون أحد الأطراف المتعاقدة مكرهًا، بل إن التراضي بينهم شرط أساسي لصحة عقد البيع والتجارة.

---

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٩٩، تفسير الشعراوي ١/ ١٤١٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٥/ ٢٤.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤/ ٥٦٠، رقم ٢١٠٨٢، عن عمرو بن يثربي.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، رقم ١٤٥٩.

(٤) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٩٢٣.

أسباب الإكراه

كما بين السياق القرآني أنواع الإكراه ووضحته فيما سبق، فإن السياق القرآني بين الأسباب والأمور التي تدفع بالمكره؛ ليأخذ حكم الإكراه في المسألة الحاصلة، وكذلك بين السياق القرآني الأسباب التي تبين سبب إكراه المكره للمكره، وسبب كونه أكرهه على فعل المكره عليه وجعله مكرهًا عليه:

أولًا: الفتنة في الدين:

من المعلوم أنه لا فتنة، ولا فساد أعظم من الفتنة في الدين والفساد فيه، ولقد حذرنا الحق سبحانه وتعالى من هذه الفتنة، وحرضنا لتجنبها، ولأن الفتنة في الدين لها صور وأشكال متعددة، فقد عالجها القرآن الكريم من خلال عرض السياق القرآني لمسألة الفتنة في الدين بالإكراه باختلاف نوع المكرَهين أو المكرِهين، وهذا ما ستتناوله فيما يأتي:

١ . الفتنة في الدين بالإكراه في حق المؤمنين.

وفيه حالتان:

الحالة الأولى: إكراه الله عز وجل للمؤمنين في فريضة الجهاد، وتكريهه لهم الكفر والفسوق والعصيان:

لقد ابتلى الله سبحانه أهل الإيمان بأحكام وتكليفات، وإن كانت أنفسهم غير راضية عن أدائها والصب على مشاقها، ولكنها تحمل الخير لهم.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

يقول الشيخ سيد طنطاوي في تفسيره للآية الكريمة: «أي: أن القتال لشدة ويلاته، وما فيه من إزهاق الأرواح كأنه الكراهة نفسها فهو من وضع المصدر موضع اسم المفعول مبالغة، وقرئ (وهو كَرْهٌ لكم) -بفتح الكاف- فيكون فيه معنى الإكراه؛ لأن الكره بالفتح ما أكرهت عليه، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد وهو الكراهية»[(١)].

وتتجلى رحمته سبحانه وتعالى في حبه الخير للمؤمنين بتكريهه لهم الكفر والفسوق والعصيان، وتحبيبه إليهم الإيمان، وجعله قناديل مضيئة تتزين به قلوب العابدين، فقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧].

وزاده الله سبحانه وتعالى في تكريهه

(١) المصدر السابق ١/ ٣٧٢.

لأهل الإيمان عديد النواهي التي بينها في سورة الإسراء، ختمها بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨].

تبيانًا منه سبحانه وتعالى لعدم إتيانها من المؤمنين، وأنها سيئات مكروهة عند الله تعالى، فالأولى بكم يا أهل الإيمان الانتهاء عنها.

الحالة الثانية: إكراه الكافرين للمؤمنين لصدهم عن سبيل الله:

إن أهل الكفر والضلال لا يتوانون لحظة في إكراه المؤمنين لصدهم عن دينهم وإغوائهم بشتى الطرق والوسائل وتتعدد وسائلهم وطرقهم وأساليبهم للصد عن سبيل الله بالترغيب تارة وأخرى بالترهيب، بما يتلاءم مع كل زمان ومكان، وهما في هذا وذاك إخوة وأولياء متفقون على صد الناس عن دين الله ولهم وسائلهم وأساليبهم في ذلك.

ولما علم الله سبحانه وتعالى كيد الكافرين وحربهم على أهل الإيمان فقد رخص رخصًا قولية لرفع أذاهم عن المؤمنين، واشترط أن يكون القلب مطمئنًا بالإيمان.

يقول تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦].

«وهذا يعد رخصة للمسلمين الذين يتعرضون للبلاء الشديد على يد الكفار، فمن ثبت وراغم الكفار كما فعل بلال فهو أفضل، ومن أخذ بالرخصة كما فعل عمار فإنه لا إثم عليه مادام قلبه مطمئنًا بالإيمان، ولله الحمد والفضل، وفي اطمئنان القلب دلالة على أهمية صيانة الفكر من أن يتطرق إليه شيء من الشبهات التي يثيرها الكفار»(١).

ولم يقتصر أهل الشرك والكفر على إكراههم الناس بأنفسهم واتباعهم، بل إنهم أكرهوا وأجبروا كل الإمكانات المتاحة لإكراه أصحاب الاختصاصات المتعددة، في تسخيرها للصد عن سبيل الله تعالى، ففي قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون وسحرته، يتجلى القهر والتسلط الذي مارسه فرعون على السحرة؛ لسحر أعين الناس وصدهم عن الدعوة الجديدة، وحينما انكشف الأمر وبانت الحقيقة نطقوا بالحقيقة المرة.

فقال تعالى حكاية عنهم بعد إيمانهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

تتعدد الصور وتتنوع الوسائل التي يستخدمها الكافرون وأعوانهم في حربهم

(١) المصدر السابق ١/ ٣٧٢.

على الإسلام وأهله، فهم في صراع دائم مع المصلحين الداعين لوحدانية الله من دون نقص أو شوائب، ولكل عصر عناوينه وصوره المتعددة في فتنة الذين آمنوا، وهذه ضريبة طبيعة يدفعها أهل الإيمان في سبيل الله تعالى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

إن الإكراه الذي يمارسه الطغاة والمستكبرون في حق المؤمنين، يؤثر على عوام الناس وضعفاء الإيمان، والذين يجهلون حقيقة الحياة الدنيا.

ومن ذلك ما ذكره الله عن حال بني إسرائيل مع فرعون، فقال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٣-٨٦].

ولقد حث ربنا سبحانه وتعالى المؤمنين على الصبر والجلد في وجه الطغاة والعتاة، وعدم الركون إليهم والاستسلام لمخططاتهم للقضاء على الإسلام وأهله، وأمر المؤمنين الموحدين بالإعداد لهم وقتالهم، يقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

والأمر بقتال المشركين من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين حتى لا تكون هناك محاولة من المشركين والكافرين لصرف الناس عن دين الله بالقوة والقهر والسيف؛ ولذلك لابد من مواجهتهم بالقوة ردًا لاعتدائهم على المسلمين، وخوفًا من صرفهم الناس عن دين الله، حتى إذا انتهوا عن معاندتهم ولزموا حدودهم فقد تم المراد ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

٢. الفتنة في الدين بالإكراه في حق الناس عامة.

إن الإسلام دين الرحمة والسماحة، شرعه يطابق العقل والمنطوق، ينسجم مع الفطر السليمة والنفوس الزاكية، يسمو بالبشرية إلى أرقى المراتب، ويعلو بالإنسان إلى أعلى الدرجات، فيه من الأخلاق ما يسع الناس جميعًا بدون تشدد ولا عسر وعنف ولا غلو ولا تنطع، فهو دين وسطي شامل لجميع نواحي الحياة، يصلح لكل زمان ومكان.

ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى أنزل في كتابه الكريم وفي حق عامة الناس بأنه لا إكراه في الدين: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فهذا دين واضح المعالم والمسالك، لا إكراه فيه ولا إجبار في اعتناقه والإيمان به.

ولما أراد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من حبه لأمته أن يكره بعضًا من الناس على الإيمان، استنكر عليه ربنا سبحانه وتعالى ذلك، وأنزل في ذلك قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وكأن الله سبحانه وتعالى يعلمنا أن الفتنة في الدين وإكراه الناس على الدخول فيه، لا تنشئ المجتمع المسلم الذي يتحمل أعباء الدعوة إلى الله، ويلتزم بالتكاليف الإلهية، ولا تربي الأمة المجاهدة التي تدافع عن دينها وتذود عن حياضه، ولا تزهو الحضارة المنشودة بهم، إذن لابد أن لا يفتتن الناس في الدخول لهذا الدين، بل لهم الحرية في الدخول واعتناق هذا الدين، والتعرف عليه والإيمان بمعتقداته بالبحث والدراسة والتعمق والتأمل.

«فالإيمان إذن متروك للاختيار، لا يكره الرسول صلى الله عليه وسلم عليه أحدًا؛ لأنه لا مجال للإكراه في مشاعر القلب وتوجهات الضمير»(١).

٣. الفتنة في الدين بالإكراه في حق المنافقين.

الفتنة في الدين بالإكراه في حق المنافقين ناتجة عن أمرين، علم الله بحقيقة ما في صدورهم، وخبايا أنفسهم، فكره الله نصرتهم للدين فثبطهم عنها، وكذلك فإنهم يكرهون الحق ويحرضون ضده، ويعملون بكل ما أوتوا من قوة مادية ومعنوية، وكراهية مستديمة لطمس الحق ومحاربته، وسأوضح الحالتين وفق التالي:

الحالة الأولى: كراهة الله عز وجل للمنافقين في الخروج لنصرة الدين:

لما علم الله سبحانه وتعالى من طبيعة وسجية المنافقين، ونواياهم المنطوية على السوء للمسلمين، لم يبعث فيهم الهمة للخروج لنصرة الدين، فكره الله جهادهم مع المجاهدين، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

ولعل السبب في تثبيط الله عز وجل للمنافقين في عدم خروجهم لنصرة الدين، يوضحه ربنا سبحانه وتعالى بقوله تعالى في الآية التي تلي آية الإكراه مباشرة، يقول تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٨٤.

﴿خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

«فالقلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش؛ ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطرابًا وفوضى، ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل، وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين»[(١)].

وهذا يبين ويوضح حجم تلك الفتنة في دين الله عز وجل من قبل هؤلاء المنافقين، الذين ينصبون أنفسهم دعاة للحق والفضيلة وهم في كينونتهم يمارسون التضليل الممنهج، والفساد الكبير في إفسادهم للمجتمع المسلم، ولهذا حذرنا القرآن الكريم في مواطن شتى من المنافقين وبين لنا صفاتهم في القرآن الكريم، وحذر من اتباعهم، وبين عاقبتهم يوم القيامة.

الحالة الثانية: كراهة المنافقين أنفسهم للحق أو نصرته:

وهنا المشهد الثاني للمنافقين حيث إن ذواتهم الخاوية من الإيمان، وطبائعهم الغير سليمة، وقلوبهم المنحرفة، تجعلهم يكرهون الحق وأهله، وحتى الحق -جل وعلا- يكرهونه والعياذ بالله، يقول تعالى:

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨].

«لقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاع الشرور والمفاسد في صفوف المسلمين، من قبل ما حدث منهم في غزوة تبوك، ومن مظاهر ذلك أنهم ساءهم انتصاركم في غزوة بدر، وامتنعوا عن مناصرتكم في غزوة أحد، متبعين في ذلك زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول، ثم واصلوا حربهم لكم سرًا وجهرًا حتى كانت غزوة تبوك التي فضح الله فيها أحوالهم»[(٢)].

وأكد ذلك قوله سبحانه وتعالى عن فرحهم في التخلف عن نصرة الدين والحق، وكراهتهم لبذل النفس والمال في سبيل الله تعالى، واختلقوا أعذارًا وهمية لعدم الخروج للجهاد.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٨١].

ولذلك فقد بين الله سبحانه وتعالى بأن المنافقين لو أنفقوا بالرضا أو الإكراه، لن تقبل منهم لعلم الله المسبق بحقيقتهم، فقال

(١) المصدر السابق ٤/ ٣٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٠، التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٩٦٩.

تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣].

ثانيًا: طلب الرياسة أو الإكراه عليها:

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن طلب الإمارة والرياسة للنفس، لما لها من تبعات ومساءلات في الدنيا والآخرة، فعبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أُعِنت عليها)[(١)].

وعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله: ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها)[(٢)].

وطلب الرئاسة والإمارة مما يختلف حكمه، بحسب نية صاحبه وغايته، فقد يحمد وقد يذم، والله يعلم المفسد من المصلح، وهذا لا يعني أن يزهد المصلحون في الرياسة والسياسة ويتركوها للمفسدين، ولقد بين ذلك ربنا سبحانه وتعالى في السياق القرآني في قصة سيدنا يوسف عليه السلام، حينما طلب سيدنا يوسف عليه السلام من ملك مصر أن يوليه وزارة الاقتصاد، لما علم في نفسه الأمانة والدراية.

يقول تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [يوسف: ٥٥].

١. الإكراه على الرياسة من قبل المفوض.

لربما تتحقق في مسلم ضوابط ومواصفات تؤهله لتولي رياسة أمر من أمور المسلمين في أي موقع كان، ويكره عليها من قبل أولي الأمر أو أهل الشورى والحل والعقد، وهذا المسلم الذي يمتلك شروط الكفاءة التي تؤهله لخدمة المسلمين في موقع رياسته واجبٌ عليه خدمة الناس؛ لأن تولية أهل الصلاح والاختصاص لأمور المسلمين فيه صلاح للدين والدنيا، وهذا مما تراعيه الشريعة الغراء.

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فالله سبحانه وتعالى وحتى يتحقق التوازن والتكامل في الحياة جعل بين الناس اختلاف تنوع، فمن يجيد شيئًا لا تجده عند آخر، وهكذا دورة الحياة تكتمل، يقول الإمام السعدي في تفسيره للآية الكريمة:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب من سأل الإمارة، ٦/ ٢٦١٣، رقم ٦٦٢٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة، ٣/ ١٤٥٧، رقم ١٨٢٥.

«يخلف بعضكم بعضًا، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاكم، لينظر كيف تعملون»[(١)].

فالإنسان خليفة الله في الأرض لعمارتها وتعبيد الإنسان لله تعالى، والمسلم المصلح أحق الناس بهذه الرياسة والخلافة، وأن يكره أهل الصلاح والاختصاص على رياسة أمور المسلمين، فهذا مما فيه الخير للجميع.

٢. إكراه الناس للاستيلاء الدائم على الرياسة والإمارة.

حذر النبي صلى الله عليه وسلم أيما تحذير من طلب الإمارة والرياسة لهوى في النفس أو غرض شخصي، وأنذر من عواقبها الوخيمة، وبين أنها خزيٌ وندامة في الدنيا والآخرة، وهذا لمن طلبها لنفسه أو صدر نفسه لهذا الأمر، فكيف بمن أكره الناس وأجبرهم على تولي مقاليد أمورهم وهم له كارهون، وأكره الناس على انتخابه، أو الرضا به في موقع الرياسة والإمارة، أو حتى طلب تفويض منهم، وجاء بقوة السلاح والنار.

ولقد بين القرآن الكريم هذا الأمر في حالتين:

الحالة الأولى: الظاهرة الفرعونية في إكراه الناس للحفاظ على الرياسة.

أخبر الله عز وجل عن سحرة فرعون أنهم قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

يقول الإمام الألوسي في تفسيره للآية الكريمة: «أي: ويغفر لنا السحر الذي تعملناه في معارضة موسى عليه السلام، بإكراهك وحشرك إيانا من المدائن القاصية خصُوه بالذكر مع اندراجه في خطاياهم إظهارًا لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته، وذكر الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار مع صدوره عنهم بالإكراه، وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة، وقيل: إن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين، اثنان منهم من القبط والباقي من بني إسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر»[(٢)].

فهذا فرعون لما أراد ان يحافظ على سلطانه وعلى طغيانه، أكره أصحاب الاختصاص من السحرة؛ لتعلم ما يسحر أعين الناس ويبطل سحر موسى عليه السلام على حد زعمه، ولكن الله سبحانه وتعالى أبطل كيده، وكان قد هلك فرعون الأصل، إلا أن هذه الظاهرة الفرعونية موجودة في كل عصر وحين، حيث يستخدم الطغاة كل وسائل الإكراه المادي والمعنوي، الترغيبي والترهيبي؛ لإقناع الناس بسحرهم، إلا أن الله سبحانه وتعالى سيبطله.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٨٢.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٢٢١.

الحالة الثانية: استكبار أشراف قوم سيدنا شعيب عليه السلام على الدعوة وإكراههم له.

يقول تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

يقول الشيخ سيد طنطاوي في تفسيره لهذه الآية: «قال الأشراف المستكبرون من قوم شعيب له ردًا على مواعظه لهم: والله لنخرجنك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا بغضًا لكم، ودفعًا لفتنتكم المترتبة على مساكنتنا ومجاورتنا، أو لتعودن وترجعن إلى ملتنا وما نؤمن به من تقاليد ورثناها عن آبائنا ومن المستحيل علينا تركها، فعليك يا شعيب أنت ومن معك أن تختاروا لأنفسكم أحد أمرين: الإخراج من قريتنا أو العودة إلى ملتنا، هكذا قال المترفون المغرورون لشعيب وأتباعه باستعلاء وغلظة وغضب»[1].

وهذا ديدن المستكبرين المجرمين في الأرض ينهبون ثروات الناس، ويسلبون حقوقهم المعنوية والمادية، فيصادرون الحريات ويكممون الأفواه، وإذا بعث الله تعالى مخلصًا مصلحًا ليصلح البلاد والعباد، تنادوا فيما بينهم ليحاربوه أو يخرجوه من أرضهم، وصدق سبحانه وتعالى حينما قال حكاية عن قوم سيدنا لوط عليه السلام: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فيعتمدون سياسة القهر والاستبداد لكل من يتطهر ويتبنى فكرًا مخالفًا لفكرهم المادي الدنيوي، ولكل من يريد أن يوقظ ضمير الناس، ويستنهض همتهم للدين، يبعدونه ويخرجونه ويسجنونه، آملين ألا يسمع له صوتًا، ولا يرى له تابع، وهذا كله إكراه للناس والمصلحين؛ ليحافظوا على سلطانهم ورياستهم، التي سرعان ما ستزول منهم حالما يكتشف الناس حقيقتهم وما سلبوه من شعوبهم، وما تسببوا به من آلام لهذه الامة.

ثالثًا: طلب المال:

قد بين الله تعالى أن المال قوام الحياة، وأن معايش الناس، وقيامهم بالمال، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [النساء: ٥].

ولقد حذر الإسلام من مغبة الانجرار وراء زخرف المال، وأن يصبح هدفًا في حياة الإنسان، وحدد طرق مشروعة لجلب المال والرزق، وبين كيفيات صرف هذه

(١) التفسير الوسيط ١/ ١٦٤٨.

الأموال بما يجعله ذخرًا للمرء في الدنيا والآخرة، ونهى سبحانه وتعالى عن طلب المال من طرق غير مشروعة.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾ [النور: ٣٣].

«لتلتمسوا بإكراهكم إياهن على الزنا عرض الحياة الدنيا، وذلك ما تعرض لهم إليه الحاجة من رياشها وزينتها وأموالها»[(١)]، لقد كان من فعل الجاهلية وصدر الإسلام أن يسترزق بأبضاع الإيماء والجواري، فيطلب المال بالبغاء والزنا والعياذ بالله، وهذه طريق غير مشروع في كسب المال نهى ربنا سبحانه وتعالى عنه، فكان يطلب المال بالإكراه منهن وهذا مما لا شك ينفي عنهن الاختيار في ذلك.

فعقب سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

لقد حدد الإسلام الحنيف ضوابط للمال جلبه وصرفه، وبين القرآن الكريم أن المال ما هو إلا وسيلة في الدنيا لا ترتقي لأن تصبح غايةً وهدفًا، ولذلك خص ربنا سبحانه وتعالى المال في الآخرة بسؤالين من أين اكتسب؟ وفيم أنفق؟

فعن أبي برزة الاسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه فيم فعل؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟)[(٢)].

وبهذا يكون الشرع قد بين للناس وظيفة المال في الدنيا، وأهمية أن يكون هذا المال طيبًا حلالًا، لصلاح الدين والدنيا للناس.

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب في القيامة، ٤/ ٦١٢، رقم ٢٤١٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٢٢٠، رقم ٧٢٩٩.

الإكراه القدري

الإكراه الذي قدره الله تعالى في علمه، وقضاه في حكمه، ومن ذلك إكراه الخلق على الشدائد من العبادات وغيرها، والإكراه بالانقياد له جل جلاله .ستناوله من خلال النقاط التالية:

أولًا: الإكراه على الشدائد:

إن الخلق جميعًا سواء أكانوا في السماوات السبع، أم في الأرضين السبع مأمورون أن يستسلموا لربهم طوعًا وكرهًا.

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

تبين هذه الآية الكريمة على وجه الإنكار والتهديد عطفًا على ما دل عليه السياق من خلال تساؤلٍ، وهو قوله: أتولى هؤلاء الفاسقون، فتسبب عن ذلك أنهم على غير دين الله تعالى، مع أن الحال أن كل من في السماوات والأرض من مخلوقات، تخضع وتنقاد لربها، وتجري تحت مراده وقضائه، ولا تقدر على مغالبة قدرته بوجهٍ من الوجوه.

وكل هذا يكون طوعًا بالإيمان، أو بما وافق أغراضهم، ويكون أيضًا كرهًا بالتسليم لقهره في إسلامهم، وإن كثرت أعوانهم وعز سلطانهم، وتأتي الفاصلة القرآنية؛ لتبين أن كل هذه المخلوقات سوف ترجع إلى ربها بالحشر، ومن ثم الانتقال إلى الثواب أو العقاب[(١)]، ويجوز أن يكون الإكراه هنا بمعنى كل ما فيه من مشقة، كمن أسلم مخافة القتل، فيكون إسلامه استسلامًا منه[(٢)].

وقد تناولت آية أخرى نفس المقصد من بيان أن جميع المخلوقات في السماوات والأرض تسجد طوعًا وكرهًا، وظلالهم بالغدو والآصال.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

فإن المؤمن المخلص يسجد لله طائعًا، وأما الكافر المنافق فيسجد لله كرهًا بقدر الله تعالى؛ بل تسجد ظلال جميع المخلوقات بدوران تلك الظلال، وهذا يكون أول النهار وآخره[(٣)].

ثانيًا: الانقياد لله تعالى:

إن الله تعالى قد بين في كتابه العزيز أن المخلوقات تأتي إلى ربها، وتنقاد لأمره، طوعًا أو كرهًا، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

---

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٤٧٢.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي، ٢/ ٢٧٦.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٢.

وإن هذه الآية جاءت في سياق الخطاب القرآني للنبي صلى الله عليه وسلم حتى يقول الكفار: أئنكم لتكفرون بالله تعالى، الذي قدر وجود الأرض في يومين، وتجعلون له الند والشريك، وهو منزه عن ذلك.

فالله تعالى أسماؤه رب العالمين، رب كل من السماوات والأرضين، الذي جعل فوق الأرض الجبال الرواسي الشامخات، وبارك فيها، وبين كميتها وأقدارها، التي تتناسب مع سكانها وأبنائها، وكل ذلك حصل في أربعة أيام استوت استواءً بلا نقصان ولا زيادة، يومان في خلق الأرض، ويومان في جعل الرواسي، وتقدير الأقوات، فتلك أربعة كاملة، ثم يومان آخران للسماوات السبع، فتلك ستة أيام، كما نطقت الآيات.

وتبين هذه الآية التي هي شاهد الكلام أن الله تعالى استوى إلى السماء وقصد إليها بعد خلقها وخلق الأرض، وحال السماء سعة الاستواء إليها من الله تعالى كانت دخانًا بما لا يعلم كنهه وحقيقته إلا الله تعالى، فقال عند ذلك رب العالمين للسماء والأرض: انقادا لأمري مختارتين أو مجبرتين على وجهٍ معين، وفي وقت مقدر، فقالتا: أتينا مذعنين لك، ليس لنا إرادة تخالف إرادتك[1].

وهذا تمثيل لسرعة الانقياد، وتصوير لكون وجودهما كما هما عليه جاريًا على مقتضى الحكمة البالغة، والإرادة السامية[2].

---

(١) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٤٧٧.

(٢) انظر: التفسير الواضح، الحجازي ٣/ ٣٢٩.

أثر الإكراه في الأحكام الشرعية

إن مصطلح الإكراه قد أخذ مساحةً لا بأس بها في الأحكام الشرعية، التي وردت في الخطاب القرآني، ومن ثم فإن الحديث الآتي عن أثر ذلك المصطلح في هذه الأحكام، من خلال دراسة أمثلة من هذه الآثار، وذلك فيما يأتي:

أولًا: الأثر الشرعي المترتب على الإكراه في الإيمان:

إن الإسلام دينٌ يحترم العقل، وينسجم مع الفطرة السليمة؛ ولذلك فهو يرفض المنهج الإكراهي والإجباري في اعتناقه، وفي مسألة الإيمان والدين لا يعتبر الإكراه لا شرعًا ولا عرفًا بأدلة واضحة من كتابه سبحانه وتعالى، بل إن الله سبحانه وتعالى استنكر على نبيه صلى الله عليه وسلم إصراره على إكراه المصرين على الكفر والعناد للدخول في الإيمان، فقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلا يصح كفر المكره بغير حق، ولا إيمان المكره بغير حق؛ كالذمي الموفي بذمته، كما قال تعالى فيه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

بخلاف المكره بحق، كالمقاتلين من أهل الحرب، حتى يسلموا إن كان قتالهم إلى الإسلام، أو إعطاء الجزية، إن كان القتال على أحدهما»[(١)].

وقال ابن قدامة: «وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن، فأسلم: لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوع»[(٢)].

وأختم هذه المسألة بما قاله الدكتور محمد الغزالي: «الإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل، كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن؟ فالحرية النفسية والعقلية أساس المسئولية، والإسلام يقدر هذه الحقيقة ويحترمها، وهو يبنى صرح الأخلاق»[(٣)].

ثانيًا: الأثر الشرعي المترتب على الإكراه في البيوع:

إن شرط التراضي بين المتعاقدين في البيوع يكتسب أهمية عظيمة، وعليه فقد ذهب الشافعية والحنابلة والظاهرية[(٤)]، إلى إبطال بيع المكره؛ لانعدام الرضا وهو الشرط الأساسي لأي تصرف، واستدلوا بذلك من القرآن الكريم بقوله تعالى:

---

(١) الاستقامة ٢/ ٣٢٠.
(٢) المغني ١٠/ ٩٦.
(٣) خلق المسلم ١/ ١٩.
(٤) انظر: المحلى، ابن حزم ٨/ ٣٣١، نهاية المحتاج، الرملي ٣/ ٣٨٧، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ١٢٥.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء: ٢٩].

ومن السنة النبوية الشريفة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما البيع عن تراض)[١].

وهذا يكفينا ويعطينا دلالة واضحة على أن الإكراه في البيوع غير جائز شرعًا وعرفًا، ولا تنبني عليه أية أحكام في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: الأثر الشرعي المترتب على الإكراه في النكاح:

أما بخصوص الأثر الشرعي المترتب على الإكراه في النكاح، ففيه حالتان:

الحالة الأولى: مثلما وردت في سياق الآية الكريمة السابقة في سورة النساء، من فعل الناس في العصر الجاهلي وصدر عصر الإسلام، من التحفظ على الزوجة المتوفى عنها زوجها، للزواج منها إذا كان لديها ميراث أو كانت جميلة أو حجبها عن الزواج، وهذا مما نهى القرآن الكريم عنه.

قال الشافعي رحمه الله: «فأباح عشرتهن على الكراهية بالمعروف وأخبر أن الله عز وجل قد يجعل في الكره خيرًا كثيرًا»[٢].

الحالة الثانية: أن يكره ولي الأمر المكره على الزواج، وفي هذه الحالة ذهب جمهور العلماء ومنهم المالكية والشافعية والحنابلة إلى أن الإكراه يؤثر في التصرفات الشرعية التي لا تحتمل الفسخ كالنكاح، فإذا أجري عقد النكاح تحت الإكراه فإنه يفسده؛ إذ الرضا من العاقدين شرط صحة العقد، فإذا فقد الرضا فقد فسد العقد[٣].

رابعًا: الآثار الشرعية المترتبة على الإكراه في ارتكاب كبيرة:

١. الأثر الشرعي المترتب على المكره على كبيرة السحر.

إن السحر والسحرة شديدو الخطر، وإذا كان السحر جريمة وكبيرة يترتب عليها آثار شرعية في الدنيا والآخرة تصل لحد خروج مرتكب هذه الكبيرة من ملة الإسلام، والسحر من أعظم الذنوب جرمًا وأشدها حرمة، وقد ثنى به النبي صلى الله عليه وسلم بعد الشرك بالله تعالى، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات). قيل يا رسول الله وما هن قال: (الشرك بالله، والسحر،

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الإجارات، باب بيع الخيار، ٢/ ٧٣٧، رقم٢١٨٥. وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٥/ ١٢٥، رقم ١٢٨٣.

(٢) الأم ٥/ ١١٧.

(٣) انظر: مغني المحتاج، لشربيني ٣/ ٢٨٩، المغني، ابن قدامة ٦/ ٤٧٣، الشرح الصغير، الدردير ٢/ ٥٤٦.

وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[(١)].

وقد حكم الله تعالى بأن الساحر ليس له في الآخرة من نصيب فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فإن القرآن الكريم والسنة النبوية قد بينا خطورة مرتكب كبيرة السحر وأنه لا نصيب له في الآخرة، فكيف بمن يكره الناس على السحر؛ لصد الناس عن دينهم وسلخهم عن عقيدتهم؛ فإن العقوبة ستكون بالتأكيد أشد وأقسى.

٢. الأثر الشرعي المترتب على المكره على كبيرة السحر.

إذا بلغ المكره على السحر الحد الذي يعد فيه مكرهًا بحيث إنه لو لم ينفذه السحر لقتله المكره، فإنه في ذلك على حالتين:

الحالة الأولى: إذا كان السحر المكره عليه يعود بالضر على أناس في تلبيس دينهم عليهم، أو تفرقة زوجين، أو الإضرار بمسلمين، فإنه لا يجوز للمكره فعل هذا السحر مطلقًا ولو أدى لهلاكه، والقاعدة الفقهية المعروفة تقول: يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام، الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.

الحالة الثانية: إذا كان المكره عليه من السحر يعود بالضر على نفس المكره، فإنه يعمل بقاعدة: يختار أهون الشرين، والقاعدة الفقهية: الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.

ولا يجب أن نغفل أن الإكراه يسقط التكليف عن المكره إذا بلغ معه الحد الذي يعد فيه مكرهًا.

٣. الأثر الشرعي المترتب على ناتج كبيرة السحر بالإكراه.

إذا وقع السحر على أحد من المسلمين فإنه لا تثريب عليه ولا يؤاخذ، ولا تقع أفعاله ولا يؤاخذ عليها كالطلاق ونحوه، ويجب أن يسارع إلى علاج نفسه من خلال القرآن الكريم والرقية الشرعية الصحيحة الثابتة في الكتاب والسنة، بل إن المسلم الذي يقع عليه السحر ويصبر ويحتسب له أجر كبير عند ربه.

فعن عطاء بن أبي رباح قال: «قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي. قال: (إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك). فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ١/ ٦٤، رقم ٢٧٢.

أتكشف؛ فدعا لها»[1].

خامسًا: الآثار الشرعية المترتبة على الإكراه على ارتكاب كبيرة الزنا:

١. الأثر الشرعي المترتب على المكره على كبيرة الزنا.

يقول الشيخ سيد طنطاوي في تعقيبه على الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: ٣٣].

«فمغفرة الله تعالى ورحمته إنما هي للمكرهات على الزنا، لا للمكرهين لهن على ذلك، وقال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: ٣٣].

قيل: غفور لهن: وقيل: غفور لهم. وقيل: غفور لهن ولهم.

والأظهر: أن المعنى لهن؛ لأن المكره لا يؤاخذ بما يكره عليه، بل يغفره الله له، لعذره بالإكراه. فالموعود بالمغفرة والرحمة، هو المعذور بالإكراه دون المكره؛ لأنه غير معذور بفعله القبيح»[2].

٢. الأثر الشرعي المترتب على المكره على كبيرة الزنا.

بنص الآية الكريمة فإن من يكره إيماءه على كبيرة الزنا، ويبلغن الحد الذي يعتبر معه الإنسان مكرهًا، فإنه بفضل من الله ورحمته عليهن أن الله ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، يقول سبحانه: ﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: ٣٣].

٣.الأثر الشرعي المترتب على ناتج كبيرة الزنا بالإكراه.

أخرج الإمام الترمذي في سننه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أيما رجل عاهر بحرة أو أمة فالولد ولد زنا لا يرث ولا يورث)[3].

سادسًا: الآثار الشرعية المترتبة على الكفر بعد الإيمان:

مما لا شك فيه أن أفعال المكلفين يترتب عليها آثار سواءً في الدنيا أو في الآخرة، وفي مسألة الإكراه على الكفر بعد الإيمان هل يؤاخذ عليها الإنسان وينبني عليها أحكام على المكره في الدنيا والآخرة؟ يجيب الإمام العز بن عبد السلام بقوله: «وأما الكفر القولي والفعلي فيجوزان بالإكراه؛ لا لكونهما كفرًا؛ بل لتحصيل مصلحة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب فيمن يصرع من الريح، ٥/ ٢١٤٠، رقم ٥٦٥٢.

(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ٦/ ٣٠٨٠.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفرائض، باب إبطال ميراث ولد الزنا٤/ ٤٢٨، رقم ٢١١٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الفرائض، باب في ادعاء الولد، ٢/ ٩١٧، رقم ٢٧٤٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٢٨، رقم ٢٧٢٠.

حفظ الحياة؛ فهو مفسدة جازت لتحصيل مصلحة؛ ثم يجبر المكره ذلك بإيمانه فيما بقي من زمانه؛ ويثاب على كراهته الكفر بلسانه؛ لأنه مطيع بذلك، وكذلك يثاب على كراهته؛ لترك جميع الواجبات بالإكراه»[(١)].

١. الآثار المترتبة على الكفر باللسان بعد الإيمان في الدنيا.

يقول جلا وعلا: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾[النحل: ١٠٦].

قال الإمام الشافعي بعد ذكر هذه الآية: «وللكفر أحكامٌ. يعني: إذا تلفظ بالكفر، فللكفر أحكامٌ إذا كفر وهو مسلمٌ يحكم بفراق الزوجة إن كانت مسلمة هذا يترتب على الكفر، وأن يقتل الكافر لقوله صلى الله عليه وسلم: (من بدل دينه فاقتلوه)[(٢)]، ويغنم ماله، فلما وضع الله تعالى عنه ذلك سقطت أحكام الإكراه عن القول كله. يعني: لما تكلم بكلمة الكفر من جهة الإكراه سقطت عنه الأحكام المترتبة على الكفر وهو فراق الزوجة وقتله؛ لأنه كفر، وكذلك غنم ماله»[(٣)].

٢. الآثار المترتبة على الكفر باللسان بعد الإيمان في الدار الآخرة.

قياسًا على سقوط الأحكام المترتبة عن الإكراه على الكفر في الدنيا، فإنه يسقط في الآخرة فلا يعاقب الإنسان عليها، وفي الجملة فإن الإكراه مسقطٌ للتكليف، بل زاده العز بن عبد السلام بقوله: «ويثاب على كراهته الكفر بلسانه؛ لأنه مطيع بذلك، وكذلك يثاب على كراهته لترك جميع الواجبات بالإكراه»[(٤)].

موضوعات ذات صلة:

الاضطرار، الكره

(١) القواعد الكبرى ٢/ ٢٦٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، ٤/ ٦١، رقم ٣٠١٧.
(٣) الأم ٥/ ١١٧.
(٤) القواعد الكبرى ٢/ ٢٦٩.





عناصر الموضوع

مفهوم الاكل	١٧٦
الأكل في الاستعمال القرآني	١٧٧
الالفاظ ذات الصلة	١٧٩
أقسام المأكولات من حيث الحل والحرمة	١٨٠
أنواع المأكولات من حيث الطيب والخبث	١٨٧
تصنيف المأكولات حسب طبيعتها	١٩٠
المخلوقات والأكل	٢٠١
آداب الاكل	٢١٥
أثر الأكل على العبد	٢١٧



مفهوم الأكل

أولًا: المعنى اللغوي:

جاء في لسان العرب: «أكلت الطعام أكلًا ومأكلًا، وأكل الطعام يأكله أكلًا؛ فهو آكل، والجمع أكلة، والإكلة هيئة الأكل، والإكلة الحال التي يأكل عليها متكئًا أو قاعدًا مثل الجلسة والركبة، يقال: إنه لحسن الإكلة، والأكلة المرة الواحدة حتى يشبع والأكلة اسم للقمة، وقال اللحياني: الأكلة والأكلة كاللقمة واللقمة، يعنى بها جميعًا المأكول»[(١)].

والأكل بالضم والسكون، هو ما أكل من الطعام ونحوه، والأكال بالفتح ثم الضم هو ما يؤكل أيضًا[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه الجرجاني بأنه: «إيصال ما يتأتى فيه المضغ إلى الجوف، ممضوغًا كان أو غيره، فلا يكون اللبن والسويق مأكولًا»[(٣)].

وعرفه الكرماني بأنه: «بلع الطعام بعد المضغ»، ثم قال: «فبلع الحصاة ليس بأكل حقيقة»[(٤)].

ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٩.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٢١٦.
(٣) التعريفات ص٥٠.
(٤) التوقيف، المناوي ص٨٥.



الأكل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أكل) في القرآن (١٠٩) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾[طه:١٢١]
الفعل المضارع	٥٦	﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[الحجرات:١٢]
فعل الأمر	٣٢	﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾[سبأ:١٥]
المصدر	٤	﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾[الفجر:١٩]
اسم الفاعل	٣	﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾[الصافات:٦٦]
اسم المفعول	١	﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾[الفيل:٥]
صيغة المبالغة	١	﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾[المائدة:٤٢]
اسم جامد	٧	﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[إبراهيم:٢٥]

وجاء الأكل في الاستعمال القرآني على خمسة وجوه[٢]:

الأول: بمعناه المعروف وهو تناول الأكل: ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[البقرة:٣٥]. وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾[يوسف:١٣]. يعني: يفترسه فيأكله.

الثاني: الشيء المأكول: ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾[الكهف:٣٣]. يعني: ما تثمره فيؤكل.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٥،٣٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٦٦-٦٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١١١-١١٢، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ٩٨-١٠٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٨١-٨٢.

الثالث: أخذ الأموال وسلبها بالباطل: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة:١٨٨].

الرابع: الإحراق: ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾[آل عمران:١٨٣]. يعني: تحرقه النار.

الخامس: الفساد: ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾[الفيل:٥]. يعني: مأكول أو متآكل فاسد.

الألفاظ ذات الصلة

١ الطعام:

الطعام لغةً:

الطعام اسمٌ جامعٌ لكل ما يؤكل، ويقال: طعم يطعم طعمًا؛ فهو طاعمٌ، إذا أكل، أو ذاق، وإذا استعمل هذا الفعل بمعنى الذواق جاز فيما يؤكل وفيما يشرب. وروي عن ابن عباس أنه قال في زمزم: (إنها طعام طعمٍ، وشفاء سقمٍ)[(١)]. أي: يشبع الإنسان إذا شرب ماءها، كما يشبع من الطعام، ويطعم: بمعنى يشبع، ويطلقُ الطعام عند الحجازيين على البر خاصة[(٢)].

الطعام اصطلاحًا:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي الأول.

الصلة بين الأكل والطعام:

أن الطعام هو ما كل يؤكل؛ فالصلة بينهما قوية.

٢ الشراب:

الشراب لغة:

الشَّرْب مصدر شَربْتُ أَشْرَبُ شَرْبًا وشُرْبًا، يقال: شرب الماء وغيره شَرْبًا وشُرْبًا وشِرْبًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ۝ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤- ٥٥].

والشَّرْبُ: المصدر، والشِّرْبُ: الاسم، والشِّرْبُ: الماء، والجمع أشرابٌ.

الشراب اصطلاحًا:

ما شرب من أي نوعٍ كان، وعلى أي حال كان، وقال أبو حنيفة: الشراب والشروب والشريب واحد[(٣)]، والشَّربة: في المفهوم الطبي قدر من السائل يشرب مرة واحدة، أو مرات متتالية[(٤)].

الصلة بين الأكل والشراب:

كلاهما من الأطعمة، لكن غلب استعمال الشراب على السوائل، والأكل على ما يمضغ من الطعام.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله، رقم ٢٤٧٣.

(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٦٣.

(٣) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤٧٨.

(٤) معجم المصطلحات الطبية ٢/ ٦٩.

أقسام المأكولات من حيث الحل والحرمة

الأصل في المأكولات على جهة الإطلاق الحل إذا كانت طيبة، والحرمة إذا كانت خبيثة، فالطيبات حلال بنص قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة:٥].

والمراد بالسؤال في الآية السؤال عما تستطيبه النفس وتشتهيه، ولا يجوز أن يراد الحلال؛ لأنهم سألوه عما يحل لهم فكيف يقول أحل لكم الحلال، والخبائث قال عنها المولى عز وجل: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

فجعل الطيب صفةً في المباح عامةً تميزه عن المحرم، وجعل الخبيث صفةً في المحرم تميزه عن المباح[(١)].

قال الماوردي ما ملخصه: اعلم أن المأكول ضربان: حيوان ونبات، فأما النبات فأخر الكلام عليه، ثم قال: وأما الحيوان فضربان: بري وبحري، فأما البحري فقد مضى الكلام، وأما البري فضربان: دواب وطائر، وهذا الباب يشتمل على ما حل منها وحرم، وهو على ثلاثة أضرب:

أحدها: ما ورد النص بتحليله في كتاب أو سنة، فهو حلال.

(١) كشاف القناع، البهوتي ٦/ ١٨٩.

والضرب الثاني: ما ورد النص بتحريمه في كتاب أو سنة فهو حرام.

والضرب الثالث: ما كان غفلًا لم يرد فيه نص بتحليل ولا تحريم، فقد جعل الله تعالى له أصلًا يعرف به حلاله وحرامه، في آيتين من كتابه وسنة عن رسوله[(٢)].

أولًا: المأكولات المباحة:

المأكولات المباحة تشمل أصنافًا شتى ورد بعضها في كتاب الله تعالى بصيغة الإجمال، وبعضها بصيغة التفصيل، وبينت السنة النبوية هذه الأصناف، وجملة الأصناف المباحة من الأطعمة هي:

أولًا: كل طعام طيب طاهر في حال الاختيار، لا مضرة منه، سواء كان من الحبوب أو الفواكه أو الخضروات أو غير ذلك، ويشمل ذلك الأطعمة الجامدة والمائعة[(٣)].

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾[المائدة:٤].

قال الرازي: «الطيب في اللغة هو المستلذ، والحلال المأذون فيه يسمى أيضًا طيبًا تشبيهًا بما هو مستلذ، لأنهما اجتمعا في انتفاء المضرة»[(٤)].

(٢) الحاوي الكبير، ١٥/ ١٣٦ بتصرف يسير.
(٣) انظر: شرح الخرشي على مختصر خليل ٣/ ٢٦، كشاف القناع، البهوتي ٦/ ١٨٩.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ١٦٠٨.

ثانيًا: كل حيوان بحري سواء صيد حيًّا، أو خرج ميتًا، وسواء صاده مسلم أم غير مسلم.

ثالثًا: كل طير باستثناء ما كان ذا مخلب، خلافًا لمن أباح أكل الطير ذي المخلب من فقهاء المالكية وغيرهم[(١)].

رابعًا: العصائر والمشروبات المتخذة من نباتات وفواكه مختلفة ما لم تصل لدرجة الإسكار أو إذا أمن سكرها.

خامسًا: يجوز أكل الأطعمة التي فيها الدود والسوس؛ كالفواكه والقثاء والبطيخ والحبوب والخل إذا لم تقذره نفسه وطابت به؛ لأن التحرز من ذلك يشق على الناس[(٢)].

ثانيًا: المأكولات المحرمة:

المأكولات المحرمة بنص القرآن الكريم أوردها في مسألتين على النحو التالي:

المسألة الأولى: مأكولات محرمة بنصوص قرآنية صريحة:

١. الميتة.

الميتة من الحيوان هي ما مات بغير تذكية[(٣)]، أو الحيوان الذي مات حتف أنفه أو على هيئة غير مشروعة[(٤)].

وقد جاء تحريم الميتة بالنص الصريح في القرآن الكريم في أربعة مواضع هي:

أولًا: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣].

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة:٣].

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥].

رابعًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل: ١١٥].

«والميتة من الأطعمة الخبيثة ليس لذاتها بل لعارض الموت الذي طرأ عليها ولم

---

(١) شرح الخرشي على مختصر خليل ٣/ ٢٦.

(٢) المغني، ابن قدامة ١١/ ٨٣.

(٣) الذكاة: إنهار الدم وفري الأوداج في المذبوح، والنحر في المنحور والعقر في غير المقدور عليه، مقرونًا ذلك بنية القصد إليه، وذكر الله تعالى عليه، وهي تشمل أربعة أنواع: الذبح، والنحر، والعقر، وما يموت به مما ليس له نفس سائلة.
انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٥٤١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٥٣.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٩٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٩١.

تتم تذكيتها بالطريقة الشرعية، والحكمة من تحريمها: أنها تكون في الغالب ضارة؛ لأنها لا بد أن تكون ماتت بمرض أو ضعف أو نسمة خفية مما يسمى الآن بالميكروب ... يولد فيها سمومًا، وقد يعيش ميكروب المرض في جثة الميت زمنًا؛ ولأنها مما تعافها الطباع السليمة وتستقذره وتعده خبثًا، وكذلك ما فيها من احتباس الدم والرطوبات التي لا تزول منها إلا بالذكاة الشرعية»[(١)].

٢. الدم المسفوح.

الدم المسفوح هو: الدم السائل من الحيوان، ولا جدال في نجاسته وحرمة استخدامه.

قال القرطبي: اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به[(٢)].

وقد جاء تحريم الدم المسفوح في القرآن في أربعة مواضع، ثلاث منها بلفظ (الدم) وهي في سورة البقرة (١٧٣) والمائدة (٣) والنحل (١١٥)، وقد سبق ذكر الآيات في الميتة.

والرابع بلفظ الدم المسفوح في ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

والمعروف كما ذكره أحد المعاصرين «أن الدم يجري في البدن ليغذيه، ثم تصب فيه الخلايا التالفة والسموم والجراثيم، فيحملها في جريانه، ويمر بها على الكليتين لتصفيته هناك منها، وإخراجها بشكل السائل المعروف بالبول، الذي هو من أخبث الخبائث، واجتمعت على إثبات خبثه بدهيات العادات، ومقررات الشرائع، وكرهته واستخبثته الفطر السليمة، لما جعل الله تعالى فيه من الروائح المنفرة لكي يتجنبه من يعلم ضرره ومن لا يعلمه.

فالدم الذي يحتوي على هذا البول حرمته الشريعة، لكمالها، ولم تنص على تحريم البول؛ لأن البول يتجنب بالفطرة، أما الدم فلا تستدعي الفطرة تجنبه، ولذلك جعلت الشريعة إخراجه من الحيوانات بالتذكية شرطًا لحل لحمها، تقليلًا للأضرار، وإصلاحًا للأبدان، وحملًا للمؤمنين على أكمل مناهج الحياة»[(٣)].

٣. لحم الخنزير.

ورد النص بتحريم الخنزير صراحة في أربعة مواضع من سور القرآن، أولها في البقرة: ١٧٣، والثاني في المائدة: ٣، والثالث في الأنعام: ١٤٥، والرابع في النحل: ١١٥، ونصوص الآيات سبق ذكر

(١) حكم تناول الميتة، صالح الفوزان، مجلة البحوث الإسلامية ٩/ ٢٠٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٢١.

(٣) الذبائح والطرق الشرعية في إنجاز الذكاة، محمد سليمان الأشقر، مجلة مجمع الفقه١٠/ ٢٦٤.

ها في الميتة.

والخنزير أكبر مستودع للجراثيم الضارة، ويأكل غالبًا كل شيء، ويتميز بالخمول والكسل، ولا يحب العيش في الأماكن النظيفة، وهو محرم الأكل في الإسلام واليهودية والنصرانية، بل وفي البوذية والهندوسية، والزرادشتية[(١)].

قال القنوجي: «كل شيء في الخنزير حرام، وتخصيص اللحم بالذكر؛ لأنه يقصد في العادة، والخنزير مسخ بصورته قوم، ولم يزل نوح ومن بعده من الأنبياء يحرمون الخنزير ويأمرون بالتبعد عنه إلى أن يتنزل عيسى فيقتله، ويشبه أن الخنزير كان يأكله قوم فنطقت الشرائع بالنهي عنه وهجر أمره أشد ما يكون»[(٢)].

ويقول أحد الأطباء الصينيين: «إن لحم الخنزير له رائحة غير مقبولة، ويعطي عند طبخه مرقًا مركزًا جدًا وله تأثيرات سامة على جسم الإنسان»[(٣)].

٤. كل ما ذبح لغير الله عز وجل.

ما أهل لغير الله به يشمل أصنافًا من الذبائح:

❁ منها: المذبوح المتقرب به لغير الله تعالى، كالمذبوح لعيسى عليه السلام، أو للعزير، أو ما يذبحه الكفار لآلهتهم.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۝٣﴾ [المائدة: ٣].

❁ ومنها: المذبوح على النصب، وهي الحجارة التي كان يعظمها أهل الجاهلية ويذبحون عليها، وقال جل شأنه: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة:٣].

روي عن مجاهد قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ قال: «كان حول الكعبة حجارة كان يذبح عليها أهل الجاهلية، ويبدلونها إذا شاؤوا بحجر هو أحب إليهم منها»[(٤)].

وقال ابن عطية: «ما ذبح على النصب جزء مما أهل به لغير الله، ولكن خص بالذكر بعد جنسه لشهرة الأمر وتشرف الموضع وتعظيم النفوس له»[(٥)].

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: **(أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح، قبل أن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي فقدمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم سفرةٌ، فأبى أن يأكل منها ثم**

(١) انظر: حكمة وأسباب تحريم لحم الخنزير في العلم والدين، سليمان قوش ص١٩-٢٢.
(٢) الروضة الندية، القنوجي ٢/ ٢٦٢.
(٣) انظر: حكمة وأسباب تحريم لحم الخنزير في العلم والدين، سليمان قوش ص٢١، والطبيب هو لي شن تشن ويعد من أشهر أطباء الصين له كتاب في الطب حوالي ٥٠ مجلدًا اسمه المواد الطبية.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٩/ ٥٠٩.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٧٧.

قال زيدٌ: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وأن زيد بن عمرٍو كان يعيب على قريشٍ ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله إنكارًا لذلك وإعظامًا له)[1].

٥. الحيوانات التي ماتت حتف أنفها ولم يتمكن من تذكيتها.

وهي الوارد ذكرها في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة:٣].

وبيانها كالتالي:

١. المنخنقة: وهي التي تموت بالخنق، إما قصدًا، وإما اتفاقًا، بأن تتخبل في وثاقها فتموت به.

٢. الموقوذة: وهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد كالخشبة حتى توقذ فتموت، كما قال ابن عباس وغيره، وقال قتادة: «كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي، حتى إذا ماتت أكلوها»[2].

٣. المتردية: وهي التي تقع من شاهق أو موضع عال كالجبل ونحوه فتموت بذلك، أو التي تتردى في بئر، والتفسيران مرويان عن ابن عباس وقتادة[3].

٤. النطيحة: وهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها فهي حرام، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم، ولو من مذبحها.

٥. ما أكل السبع: وهي التي عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام، وإن كان قد سأل منها الدم ولو من مذبحها[4].

ويستفاد من الآية الكريمة أن الحيوان يحل أكله إذا أزهقت روحه بالذكاة الشرعية، ولا يحل بما سوى ذلك؛ كالخنق، والوقذ، والتردي، والنطح، وأكل السبع، حتى لو سال دمه نتيجة ذلك، مما يفيد إفادة واضحة أن الحيوان لا يحل بمجرد سيلان الدم، ولو من مذابحه، وإنما يجب أن يسيل الدم بطريق شرعه الله تعالى للتذكية.

المسألة الثانية: مأكولات محرمة بنصوص قرآنية عامة أو نصوص من السنة:

هناك طائفة من الأطعمة استفيد تحريمها من نصوص عامة في القرآن الكريم، ونصوص صريحة في السنة النبوية، وغيرها من الأدلة هذا بيانها:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب ما ذبح على النصب والأصنام، رقم ٥٤٩٩.
(٢) عمدة القاري، العيني ٢١/ ١٣٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

١. كل ذي ناب من السباع.

كل ذي ناب هو الحيوان الذي يفترس بأنيابه ويعدو كالأسد والذئب والكلب والفهد وغير ذلك، وأكثر الفقهاء على أنه لا يؤكل لحمه، فقد ذهب إلى ذلك أبو حنيفة ومالك والشافعي[(١)].

وقد استدلوا على ذلك بما أخرجه الشيخان عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل كل ذي نابٍ من السباع[(٢)].

كما استدلوا بالمعقول بأن هذه الحيوانات تأكل الجيف، ولا تستطيبها العرب[(٣)].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أسباب التحريم فقال: «وأسباب التحريم: إما القوة السبعية التي تكون في نفس البهيمة فأكلها يورث نبات أبداننا منها فتصير أخلاق الناس أخلاق السباع، أو لما الله أعلم به، وإما خبث مطعمها كما يأكل الجيف من الطير، أو لأنها في نفسها مستخبثة كالحشرات، فقد رأينا طيب المطعم يؤثر في الحل وخبثه يؤثر في الحرمة كما جاءت به السنة في لحوم الجلالة ولبنها وبيضها؛ فإنه حرم الطيب لاغتذائه بالخبيث، وكذلك النبات المسقي بالماء النجس والمسمد بالسرقين عند من يقول به»[(٤)].

هذا وقد رويت إباحة أكله عن السيدة عائشة، وعامر الشعبي، وسعيد بن جبير، وتبعهم على ذلك بعض المالكية[(٥)]، واستدلوا على ذلك بعموم قول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

٢. كل ذي مخلب من الطير.

للفقهاء قولان في أكل الطيور ذات المخلب:

القول الأول: أنه يحرم أكلها، وهو مذهب الحنفية والشافعية وأحمد وأكثر أهل العلم[(٦)].

واستدلوا على ذلك من السنة بما روي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن كل ذي نابٍ من السباع وعن كل ذي مخلبٍ من

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٢١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب أكل كل ذي ناب من السباع، رقم٥٥٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح، باب أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، رقم ٥١٠٣، عن أبي ثعلبة الخشني.
(٣) المجموع، النووي ٩/ ١٢.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢١/ ٥٨٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٢١.
(٦) انظر: تحفة الفقهاء، السمرقندي ٣/ ٦٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٢١، الحاوي الكبير، الماوردي ١٥/ ١٤٥، المغني، ابن قدامة ١١/ ٦٦، كشاف القناع، البهوتي ٦/ ١٩٠.

الطير)[1].

كما استدلوا بالمعقول بأن طبيعة هذه الأشياء مذمومة شرعًا؛ فيخشى أن يتولد من لحمها شيء من طباعها فيحرم إكرامًا لبني آدم كما أنه يحل ما أحل إكرامًا له[2].

القول الثاني: أنه يباح أكلها، وهو قول مالك والليث والأوزاعي[3].

وذلك استدلالًا بعموم قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ومن حجة الإمام مالك رحمه الله في ذلك أنه لم يجد أحدًا من أهل العلم يكره أكل سباع الطير، وأنكر الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم[4].

والقول الأول أرجح، لموافقته لنص الحديث الصحيح، ولأن هذه الآية مكية، وكل محرم حرمه الرسول صلى الله عليه وسلم أو جاء في الكتاب مضموم إليها، فهو زيادة حكم من الله تعالى على لسان نبيه عليه السلام.

قال القرطبي: «إنه ليس يمتنع أن تقع الزيادة بعد قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

بما يرد من الدليل فيها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث)[5].

فذكر الكفر والزنا والقتل، ثم قال علماؤنا: إن أسباب القتل عشرة بما ورد من الأدلة، إذ النبي صلى الله عليه وسلم إنما يخبر بما وصل إليه من العلم عن الباري تعالى، وهو يمحو ما يشاء ويثبت وينسخ ويقدم»[6].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح، باب أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، رقم ٥١٠٥.

(٢) حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٠٤.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١١٨.

(٤) المصدر السابق.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قوله تعالى: (أن النفس بالنفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، رقم١٦٧٦، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ١١٦.



أنواع المأكولات من حيث الطيب والخبث

أولًا: المأكولات الطيبة:

ذكر الله تعالى لفظ الطيب بمشتقاته المختلفة في أكثر من عشرين موضعًا في القرآن الكريم، أكثره مرتبط بالرزق من الطعام والشراب ونحوه، وبين أن ذلك من نعم الله تعالى وفضله على الناس من المؤمنين وغيرهم.

وقد أخبر الله تبارك وتعالى أن الطعام المباح في الطعام الطيب.

قال تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة:٤].

وقد أمر الله عز وجل بالأكل من الطيبات، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨].

ونهى عن تحريم ما أحل من الطيبات فقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٧ -٨٨].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢].

وقد امتن الله تعالى على بني آدم بأن زرقهم الطيبات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء:٧٠].

وامتن الله عز وجل على بني إسرائيل بإنزال الطيبات عليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية: ١٦].

وقد وصف الله عز وجل الغنائم التي يحوز المؤمنون في المعارك بأنها من الطيبات.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال:٢٦].

ثانيًا: المأكولات الخبيثة:

والخبائث أنواع كثيرة، يحرم على المرء تناولها في حال الاختيار، سواء ظهرت لنا حكمة التحريم أو لم تظهر.

قال ابن القيم رحمه الله: وقد حرم الله سبحانه وتعالى علينا تناول الخبائث، والخبث الموجب للتحريم قد يظهر لنا

وقد يخفى، فما كان ظاهرًا لم ينصب عليه الشارع علامة غير وصفه، وما كان خفيًا نصب عليه علامة تدل على خبثه، فعلى سبيل المثال احتقان الدم في الميتة سبب ظاهر، وأما ذبيحة المجوسي والمرتد وتارك التسمية ومن أَهَلّ بذبيحة لغير الله عز وجل؛ فإن ذبح هؤلاء أكسب المذبوح خبثًا أوجب تحريمه، ولا ينكر أن يكون ذكر اسم الأوثان والكواكب والجن على الذبيحة يكسبها خبثًا، وذكر اسم الله وحده يكسبها طيبًا[1].

وقد اختلف العلماء في المقصود بالخبائث التي ورد تحريمها في القرآن على أقوال:

القول الأول: أن الخبائث هي المحرمات؛ لأن العرب تقول لكل خبيث محرم[2].

القول الثاني: أن الخبائث هي لحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله، وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[3].

القول الثالث: أن الخبائث هي ما لا يوافق النفس من المحظورات[4].

وأما الفقهاء فإنهم اختلفوا في المقصود بالخبيث والخبائث على هذا النحو:

فعند الحنفية أن الخبائث هي ما تستخبثه الطباع السليمة ولا تتقبل أكله، وذلك يشمل حيوانات وطيور وحشرات بعينها، ويشمل أجزاء معينة من جسد الحيوان المباح، مثل: المرارة والمثانة والذكر والأنثيين ونحو ذلك مما لا تتقبله الطباع، وتدخل النجاسات في الخبائث بلا خلاف عند الحنفية[5].

والعبرة في الاستلذاذ والاستطابة بأهل المروءة والأخلاق الجميلة، قال ابن عابدين نقلًا عن بعض فقهاء الحنفية: «أجمع العلماء على أن المستخبثات حرام بالنص وهو قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وما استطابه العرب حلال لقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وما استخبثه العرب فهو حرام بالنص، والذين يعتبر استطابتهم أهل الحجاز من أهل الأمصار؛ لأن الكتاب نزل عليهم وخوطبوا به ولم يعتبر أهل البوادي؛ لأنهم للضرورة والمجاعة يأكلون ما يجدون وماوجد في أمصار المسلمين مما لا يعرفه أهل الحجاز رد إلى أقرب ما يشبهه في الحجاز.

(١) أعلام الموقعين، ٢/ ١٧٣ بتصرف.
(٢) معاني القرآن، النحاس ٣/ ٩٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٦٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٨، الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٥٨٢.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٨٤.
(٥) انظر: البحر الرائق، ابن نجيم ١/ ٨٣، بدائع الصنائع، الكاساني ٥/ ٦١.



فإن كان مما يشبه شيئًا منها فهو مباح؛ لدخوله تحت قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الأنعام:١٤٥] الآية.

ولقوله عليه السلام: (ما سكت الله عنه فهو مما عفا الله عنه)[(١)][(٢)].

وعند المالكية أن الخبائث هي الحرام، وذلك يقابله عندهم أن الطيبات هي الحلال[(٣)].

وعند الشافعية الخبائث هي المستقذرات ونحوها، مثل: الخنافس والعقارب، وذلك يقابله أن الطيبات هي المستلذات إلا ما حرمه الشرع كالخمر والخنزير[(٤)].

وعند الحنابلة: الخبائث هي النجاسات، وكذلك المفترس من الحيوانات[(٥)].

وبناء على كل ما سبق، فإن الخبائث من الأطعمة تشمل الآتي:

١. كل طعام حرام سواء كان من الحيوان أو النبات أو غير ذلك على نحو ما تقدم ذكره في المبحث السابق..

٢. كل طعام نجس سواء كان نجسًا نجاسة أصلية أو طرأت عليه النجاسة.

٣. كل طعام مستقذر لا تستطيبه العرب أو لا تستطيبه النفوس السليمة.

وعلى هذا يمكن تقسيم الخبائث إلى قسمين: أولهما: الخبيث لذاته، والثاني: الخبيث لعارض من العوارض.

فالأول: وهو الخبيث لذاته يشمل أصنافًا من الأطعمة والأشربة، مثل: الخنزير والكلب والخمر، والنجاسات بأنواعها كالدم المسفوح، ومخلفات الإنسان والحيوان.

والثاني: وهو الخبيث لعارض، مثل: الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، ونحو ذلك من الحيوان الذي لم تتم تذكيته بالطريقة الشرعية، وكذا ما ذبح على النصب، وما لم يسم الله عليه عند الذبح، وما ذبح لغير الله.

وقد سبق ذكر هذه المحرمات وأدلتها من الكتاب والسنة على وجه التفصيل في المبحث السابق.

[انظر: الطعام: أنواع الأطعمة في القرآن الكريم]

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأطعمة، باب ما لم يذكر تحريمه، ٣/ ٣٥٤، رقم ٣٨٠٠، والترمذي في سننه، أبواب اللباس، باب ما جاء في لبس الفراء، ٤/ ٢٢٠، رقم ١٧٢٦.

ورجح الترمذي وقفه على سلمان رضي الله عنه.

(٢) حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٠٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٠٠، البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٥٥٥.

(٤) انظر: الأم، الشافعي ٢/ ١٧٤.

(٥) المغني، ابن قدامة ١١/ ٧٨، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ٤٠٧.

تصنيف المأكولات حسب طبيعتها

ذكر القرآن الكريم أصنافًا من المأكولات نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الفاكهة:

الفاكهة معروفة، وهي اسم لما يتفكه به قبل الطعام وبعده، أي: يتنعم به زيادة على المعتاد والرطب واليابس فيه سواء، وقد اختلف العلماء في حقيقتها على أقوال:

القول الأول: أن كل شيء قد سمي من الثمار في القرآن نحو العنب والرمان فإنا لا نسميه فاكهةً.

القول الثاني: أن كل الثمار فاكهةٌ وإنما كرر في القرآن في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨﴾ [الرحمن: ٦٨]. لتفضيل النخل والرمان على سائر الفواكه دونهما[(١)].

والفواكه أنواع كثيرة بعضها موجود في كل البلاد، وبعضها تنفرد به بلاد دون أخرى حسب طبيعتها وحسب موقعها الجغرافي، ومناخها، وتتنوع الفواكه كذلك داخل البلد الواحد بحسب فصول السنة.

وقد ورد ذكر لفظ «الفاكهة» وما يتعلق بها مفردًا وجمعًا، وأصنافًا متعددة في القرآن الكريم على سبيل الإجمال في مواضع عدة بلغت بضعة وعشرين موضعًا، وهي على ثلاثة وجوه في تقديري كما يظهر من استقراء الآيات الكريمة:

الوجه الأول: مواضع جاء فيها ذكر الفاكهة صريحًا على سبيل الإجمال:

وذلك إما في بيان ما يتنعم به أهل الجنة من الطعام والشراب، أو في بيان النعم التي أنعم الله تعالى بها على الناس جميعًا من حيث إنبات الزرع وتعدد أصنافه.

فمن النوع الأول وهو ما جاء في فاكهة أهل الجنة:

١. قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧﴾ [يس: ٥٧].

٢. قوله جل شأنه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٣﴾ [الزخرف: ٧٢ – ٧٣].

٣. قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ [الدخان: ٥٥].

٤. قوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠﴾ [الواقعة: ٢٠].

٥. قوله جل شأنه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ [الواقعة: ٣٢ – ٣٣].

٦. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات: ٤١ – ٤٢].

ومن النوع الثاني وهو بيان النعم التي أنعم

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٢١٣.

الله تعالى بها على الناس جميعًا، وما في خلق الأرض وإنبات الزرع من المعجزات والعبر، وذلك في المواضع التالية:

١. قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١﴾ [الرحمن:١٠ – ١١].

٢. قوله جل شأنه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٢﴾ [عبس: ٢٤ – ٣٢].

وفي هذه الآية صنوف من النعم التي تنبت بالأرض وهي: الحب، وهو معروف وسيأتي الكلام عليه، والعنب، والقضب، والزيتون، والنخيل، ثم جاء ذكر الحدائق إجمالًا، ثم الفاكهة، ثم الأب.

والأب هذا روي فيه عن أنس قال: «قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه (عبس وتولى) فلما أتى على هذه الآية ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ قال: قد عرفنا الفاكهة؛ فما الأب؟ قال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف»[1].

وقد ورد في تفسير الأب أنه كل ما ينبت على وجه الأرض، والغُلْب في قوله: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾ جمع غلباء وهي الحديقة الملتفة الأشجار[2].

وحكى القرطبي أن السبع- أي الأصناف السبعة الواردة في الآية - لابن آدم، والأب للأنعام. والقضب يأكله ابن آدم ويسمن منه النساء؛ هذا قول. وقيل: «القضب البقول لأنها تقضب؛ فهي رزق ابن آدم».

وقيل: «القضب والأب للأنعام، والست الباقية لابن آدم، والسابعة هي للأنعام؛ إذ هي من أعظم رزق ابن آدم»[3].

وقيل: إن الفاكهة «هي ما يأكله الناس، والأب ما تأكله الأنعام»، وهو مروي عن مجاهد والحسن[4].

الوجه الثاني: ذكر أصناف بعينها وأسمائها من الفاكهة.

مثل نعمة التمر التي أنعم الله بها على السيدة مريم عليها السلام، وشجرة اليقطين التي أنبتها الله تعالى على نبي الله يونس عليه السلام.

فمن النوع الأول قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم:٢٥].

ومن النوع الثاني قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ۝١٤٦﴾ [الصافات:١٤٦].

الوجه الثالث: ذكر الجنات والحدائق المثمرة التي أنعم الله بها على أقوام بعينهم:

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٤/ ٢٢٩.

(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٢٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١١١.

(٤) تفسير مجاهد٢/ ٧٣١.

وذلك في مواضع بيان جوانب إعجاز الخلق، وتكثير النعم، وصنوف بعينها من فاكهة أهل الجنة، أو فاكهة توجد في بلاد ما أو أنعم الله تعالى بها على أحد من خلقه، مثل: صاحب الجنتين في سورة الكهف، وجنتي سبأ، وجنة القوم الذين ورد ذكرهم في سورة القلم.

وهذه تجدها في المواضع التالية:

قول الله تعالى مبينًا بعض النعيم على أهل الجنة: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الواقعة: ٢٧ – ٢٩].

وآيات أخرى، من هذا القبيل قوله تعالى في شأن صاحب الجنتين: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٢ – ٣٣].

وقوله تعالى في شأن سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٥ – ١٦].

وقوله تعالى في شأن أصحاب الجنة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القلم: ١٧].

ثانيًا: الحبوب:

الحب معروف، وهو مستعمل في أشياء جمة، حبةٌ من بر وحبة من شعير حتى يقولوا حبةٌ من عنبٍ، والحبة من الشعير والبر ونحوهما، والجمع حباتٌ وحبٌ وحبوبٌ وحبانٌ الأخيرة نادرة؛ لأن فعلة لا تجمع على فعلانٍ إلا بعد طرح الزائد[(١)].

والحبوب أصناف شتى بعضها موجود في كل البلاد وبعضها الآخر يوجد في بلاد دون أخرى، وذلك بحسب موقع كل بلد ومناخها، كما أن هذه الحبوب بعضها مما يأكله الإنسان والحيوان والطير، وبعضها مما هو قوت للإنسان فقط، وبعضها مما يأكله الحيوان والطير فقط، وتنقسم الحبوب باعتبار آخر إلى نوعين: حبوب تقتات وتدخر، وحبوب لا تقتات ولا تدخر، ومعنى الاقتيات هو: قيام بنية الآدمي به، ومعنى الادخار عدم فساده بالتأخير المعروف فيه[(٢)].

فالتي تقتات وتدخر، مثل: القمح والشعير والأرز والذرة والسمسم والفول ونحوها، ولذلك كانت الزكاة واجبة في أصناف من هذه الحبوب، بخلاف غيرها؛ كذلك فإن الفقهاء حينما تكلموا عن علة

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٨٩.
(٢) انظر: مواهب الجليل، الحطاب ٦/ ١٩٨، الفواكه الدواني، النفراوي ٣/ ١٠٩١.

تحريم الربا في الأصناف التي وردت في الأحاديث، اختلفوا فيها -أي العلة- هل هي الاقتيات والادخار، أو الادخار فقط، أو الاقتيات، وهذا معروف في مواضعه من كتب الفقه، ولا يتسع المقام لإيراده هنا.

والمقصود بالأحاديث الأحاديث الواردة في تحريم ربا النساء في الحبوب، مثل: البر والشعير والتمر ونحو ذلك، ومنها حديث عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (البر بالبر ربًا إلا هاء وهاء، والشعير بالشعير ربًا إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر ربًا إلا هاء وهاء)[1].

والحبوب التي ذكرت في القرآن جاءت في مواضع مختلفة يمكن تقسيمها على النحو التالي:

١. الحبوب الوارد ذكرها في معرض بيان نعم الله تعالى على الناس.

وذلك في المواضع التالية:

١. قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾ [الأنعام:٩٩].

٢. قوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ [يس:٣٣].

٣. قوله جل شأنه: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ [ق:٩].

٤. قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ﴿١٥﴾﴾ [النبأ:١٤ – ١٥].

٥. قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾﴾ [عبس:٢٤ – ٢٧].

وبالنظر إلى كل المواضع السابقة نجد أن سياق الآيات يدل على إعجاز خلق المطر وأثره في إنبات الزرع، وإعجاز شق الأرض التي يلقى فيها الحب بذرًا فيخرج حبوبًا متعددة، وتنوع صنوف الحب وتعدد أشكاله وأحجامه.

٢. تشبيه الإنفاق في سبيل الله تعالى بالحبة التي تثمر حبات عديدة.

وذلك في قول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

٣. علم الله سبحانه وتعالى بدقائق الخلق وعظائمه، ومن ذلك الحبة في ظلمات الأرض.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيع، باب بيع التمر بالتمر، رقم ٢١٧٠.

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام:٥٩].

٤. نعمة البُر وكيفية الحفاظ عليها وتخزينها في حالات المجاعة والأزمات.

وذلك كما ورد في سورة يوسف ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسف: ٤٧ – ٤٩].

وما سوى ذلك من مواضع ذكر الحب في القرآن الكريم إنما هو في معرض بيان دقة الحساب يوم القيامة، وأن المرء لا يفقد من عمله مقدار حبة من خردل، وأن كل ما يفعل المرء صغيرًا كان أو كبيرًا إنما هو مسطر عليه في الكتاب من خير أو شر[1].

ثالثًا: بهيمة الأنعام:

لحوم الحيوانات والطيور هي عماد غذاء الإنسان، نظرًا لما تحتويه من مواد بروتينية تمد الجسم بطاقة معينة تساعد على بنائه، وهذه المواد يصعب الحصول عليها من غير الجسم، فضلًا عن كونها تقي الجسم من أمراض مختلفة، وقد عالج القرآن الكريم والسنة النبوية هذا الموضوع علاجًا وافيًا، حيث بينت الشريعة ما يحل من الحيوان وما يحرم[2].

والحيوانات كما هو معروف بعضها أهلي أو مستأنس، وأكثرها بري، فالمستأنس أو الأهلي أشهره الأنعام الثلاثة التي تجب فيها الزكاة، وهي الإبل والبقر والغنم، ويدخل مع البقر الجاموس، ويدخل مع الغنم الماعز، ومن الطيور البط والأوز والحمام والدجاج ونحو ذلك إلا أن الطيور لا زكاة فيها، وما عدا ذلك من الحيوان بعضه يمكن استئناسه وتربيته في البيوت، وأكثره بري يعيش في الغابات والبراري والجبال.

وقد وردت الآيات القرآنية المتعددة التي تشير إلى حل أكل بهيمة الأنعام.

والبهيمة تطلق على كل ذات أربع قوائم من دواب البر والماء، والجمع بهائم، والبهمة الصغير من أولاد الغنم الضأن والمعز والبقر من الوحش وغيرها الذكر والأنثى في ذلك سواء، وسميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تمييزها وعقلها؛ ومنه باب مبهم، أي: مغلق، وليل بهيم[3].

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ

(١) وذلك كما في سورة الأنبياءآية ٤٧، وسورة لقمان آية ١٦.

(٢) الذبائح واللحوم بين الحلال والحرام، علاء الدين مرشدي ص٦٤ بتصرف.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٦.

﴿حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

وقوله تعالى في بيان الأصناف التي تجب فيها الزكاة من الحيوان: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣ - ١٤٤].

وقوله جل شأنه: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج: ٣٠].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

هذا وقد ذكر بعض المفسرين أنه جرى خلاف في الأنعام التي أحلها الله تعالى بمقتضى قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، هل هي على التعميم أم على التخصيص، ويمكن إجمال خلافهم في ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن بهيمة الأنعام هي الثلاثة المعروفة (الإبل والبقر والغنم) وهو مروي عن الحسن البصري وقتادة والسدي والربيع بن أنس والضحاك[(١)].

القول الثاني: أن بهيمة الأنعام هي أجنة الأنعام التي توجد في بطون أمهاتها -إذا نحرت أو ذبحت- ميتةً، وذكاتها ذكاة أمها حينئذٍ، وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر[(٢)].

القول الثالث: أن بهيمة الأنعام هي الوحشي منها، كالظباء وبقر الوحش والحمر قاله الفراء[(٣)].

هذا ولا خلاف في أن جميع الأنعام المباح أكلها إنما يشترط في حلها الذكاة الشرعية المعروفة بشروطها، والتي هي ذبح أو نحر أو عقر، بحسب كل نوع منها على ما هو معروف في الفقه.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٥٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٧٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٧٧، معاني القرآن، النحاس ٢/ ٢٤٨.
(٣) معاني القرآن، الفراء ١/ ٢٧٤.

رابعًا: صيد البر والبحر:

الصيد يكون بالحيوان أو الطير المعلم كالكلب والصقر، وبالآلات الحادة مثل الرماح، والنبال، وباليد، وبالشباك ونحوها في الأسماك والطيور، والحيوان، وغير ذلك من آلات الصيد المعروفة والتي تتطور عبر الزمان، وتختلف من مكان لآخر.

وقد ورد ذكر الصيد وبعض آلاته في القرآن الكريم في غير موضع منها قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة: ٤].

وقوله جل شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة: ٩٤].

وللصيد شروطه المعتبرة التي على أساس توافرها يكون الحيوان حلال الأكل، وهذه الشروط مطلوبة في الصائد، والمصيد، وآلة الصيد على ما هو معروف في مواضعه(١).

١. صيد البر:

الحيوان البري: هو ما يعيش في البر كالغابات والصحاري والجبال، وينقسم إلى قسمين: حيوان مقدور عليه، وحيوان غير مقدور عليه، أو بلفظ آخر، حيوان أهلي، وحيوان وحشي، فالحيوان الأهلي هو الذي يألف البيوت ويربى فيها كالأنعام الثلاثة التي تجب فيها الذكاة والدواجن التي تربى في البيوت.

والوحشي: هو الذي يعيش في البر مأخوذ من الوحشة وهي الخلوة، وذلك مثل الظباء والنعام والطيور التي تعيش في البراري(٢).

وباب الحلال والحرام من الأطعمة الحيوانية باب كبير معروف في السنة النبوية والفقه في جميع المذاهب على اختلاف في تسميته في كل مذهب، ولو ذهبنا نتتبع أصناف الحيوانات والطيور وما يحل وما يحرم منها لخرجنا عن المقصود في هذا البحث التفسيري، ولكن أكتفي بذكر أشهرها على سبيل الاختصار:

أولًا: الحيوانات المجمع على حلها أو متفق على حلها (ما عدا الأنعام الثلاثة):

الظبي، الغزال، النعام، الكركي، الحباري، الطاووس، البط والأوز، القطا، الحمام وما يلحق به، مثل: اليمام والقنبر والدبس والفاخت والقمري والسمان،

(١) انظر: الذبائح واللحوم بين الحلال والحرام ص٣٠-٣٥.

(٢) انظر: الأطعمة وأحكام الصيد، الفوزان ص٣٣.

والعصفور، والأرنب.

ثانيًا: الحيوانات المجمع على تحريمها أو متفق على تحريمها:

المحرم من هذه الحيوانات نوعان:

النوع الأول: الحيوان المحرم لذاته أو لعينه، وذلك مثل: الخنزير، والسباع من الطيور والحيوانات ذوات الأربع، والحيوانات ذوات الحافر، والحيوانات التي تأكل الجيف والقاذورات، والحيوانات التي ورد الأمر في السنة بقتلها في الحل والحرم، وهي الفواسق (الحية والعقرب والفأرة والكلب العقور والحدأة)، والحيوانات التي تعافها النفوس السليمة، ولا تقبلها الفطرة، مثل القرد وابن عرس.....

والنوع الثاني: الحيوان المحرم لعارض، مثل الميتة، والأنعام التي لم تكتمل ذكاتها، والجلالة[1].

ويمكن إجمال حكمة تحريم هذه الأصناف فيما يلي:

- أن بعض هذه الحيوانات يورث آكله بغيًا وظلمًا وقسوة، كما هو الحال في أكل السباع ونحوها، والمغتذي شبيه بما يتغذى به، فالقوة السبعية التي في هذه الحيوانات يمكن أن تسري إلى نفس آكلها، فيتشابه الإنسان مع الحيوان.
- أن بعض هذه الحيوانات خبيثة، مثل الميتة، والجلالة والخنزير؛ ويترتب على أكلها ضرر بالجسم.
- أن بعض هذه الحيوانات ذات صفات سيئة كالبلادة وعدم الغيرة، وشدة الشهوة كما هو الحال في الخنزير، مما يسري إلى نفس آكله، وإكسابه هذه الصفات[2].

ثالثًا: الحيوانات المختلف فيها المذاهب الفقهية:

اختلف الفقهاء في أكل طائفة كبيرة من الحيوانات، ما بين موسع ومضيق، سواء كان الخلاف في داخل المذهب الواحد أو بينه وبين المذاهب الأخرى، وأورد هنا طرفًا مما اختلفوا فيه على سبيل الإيجاز:

- الضب: حلال عند جميع الفقهاء ما عدا الحنفية[3]. وقصة أكل الضب أمام النبي صلى الله عليه وسلم وإقراره للصحابة على ذلك مشهورة، ولكن النبي عليه السلام لم يأكله.
- الخيل: يباح أكلها عند محمد بن الحسن

(١) انظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد ١/ ٣٤٠، المغني، ابن قدامة ١١/ ٦٦، الأطعمة وأحكام الصيد، الفوزان ص٣٩.

(٢) انظر: الأطعمة وأحكام الصيد، الفوزان ص٤٠.

(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ١٨٩، المبسوط، السرخسي ١١/ ٢١٨، المغني، ابن قدامة ١١/ ٧٦.

وأبي يوسف من الحنفية، والشافعية، والحنابلة، والظاهرية[(١)]، وروي ذلك أيضًا عن عبد الله بن الزبير، وفضالة بن عبيد، وأنس بن مالك، وأسماء بنت أبي بكر، وسويد بن غفلة، وعلقمة، والأسود بن يزيد، وعطاء وشريح القاضي، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وحماد بن سليمان، وإسحاق بن راهويه، وأبي ثور، ويحرم أكلها عند ابن عباس وأبي حنيفة، ولكن داخل المذهب المالكي خلاف فيها يدور بين الكراهة والحل والتحريم، وأشهر الأقوال فيها عندهم التحريم[(٢)].

- البغال: حرام عند جمهور الفقهاء، وحلال عند الحسن البصري وابن حزم[(٣)].
- الحمر الأهلية: حرام عند جمهور العلماء، وحلال عند ابن عباس[(٤)].
- الثعلب: مباح عند الشافعية، وأحمد في رواية، وطاوس وقتادة وأبي ثور، وحرام عند أبي حنيفة ومالك وأحمد في الرواية الثانية، وابن حزم[(٥)]؛ لأنه سبع فيدخل في عموم النهي.
- الضبع: مباح عند الشافعية[(٦)]، والظاهرية، ورويت إباحته عن علي بن أبي طالب وإسحاق بن راهويه وأبي ثور وخلائق من الصحابة والتابعين[(٧)].

٢. صيد البحر.

صيد البحر يقصد به كل ما صيد من البحر من السمك ونحوه، فالمراد بالصيد هنا هو المصيد، وإنما أضيف إلى البحر؛ لأنه مستخرج منه، وهو نوعان:

النوع الأول: ما لا يعيش إلا في الماء

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٧٦، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣، بدائع الصنائع، الكاساني ٥/ ١٨، مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٩١، كشاف القناع، البهوتي ٦/ ١٩٠، المحلى، ابن حزم ٧/ ٤٠٦.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣، المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٣/ ٩٥، بدائع الصنائع، الكاساني ٥/ ٣٩، مواهب الجليل، الحطاب ١/ ١٧٢.

(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٧٨، الحاوي الكبير، الماوردي ١٥/ ١٤٤، المحلى، ابن حزم ٧/ ٤٠٨.

(٤) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٤٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٧٧.

(٥) انظر: المجموع، النووي ٩/ ٢، مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٩٩، المغني، ابن قدامة ١١/ ٦٦، المجموع، النووي ٩/ ٩، بدائع الصنائع، الكاساني ٢/ ١٩٨، أحكام القرآن، ابن العربي٥/ ١٥٨، المحلى، ابن حزم ٧/ ٣٩٧.

(٦) انظر: المجموع، النووي ٩/ ٩، وحكي عن الشافعي قوله: ما زال الناس يأكلون الضبع ويبيعونه بين الصفا والمروة.

(٧) انظر: المحلى، ابن حزم ٧/ ٣٩٧، المجموع، النووي ٩/ ٩.



بحيث إذا خرج منه يموت بعد فترة، وذلك مثل جميع أنواع السمك.

والنوع الثاني: ما يمكنه العيش في البر والبحر، أو الحيوانات البرمائية، وذلك مثل السرطان والتمساح[(١)].

وهناك تقسيم آخر ذكره بعض المفسرين أن صيد البحر قسمان: سمك وغيره، فالسمك معروف، وغير السمك قسم يعيش في البر كالضفدع والسرطان، فلا يحل أكله، وقسم يعيش في الماء ولا يعيش في البر إلا عيش المذبوح، وذلك مثل الجريث أو حية البحر[(٢)].

المقصود بصيد البحر وطعامه:

تواترت الآثار الدالة على أن المقصود بصيد البحر هو كل ما صيد منه، كما هو مروي عن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وقتادة وغيرهم، وروي عن ابن عباس رواية أخرى وروي نحوه عن سعيد بن جبير والسدي بأن صيد البحر هو الطري منه[(٣)].

أما طعام البحر فقد اختلف في المقصود به على أقوال:

القول الأول: أن طعام البحر هو ما قذفه البحر بلا صيد من الإنسان، وهو مروي عن عمر وابن عباس وابن عمر وأبي هريرة وكثير من الصحابة رضوان الله عليهم[(٤)].

القول الثاني: أن طعام البحر هو كل ما نضب الماء عنه فأخذ بغير صيد ميتاً[(٥)].

القول الثالث: أن طعامه كل ما سقاه الماء فأنبت من الأرض[(٦)].

القول الرابع: أن طعام البحر هو السمك المملح أو المقدد منه، وهو مروي عن سعيد بن جبير وعكرمة وسعيد بن المسيب وقتادة والنخعي[(٧)].

حكم أكل صيد البحر وطعامه:

اختلف العلماء في أكل صيد البحر على أربعة أقوال:

القول الأول: أن جميع حيوانات البحر حلال، وهو مذهب المالكية، والشافعية على الأصح[(٨)].

وهو قول ابن أبي ليلى، والأوزاعي، والثوري في رواية الأشجعي عنه[(٩)].

ودليلهم من القرآن عموم قول الله

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٨.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٠١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٧-٦٠.
(٤) انظر: معاني القرآن، النحاس ٢/ ٣٦٤، تفسير السمرقندي ١/ ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٨.
(٥) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٤١.
(٦) انظر: المصدر السابق.
(٧) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٠٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٨٩.
(٨) انظر: الشرح الكبير، الدردير ٢/ ١١٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٩، مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٢٧.
(٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٩.

تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة: ٩٦].

وسبق بيان القول في المقصود بالصيد والطعام.

ودليلهم من السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ به؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته)[(١)].

القول الثاني: أن جميع حيوانات البحر حلال عدا الحية والتمساح والضفدع، وهو مذهب الحنابلة[(٢)].

ودليلهم عموم الآية السابقة، وأما استثناء الضفدع والتمساح والحية، فلأن الضفدع منهي عن قتله، وهو يدل على تحريمه، والتمساح حيوان مفترس، والحيات من المستخبثات[(٣)].

القول الثالث: أن الحلال من حيوانات البحر هو السمك فقط، وما عداه لا يحل، وكذا لا يحل السمك الذي وجد طافيًا على سطح البحر، والمقصود السمك الذي يموت في الماء حتف أنفه بغير سبب حادث منه سواء علا على وجه الماء أو لم يعل بعد أن مات في الماء حتف أنفه من غير سبب حادث.

وهو مذهب الحنفية[(٤)]، ووجه عند الشافعية[(٥)]، وهو قول الثوري في رواية أبي إسحاق الفزاري عنه[(٦)].

القول الرابع: أن السمك حلال الأكل، وما سوى السمك من حيوانات البحر ينظر، فإن كان له نظير يؤكل في البر، فحيوان البحر كذلك، وإن كان نظيره من حيوان البر لا يؤكل فكذلك حكم حيوان البحر، وذلك مثل: خنزير البحر وكلب البحر. وهو وجه عند الشافعية[(٧)]، وقول عند الحنابلة.

ودليله القياس على حيوان البر المحرم كالخنزير والكلب ونحوهما[(٨)].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوضوء، باب الوضوء بماء البحر، رقم٨٣، والترمذي في سننه، أبواب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور، رقم٦٩، والنسائي في سننه، كتاب الطهارة، باب ماء البحر، رقم٥٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الوضوء، باب الوضوء بماء البحر، رقم٣٨٦.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: المغني، ابن قدامة ١١/ ٨٣، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ٤١١.

(٣) انظر: شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ٤١١، الأطعمة وأحكام الصيد، الفوزان ص٨٧.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٣٣، بدائع الصنائع، الكاساني ٥/ ٣٦.

(٥) مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٩٧.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٨.

(٧) انظر: الحاوي الكبير، الماوردي ١٥/ ٦٣، المجموع، النووي ٩/ ٣٢.

(٨) انظر: مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٩٩.

الرأي المختار: الذي تطمئن النفس إلى اختياره هو القول الأول الذي يرى حل جميع ما صيد من البحر، وذلك نظرًا لقوة أدلته وسلامة مدركه، لأن الأقوال الأخرى لم تسلم من المناقشة، مما لا يتسع المقام لذكره، إلا أنه ينبغي أن يوضع في الاعتبار مع هذا أمور أخرى، مثل: كون الحيوان البحري خاليًا من السموم والأضرار التي تترتب على أكله، كما هو الحال في بعض الأسماك السامة.

المخلوقات والأكل

تحدث القرآن الكريم عن أصناف من المخلوقات منها ما يأكل ومنها ما لا يأكل نبينها فيما يأتي:

أولًا: الملائكة والأكل:

الملائكة صنف من خلق الله تعالى خلقوا من نور، ولهم وظائف شتى، وهم يختلفون عن الإنس والجن في أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ولا يتناسلون، ولا يملون عن عبادة الله تعالى، ولا يفترون، ولا يتعبون، وقد اتفق المحققون من أهل العلم على ذلك[1].

قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء:١٩ – ٢٠].

ولهذا لما وفدت الملائكة على سيدنا إبراهيم عليه السلام في صورة أناس من بني بشر، قدم لهم طعام الضيافة فرفضوا أن يأكلوا، ولم تمتد أيديهم إلى الطعام، فأوجس منهم خيفة؛ فلما كشفوا له عن حقيقتهم زال خوفه وتعجبه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٨، لوامع الأنوار البهية، السفاريني ١/ ٤٤٧.

﴿بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾ [هود: ٦٩-٧٠].

وقال جل شأنه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٨].

وقد أخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ﴾ قال: «كانوا إذا نزل لهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وأنه يحدث نفسه بشر. قال: ثم حدثوه عند ذلك»[1].

ثانيًا: الرسل والأكل:

الرسل والأنبياء صفوة خلق الله تعالى من البشر، وهم المبلغون لشرائع الله تعالى للأمم من خلال الوحي الذي نزل عليهم، والكتب السماوية التي نزلت عليهم، وقد شاءت حكمة الله تعالى أن يصطفيهم من البشر لا من الملائكة ليكونوا أنسب لتبليغ العباد مراد رب العباد منهم.

ولهذا أودع الله تعالى فيهم خصائص البشر من تناول الطعام والشراب، والنوم واليقظة، والمرض والصحة، والتزاوج والتناسل ونحو ذلك من صفات البشر الجبلية.

وقد ورد في القرآن آيات تتعلق بحالة الرسل والأنبياء مع الطعام والشراب، بيانها على النحو الآتي:

١. إرسال الله تعالى الرسل بشرًا يأكلون الطعام.

الرسل بشر كسائر الناس في الخلق والتكوين والصفات الجبلية، إلا أنهم يختلفون عن بقية الناس في الصفات الخلقية التي أودعها الله تعالى فيهم لتحمل الرسالة التي يبلغونها للناس.

ومن الأمور الجبلية التي يشترك فيها جميع الناس بمن فيهم الأنبياء والرسل: الأكل والشرب، اللذان بهما قوام الحياة ونمو البدن وسلامته، ولذلك ذكر الله تعالى في كتابه العزيز في موضعين أن هذا من صفات الرسل شأنهم شأن بقية الناس.

الموضع الأول: في قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: ٧].

وهذا جاء على سبيل الاستنكار من المشركين على نحو ما سيأتي في موضعه.

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ

(١) تفسير عبد الرزاق الصنعاني ١/ ٣٠٥.

﴿يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾ [الفرقان: ٢٠].

وهو بمثابة الإجابة على السؤال السابق كما ذكره بعض المفسرين[(١)].

٢. أمر الرسل بأكل الطيبات.

أمر الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله بأن يأكلوا من الطيبات التي أفاء الله عليهم بها، وأن يعملوا صالحًا، والأمر للرسل ولأتباع الرسل قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ [المؤمنون: ٥١].

٣. اعتراض المشركين على أن الرسل بشر يأكلون الطعام.

أنكر المشركون على الرسل أنهم مثل سائر البشر في تناول الأطعمة والسعي في الأسواق، وزعموا أنه -أي: النبي عليه الصلاة والسلام- إذا كان مثلهم يأكل الطعام ويمشى في الأسواق، فلا يجوز أن يمتاز عنهم بالنبوة، وكانوا يقولون: أنت لست بملَك ولا ملِك؛ فلست بملَك لأنك تأكل الطعام، ولست بملِك لأنك تتسوق وتتبذل، والملوك لا يتسوقون ولا يتبذلون، وهذا الذي قالوه كله فاسد؛ وذلك لأن أكله الطعام لا ينافي النبوة، ولا مشيه في الأسواق، فإن أكله الطعام يدل على أنه آدمي محتاج، ومشيه في الأسواق يدل على أنه متواضع غير متكبر، وأما اختصاصه بفضلة النبوة من بين الناس فجائز؛ لأن الله تعالى لم يسو بين الناس، بل فاضل بينهم[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: ٧].

قال السلمي: «عيروا الرسل بالتواضع والانبساط، ولم يعلموا أن ذلك أتم لهيبتهم وأشد في باب الاحترام لهم، وذلك أنهم لم يشاهدوا منهم إلا ظاهر الخلق ولو شاهدوا منهم خصائص الاختصاص لألهاهم ذلك من قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾»[(٣)].

وعليه فإن إن المشركين لم يدركوا حكمة الله تعالى في إرسال الرسل، حيث اختارهم من جنس بني البشر يشتركون مع سائر الناس في العادات والصفات البدنية ونحوها، حتى يستطيعوا أن يبلغوا دعوتهم للناس.

ولكن على الرغم من هذا التشابه والاشتراك إلا أن الرسل هم صفوة الناس بما أودع الله تعالى فيهم من صفات خلقية؛

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٢.

(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٧.

(٣) حقائق التفسير ٢/ ٥٩.

كالصدق والأمانة وقربهم لله عز وجل مما يجعلهم متميزين عن غيرهم.

كذلك ما أودعه الله تعالى فيهم من الذكاء والفطنة، وهذه الصفات وإن كانت موجودة في الكثير من الناس إلا أن الرسل قد حازوها على أكمل وجه وأحسنه.

٤. ابتلاء سيدنا آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة.

وردت قصة سيدنا آدم عليه السلام في غير موضع في كتاب الله عز وجل، وقد أمر الله تعالى آدم بأن يأكل من الجنة رغدًا حيث شاء، باستثناء شجرة معينة، اختلف العلماء في حقيقتها اختلافًا كبيرًا لا يتسع المقام لذكره، فوسوس الشيطان لآدم وظل يغويه حتى أكل من الشجرة المنهي عنها، فعوقب بسبب ذلك بالإخراج من الجنة والنزول إلى الأرض التي قدر الله تعالى له أن يسكنها ويعمرها هو وذريته.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة:٣٥-٣٦].

وقال جل شأنه: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف:١٩ – ٢٢].

والرغد في الآية المقصود به الواسع من العيش، الهنيء الذي لا يعني صاحبه، يقال: أرغد فلان: إذا أصاب واسعًا من العيش الهنيء، كما قال امرؤ القيس(١):

بينما المرء تراه ناعمًا

يأمن الأحداث في عيشٍ رغد

هذا وقد ترتب على أكل سيدنا آدم عليه السلام من الشجرة المنهي عنها ثلاثة أمور كما يستنبط من القصة القرآنية:

الأول: ظهور عورتهما، ولم يكن لهما سابق علم بها، حيث لم يكونا بحاجة إلى الإخراج.

الثاني: عتاب الله تعالى لسيدنا آدم عليه السلام على ما فعل، وتذكيره بالنهي الذي نهاه ولم يمتثل له نسيانًا منه، وإغواء من الشيطان.

الثالث: الهبوط من الجنة إلى الأرض

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٥١٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١١٠.

للعيش عليها.

رابعًا: سائر المخلوقات والأكل:

١. أكل الإنس.

كل ما ورد ذكره في القرآن الكريم أمرًا بالأكل إنما هو للإنسان، إلا ما ورد بشأن الحيوان على نحو ما سيأتي في موضعه، وأمر الله عز وجل للإنسان بالأكل جاء في معارض كثيرة، فجاء مرة في معرض تعداد النعم على بني إسرائيل، ومرة في معرض أمر المؤمنين بأكل الطيبات، ومرة في معرض أمر الناس بالأكل مما في الأرض من رزق الله تعالى، وهكذا، وهذه المواضع كلها جاء ذكرها في أماكنها من هذا البحث بما يغني عن إعادتها هنا.

إلا أن الذي أكتفي بالإشارة إليه من أكل الإنس هنا هو بضعة مواضع فيها بعض العبر والنكات التفسيرية وهي:

أولًا: أكل الفقير بالمعروف من مال اليتيم صيانة لنفسه.

حث الله سبحانه وتعالى عباده على الاقتصاد في الطعام والشراب وسائر وجوه النفقة، وفي حالة كون المرء قيمًا على مال يتيم، فقد حثه الشارع على أن يراعي حاله من حيث الغنى والفقر، بحيث يتعامل مع مال اليتيم بالحذر.

فإن كان القيم على مال اليتيم غنيًا، فليتعفف عن أن ينال منه شيئًا، وإن كان فقيرًا فليكن تناوله منه بالمعروف حفاظًا على مال اليتيم، وذلك عملًا بقاعدة (ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها)[١].

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء: ٦].

وفي معنى ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ أنهم لا يأكلون أموالهم على سبيل الإسراف والإتلاف، أو يبادرون بأكل أموالهم خشية أن يكبروا - أي اليتامى- فيتسلمون أموالهم من القائمين عليها.

أو كما عبر بعض المفسرين بقوله: «مسرفين ومبادرين كبرهم؛ أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون في إنفاقها وتقولون ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا»[٢].

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ يعني: أكل مال اليتيم مبادرًا أن يبلغ، فيحول بينه وبين ماله»[٣].

وقد روي نحو هذا المعنى عن معمر

---

(١) انظر: الأشباه والنظائر، السيوطي ص٨٤، الأشباه والنظائر، ابن نجيم ص٨٦.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٨٠.

وقتادة والحسن والسدي[(١)].

وفي معنى ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أقوال كثيرة للسلف منها:

ما روي عن مجاهد قوله: «﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من مال اليتيم، بغير إسراف ولا قضاء عليه فيما أكل منه»[(٢)].

ومن بلاغة الآية الكريمة استنبط منها بعض التابعين أن المقصود ليس أكل الفقير من مال اليتيم، بل أكل الفقير من مال نفسه بالمعروف، فقد روي عن مجاهد قال: «لا تقرب مال اليتيم إلا للتجارة ولا تستقرض.

قال: فأما قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، فإنما معناه فليأكل من ماله بالمعروف يعني من مال نفسه»[(٣)].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه -أي: الفقير- يأكل بأطراف أصابعه[(٤)].

وروي عن عطاء وعكرمة أنه يأكل بأطراف أصابعه، ولا يسرف ولا يكتسي منه، ولا يلبس الكتان ولا الحلل، ولكن ما سد الجوعة ووارى العورة.

وروي عن الحسن وجماعة أنه يأكل من ثمر نخيله ولبن مواشيه بالمعروف ولا قضاء عليه، فأما الذهب والفضة فلا؛ فإن أخذ شيئًا منه رده.

وقال الكلبي: «المعروف ركوب الدابة وخدمة الخادم، وليس له أن يأكل من ماله شيئًا»[(٥)].

ثانيًا: النهي عن أكل الإنسان مال اليتيم.

ورد في القرآن التحذير من أكل أموال اليتامى بدون وجه حق في صورة شديدة تبين قبح الفعل وسوء العاقبة، وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء:١٠].

وليس المراد بالأكل هنا الأكل تناول الطعام، بل المراد الإتلاف أو نهب المال أو أخذه بدون وجه حق، أو كما قال الإمام القرطبي: «ليس المقصود في الآية صورة الأكل أو نفس الأكل، وإنما المراد به الاستباحة بأي طريق كان؛ إلا أن الأكل لما كان أوفى أنواع التمتع بالمال عبر عن التصرفات بالأكل»[(٦)].

ولما نزلت هذه الآية اشتد الأمر على بعض الناس ممن يتولون أموال اليتامى، فعزلوا طعامهم وشرابهم عن طعام وشراب اليتامى حتى فسد الطعام وصار حرج كبير بسبب ذلك، فنزلت آية أخرى ترفع الحرج

(١) انظر: تفسير القرآن، عبد الرزاق الصنعاني ١/ ١٤٦، جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٨٠.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٧/ ٥٨٦.
(٣) معاني القرآن، النحاس ٤/ ١٥٣.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٧/ ٥٨٦.
(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٢٥٩، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٦٨، لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٨١.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، ٥/ ٢٦ بتصرف.

عنهم.

روي عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢]. و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، انطلق من كان عنده يتيمٌ فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد؛ فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم»[(١)].

لطيفة في ذكر الأكل والبطون:

لم ذكر الأكل والبطون في هذه الآية مع أنه معروف أن الأكل لا يكون إلا في البطون؟

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن القرآن قد ذكر الأكل إلا أن المراد منه كل أنواع الإتلافات فإن ضرر اليتيم لا يختلف بأن يكون إتلاف ماله بالأكل أو بطريق آخر، وإنما ذكر الأكل وأراد به كل التصرفات المتلفة لوجوه:

أحدها: أن عامة مال اليتيم في ذلك الوقت هو الأنعام التي يأكل لحومها ويشرب ألبانها فخرج الكلام على عادتهم.

وثانيها: أنه جرت العادة فيمن أنفق ماله في وجوه مراداته خيرًا كانت أو شرًا أنه يقال: إنه أكل ماله.

وثالثها: أن الأكل هو المعظم فيما يبتغي من التصرفات[(٢)].

الوجه الثاني: أن ذكر البطون ورد مورد قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٧].

والقول لا يكون إلا بالفهم، وقال: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والقلب لا يكون إلا في الصدر، وقال: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨]؛

والطيران لا يكون إلا بالجناح، والغرض من كل ذلك التأكيد والمبالغة[(٣)].

ثالثًا: النهي عن أكل أموال الناس بالباطل.

ورد النهي عن أكل أموال الناس بالباطل في مواطن عدة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ

---

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٣٥٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ١٦٣.

(٣) المصدر السابق.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء:٢٩].

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقد سبق ذكر ذلك في مبحث الاستعمال القرآني للأكل.

رابعًا: ذم حياة الكفار وتشبيه أكلهم بأكل الأنعام.

ذم الله سبحانه وتعالى حياة الكفار وشبهها بحياة الأنعام، بجامع أن كليهما لا يشغله إلا الطعام والشراب فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد:١٢].

والمعنى كما ذكره بعض المفسرين يحتمل ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الأنعام يهمها الأكل لا غير والكافر كذلك، والمؤمن يأكل ليعمل صالحًا ويقوى عليه.

الوجه الثاني: أن الأنعام لا تستدل بالمأكول على خالقها والكافر كذلك.

الوجه الثالث: أن الأنعام تعلف لتسمن وهي غافلة عن الأمر، لا تعلم أنها كلما كانت أسمن كانت أقرب إلى الذبح والهلاك، وكذلك الكافر[1].

وقيل: إن المراد بالآية أن الأنعام تأكل وتشرب ولا تدري ما في الغد، وكذلك حال الكفار، لا يلتفتون إلى الآخرة والمثوى والمنزل[2].

ويؤيد هذا التشبيه ما أكدته آية أخرى من تشبيه الكفار بالأنعام بل وصفهم بأنهم أسوأ من الأنعام، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقوله جل شأنه: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان:٤٤].

خامسًا: تعدد أصناف النبات لتكون طعامًا للإنسان.

ذكر القرآن الكريم طائفة من النعم التي بثها الله تعالى في الأرض من أصناف النبات والزروع، مما يتخذ قوتًا للإنسان من الخضر والفاكهة، وقوتًا للحيوان أخضر ويابسًا[3].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ

(١) انظر: المصدر السابق ٢٨/ ٣٣.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٧/ ٤٠٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٩٩.

﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه:٥٣- ٥٤].

وذكر الإمام الرازي أن ما في الأرض من النبات المختلف ألوانه وأنواعه ومنافعه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧]؛ فاختلاف ألوانها دلالة، واختلاف طعومها دلالة، واختلاف روائحها دلالة، فمنها قوت البشر، ومنها قوت البهائم، كما قال: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ [طه٥٤].

أما مطعوم البشر، فمنها الطعام، ومنها الإدام، ومنها الدواء، ومنها الفاكهة[١].

سادسًا: إباحة أكل الإنسان من بيوت معينة لما فيه من القرابة بينه وبين صاحب البيت.

أباح القرآن للإنسان أن يأكل من بيوت أشخاص بعينهم؛ نظرًا لما بينه وبينهم من القرابة والمودة، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور:٦١].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ١/ ٢٦٠.

وحكى الطبري عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله أن أظهر معاني الآية أنه لا حرج على هؤلاء الذين سموا في هذه الآية أن يأكلوا من بيوت من ذكره الله فيها، على ما أباح لهم من الأكل منها[٢].

وقد روي في سبب نزول الآية أقوال أشهرها قولان:

القول الاول: أن الآية نزلت في بني بكر من كنانة، وكان لا يأكل أحد منهم وحده حتى يجد ضيفًا يأكل معه، وإذا لم يجد وأجهده الجوع نصب خشبة ولف عليها ثوبًا وأكل عندها؛ ليظن الناس أنه إنسان يأكل معه، وروي أن واحدًا منهم نزل بلقاحه واديًا، فجاع فحلب لقحة منها، ونادى في الوادي: من كان ها هنا فليحضر ليأكل، وكان في الوادي رجل فاختفى ولم يجب، وأجهده الجوع، فجلس يأكل وحده، فخرج الرجل، وقال له: يا رضيع، أتأكل وحدك؟ فأخذ الرجل سيفه وعدى عليه وقتله مخافة أن ينشر في الناس ذلك الفعل منه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأباح للقوم أن يأكلوا منفردين وجماعة[٣].

القول الثاني: أن سبب النزول أن الأنصار كان يتحرجون من الأكل مع هؤلاء إذا دعوا إلى طعام، ويقولون: الأعمى لا

(٢) انظر: جامع البيان، ١٩/ ٢٢٢.
(٣) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٢٤٨، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥٥٣.

يبصر أطيب الطعام، والأعرج لا يقدر على الزحام عند الطعام، والمريض يضعف عن مشاركة الصحيح في الطعام، فكانوا يعزلون طعامهم، ويرون أنه أفضل من مشاركتهم[1].

سابعًا: بيان آداب الأكل في بيت النبي عليه الصلاة والسلام.

النبي صلى الله عليه وسلم أولى الناس بالمؤمنين، رءوف رحيم بهم، آخذ بحجز أمته عن النار، ناصح لهم الحريص عليهم، وزوجاته الطاهرات الطيبات هن أمهات المؤمنين، بنص القرآن الكريم، فيحرم على الأمة إيذاء النبي عليه السلام أو إيذاء أهل بيته بقول أو فعل.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾[الأحزاب:٦].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ [الأحزاب:٥٣].

وقد أباح الله تعالى للمؤمنين دخول بيوت النبي عليه الصلاة والسلام بالاستئذان، وأباح لهم أكل الطعام في بيت النبي عليه السلام إذا دعوا إلى الطعام، ولكن ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وفي معنى قول الله تعالى: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أقوال للسلف والمفسرين.

فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المقصود غير ناظرين للطعام أن يصنع[2].

وروي عن مجاهد وقتادة أن المقصود غير متحينين لنضج الطعام واستوائه[3].

وقيل: إن المقصود- كما ذكره الطبري- غير منتظرين إدراكه وبلوغه، وهو مصدر من قولهم: قد أنى هذا الشيء يأني إنى وأنيا وإناء.

قال الشاعر[4]:

وآنيت العشاء إلى سهيلٍ
أو الشعرى فطال بي الأناء

والمعروف أن سبب نزول الآية كما في الصحيحين أن أنس بن مالكٍ قال: **(أنا أعلم الناس بهذه الآية آية الحجاب، لما أهديت زينب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت معه في البيت، صنع طعامًا، ودعا**

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ١٢٢.

(٢) جامع البيان، الطبري٢٠/ ٣٠٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري٢٠/ ٣٠٦، معاني القرآن، النحاس ٥/ ٣٧١.

(٤) جامع البيان، الطبري٢٠/ ٣٠٥.
والبيت للحطيئة.
انظر: رسالة الملائكة، المعري ص٢٤٢.

القوم، فقعدوا يتحدثون، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يخرج، ثم يرجع، وهم قعودٌ يتحدثون، فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فضرب الحجاب، وقام القوم)[1].

٢. أكل الجن.

الجن صنف من خلق الله عز وجل خلقوا من النار، ولهم مواصفات خاصة معروفة في الكتاب العزيز والسنة النبوية، وطبيعتهم تختلف عن طبيعة البشر والملائكة، وقد ورد ذكر جنس الجن في القرآن الكريم في بضعة وعشرين موضعًا، وورد ذكر الشيطان في حوالي ثمانية وسبعين موضعًا.

وقد اختلف العلماء في طعام الجن، أي: هل يأكلون أم لا يأكلون، وحاصل هذا الخلاف ثلاثة أقوال كما ذكرها بعض العلماء:

القول الأول: أن جميع الجن يأكلون ويشربون، وأن طعامهم العظم وروث الحيوانات ونحو ذلك[2].

وأصحاب هذا القول انقسموا في طبيعة أكل الجن إلى فريقين:

الفريق الأول: يرى أن أكلهم وشربهم مضغ وبلع، وهذا القول هو الذي تشهد له الأحاديث الصحيحة والعمومات الصريحة.

وهذه أبرز الأدلة من السنة على أكل الجن، وعلى أن أكلهم مضغ وبلع:

١. ما رواه مسلم عن عامرٍ قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعودٍ شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعودٍ فقلت: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلةٍ ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب فقلنا: استطير أو اغتيل. قال: فبتنا بشر ليلةٍ بات بها قومٌ. فلما أصبحنا إذا هو جاءٍ من قبل حراء. قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلةٍ بات بها قومٌ. فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «لكم كل عظمٍ ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرةٍ علفٌ لدوابكم». فقال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم)، رقم٤٧٩٢، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب، رقم ٣٥٧٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٩٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٦.

عليه وسلم: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»[1].

٢. ما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أنه كان يحمل مع النبي صلى الله عليه وسلم إداوةً لوضوئه وحاجته، فبينما هو يتبعه بها فقال: «من هذا». فقال: أنا أبو هريرة. فقال: «ابغني أحجارًا أستنفض بها، ولا تأتني بعظم ولا بروثةٍ». فأتيته بأحجارٍ أحملها في طَرف ثوبي حتى وضعت إلى جنبه ثم انصرفت، حتى إذا فرغ مشيت، فقلت: ما بال العظم والروثة؟ قال: «هما من طعام الجن، وإنه أتاني وفد جن نصيبين ونعم الجن، فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظمٍ ولا بروثةٍ إلا وجدوا عليها طعامًا»)[2].

وليلة الجن هي ليلة نصيبين الشهيرة التي نزل بشأنها قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ – ٣٠].

فدل الحديثان على أن الجن يأكلون الطعام، وأن طعامهم العظم والروث ونحوه مما ذكر في الحديث.

٣. ما رواه أبو داود عن أمية بن مخشي -وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم- قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا ورجلٌ يأكل فلم يسم حتى لم يبق من طعامه إلا لقمةٌ فلما رفعها إلى فيه قال: بسم الله أوله وآخره فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «ما زال الشيطان يأكل معه فلما ذكر اسم الله عز وجل استقاء ما في بطنه»)[3].

والحديث دليل على أن أكل الجن إنما هو مضغ وبلع مثل الإنس.

الفريق الثاني: يرى أن أكلهم وشربهم تشمم واسترواح لا مضغ وبلع[4].

القول الثاني: أن صنفًا منهم يأكلون ويشربون، وصنفًا لا يأكلون ولا يشربون[5].

ويشهد لهذا القول أثر مروي عن وهب، فقد أخرج الطبري عن عبد الصمد بن معقل.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم ١٠٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ذكر الجن، رقم ٣٨٦٠.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأطعمة باب التسمية على الطعام، رقم ٣٧٧٠، وأخرجه الطبراني في الكبير، ١/ ٢٩٢، رقم ٨٥٥، والحاكم في المستدرك، ٤/ ١٢١، رقم ٧٠٨٩.
وصححه الحاكم، وضعفه الألباني في إرواء الغليل، ٧/ ٢٦، لأن في إسناده راويًا مجهولًا.

(٤) آكام المرجان في أحكام الجان، الشبيلي ص٣٣.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٠٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٥٦.

قال: سمعت وهب بن منبه، وسئل عن الجن ما هم، وهل يأكلون أو يشربون، أو يموتون، أو يتناكحون؟ قال: هم أجناس، فأما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون، ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون ويموتون، وهي هذه التي منها السعالي والغول وأشباه ذلك[1].

القول الثالث: أن جميع الجن لا يأكلون ولا يشربون، وهذا قول محكي عن بعض الأطباء والفلاسفة، وقد وصفه بعض العلماء بأنه قول ساقط[2].

٣. أكل الحيوانات.

لم يرد في القرآن الكريم ذكر أكل الحيوانات كثيرًا، إلا في مواضع قليلة على الرغم من ورود ذكر حيوانات متعددة في القرآن الكريم، وبيان ذلك على النحو التالي:

أولًا: الوحي إلى النحل بالأكل من كل الثمرات.

من نعم الله تعالى وإعجازه في خلق النحل أنه أوحى إليه باتخاذ مساكنه من الجبال والشجر ومما صنعه الناس من عرائش، وأباح له جل شأنه أن يأكل من كل الثمرات التي خلقها الله عز وجل، لينتج شراب العسل الذي هو غذاء ودواء، فقال جل شأنه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩].

ولفظة (من) في الآية حملها بعض المفسرين على التبعيض، وحملها بعض آخر على ابتداء الغاية[3].

ولفظة (كل) في الآية يرى أكثر المفسرين على أنها ليست للعموم، وقيل: المقصود إباحة الأكل لها من أي ثمرة تشتهيها[4].

قال الرازي: «لفظة (من) ههنا للتبعيض أو لابتداء الغاية... ألهم الله تعالى هذا النحل حتى أنها تلتقط تلك الذرات من الأزهار وأوراق الأشجار بأفواهها وتأكلها وتغتذي بها، فإذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرى شيئًا من تلك الأجزاء وذهبت بها إلى بيوتها ووضعتها هناك؛ لأنها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها، فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير فذاك هو العسل، ومن الناس من يقول: إن النحل تأكل من الأزهار الطيبة والأوراق المعطرة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٠٠.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٦.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٠٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٣٨.
(٤) انظر: الكشف والبيان، النيسابوري ٦/ ٢٨، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٩٦.

أشياء، ثم إنه تعالى يقلب تلك الأجسام في داخل بدنها عسلًا، ثم إنها تقيء مرة أخرى فذاك هو العسل، والقول الأول أقرب إلى العقل وأشد مناسبة إلى الاستقراء»(1).

ثانيًا: من نعم إنبات الزرع والثمار أنها طعام للحيوان:

ذكر الله سبحانه وتعالى صورًا من النعم التي أنعم بها على الإنسان والحيوان، منها إنبات أصناف مختلفة من الزروع والثمار ليأكل منها الإنسان، ويرعى أنعامه، فقال جل شأنه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣-٥٤].

وقد ذكر الإمام الرازي رحمه الله طرفًا من فوائد الأرض ما فيها من النبات المختلف ألوانه وأنواعه ومنافعه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧].

فاختلاف ألوانها دلالة، واختلاف طعومها دلالة، واختلاف روائحها دلالة؛ فمنها قوت البشر، ومنها قوت البهائم، كما قال: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾(2).

وأكل الحيوان للنبات قد يكون جافًا وقد يكون أخضر، وقد أشار ابن كثير رحمه الله إلى ذلك بقوله: ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضرًا ويابسًا(3).

ثالثًا: تشبيه حياة الكفار بحياة الأنعام في الأكل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

وقد سبق ذكر جامع الشبه بين الكفار وبين الأنعام في الحياة المجردة عن الأهداف والغايات، والتي هي فقط مجرد حياة أكل وشرب.

(1) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٣٨.
(2) المصدر السابق ٣/ ٣١٩.
(3) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٩٩.



آداب الأكل

للأكل آداب تحدث عنها القرآن الكريم نتناولها فيما يأتي:

١ . تحري الطيب من المأكولات.

أمر الله تعالى عباده بتحري طيب المطعم والابتعاد عن خبيثها، والطيب والخبث أعم من أن يكونا حسيين، بل يشمل ذلك الحسي والمعنوي، وقد أمر الله تعالى أنبياءه ورسله بالأكل من الطيبات، والأمر لهم أمر لأمتهم أيضًا.

كذلك أمر الله تعالى الناس عامة بتحري الطيب، وكذ أمر أصنافًا من الناس بتحري طيب المطعم، فأمر المؤمنين بالأكل من الطيب، وأمر بني إسرائيل كذلك، وذلك على النحو التالي:

١. جاء في شأن الرسل والأنبياء قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون:٥١].

٢. وجاء في شأن الناس جميعًا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨].

٣. ومما جاء في شأن المؤمنين قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

٤. وجاء في شأن بني إسرائيل قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

وقوله جل شأنه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وقوله جل ثناؤه: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٨١].

والناظر لهذه المواضع الثلاثة يجد أنها جاءت في معرض تعداد النعم التي أنعم الله عز وجل بها على بني إسرائيل.

٢ . الأكل مما ذكر اسم الله عليه.

أمر الله تعالى المؤمنين بالأكل مما سمي اسم الله عليه، وحذرهم مما لم يسم عليه، مبينًا لهم أنه فسق، وأنه من عمل الشيطان، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١].

أخرج الطبري عن عكرمة قال: «كان مما

أوحى الشياطين إلى أوليائهم من الإنس: كيف تعبدون شيئًا لا تأكلون مما قتل، وتأكلون أنتم ما قتلتم؟ فروي الحديث حتى بلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾».

وفي رواية: «أن ناسًا من المشركين دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أخبرنا عن الشاة إذا ماتت، من قتلها؟ فقال: الله قتلها. قالوا: فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلالٌ، وما قتله الله حرام! فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾»[(١)].

٣. تجنب الإسراف في الأكل.

جاء النهي عن الإسراف في القرآن الكريم صريحًا في موضعين كلاهما مرتبط بالأكل.

الأول: في آية زكاة الزروع والثمار.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١].

والثاني: في معرض إباحة التنعم بنعم الله تعالى من الملبس والمأكل والمشرب، وذلك في قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١].

قال البقاعي: «أمر بكسوة الباطن بالطعام والشراب لتوقف القدرة عادة عليها فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ وحسن ذلك أن بعضهم كان يتدين في الحج بالتضيق في ذلك، ولما أمر بالملبس والمطعم، نهى عن الاعتداء فيهما فقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بوضع شيء من ذلك فيما لا يكون أحق مواضعه -ولو بالزيادة على المعاء (جمع معي)- ومن ذلك أن يتبع السنة في الشرب فيسير؛ لأن العكر يرسب في الإناء فربما أذى من شربه، ولذلك نهى عن النفس في الإناء، وأما الطعام فليلعق الأصبع لنيل البركة وهو أنظف، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: لا يكرمهم، ولا شك أن من لا يحصل له شيءمن الخير فيحيط به كل شر، ومن جملة السرف الأكل في جميع البطن، والاقتصاد الاقتصار على الثلث»[(٢)].

وجاء ذم التبذير على جهة العموم والتقبيح من صنيع فعل المبذرين في قول الله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

وروى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير إسرافٍ ولا مخيلةٍ)[(٣)].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ٧٨، ٨٠.

(٢) نظم الدرر، ٣/ ٢٥.

(٣) أخرجه البخاري تعليقًا في صحيحه، كتاب اللباس باب قول الله تعالى: (قل من حرم زينة الله).

والأحاديث والآثار في النهي عن الإسراف كثيرة في كتب السنة.

٤ . شكر المنعم سبحانه وتعالى.

شكر المنعم سبحانه وتعالى فرض على كل مكلف كما ذهب إليه كثير من العلماء[١].

وقد ورد الأمر به في القرآن الكريم مرارًا لا سيما في المواضع التي فيها ذكر النعم من المأكل والمشرب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال جل شأنه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل: ١١٤].

أثر الأكل على العبد

للأكل آثار حسية ومعنوية على العبد نتناولها فيما يأتي:

أولًا: المأكولات الطيبة:

تترك المأكولات الطيبة أثرًا حسنًا حسيًا ومعنويًا، ومن تلك الآثار:

١ . المأكولات الطيبة سبب لاستجابة الدعاء.

إن أكل الطعام الطيب الحلال وشربه ولبسه والتغذي به سبب موجبٌ لإجابة الدعاء، والتوسع في الحرام أكلًا وشربًا ولبسًا وتغذيةً يمنع استجابة الدعاء[٢].

فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر: أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وملبسه حرامٌ، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ١٢١.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ص١٠٧.

لذلك؟!)[(١)].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة:١٦٨].

فقام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: **(يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يومًا وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به)**[(٢)].

قال ابن رجب الحنبلي: «ومن أعظم ما يحصل به طيبة الأعمال للمؤمن طيب مطعمه، وأن يكون من حلال، فبذلك يزكو عمله، وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى أنه لا يقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وإن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله، وبعد ذكره لنص الحديث قال: والمراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالًا، فالعمل صالح مقبولٌ، فإذا كان الأكل غير حلالٍ، فكيف يكون العمل مقبولًا؟ وما ذكره بعد ذلك من الدعاء، وأنه كيف يتقبل مع الحرام، فهو مثالٌ لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام»[(٣)].

٢. أن أكل الحلال وطيب المطعم أعون للمرء على العمل الصالح، وعلى الطاعة، وأن العمل الصالح لابد أن يكون مسبوقًا بأكل الحلال[(٤)].

قال ابن كثير: «يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام. وجمعوا بين كل خير، قولًا وعملًا ودلالة ونصحًا، فجزاهم الله عن العباد خيرًا»[(٥)].

وروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(أربع خلالٍ إذا أعطيتهن فلا يضرك ما عزل عنك من الدنيا: حسن خليقةٍ، وعفاف طعمةٍ، وصدق حديثٍ، وحفظ أمانةٍ)**[(٦)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم ٢٣٩٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/ ٣١٠، رقم ٦٤٩٥.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ٤/ ٢٩٢، رقم ١٨١٢.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص١٠٠.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٩١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٧٧.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب حسن الخلق إذا فقهوا، رقم ٢٨٨.

٣. المأكولات الطيبة عنصر لنمو الجسد وصحته وسلامته.

وهذه لا تحتاج لبرهان، فإن الشارع الحكيم حين أمرنا بتناول الطيبات وتجنب الخبائث، فنظرًا لما في الطيب من مزايا النفع للبدن، وسلامته من الأمراض، والمحافظة على صحة الإنسان؛ ولهذا نجد أن الشرع قد أمر الصائم بالإفطار على الطعام الطيب مثل: التمر واللبن ونحو ذلك مما فيه نفع للبدن وتقويته بعد الضعف الذي لحقه خلال الصيام.

ثانيًا: المأكولات الخبيثة:

للمأكولات الخبيثة آثار سيئة على النفس، وهذه الآثار لا تتوقف على جانب واحد، ولا على شخص واحد، فهي تضر بالبدن ضررًا حسيًّا ومعنويًّا.

١. المأكولات الخبيثة تضر بالجسم.

من حكمة الله تعالى أن حرم علينا تناول المأكولات الخبيثة؛ نظرًا لما تجلبه على الجسم من أضرار وأخطار، ولعل أبرز ما ورد في القرآن من الأطعمة الخبيثة: الميتة والدم ولحم الخنزير.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وهذه الثلاثة جامعة لطائفة من الأضرار والأمراض الفتاكة ما يعترف به الجميع قديمًا وحديثًا، ويكفي أن أشير هنا بإيجاز إلى طرف من هذه الأضرار:

١. أن التغيرات التي تحدث بعد موت الحيوان من ترسب الدم في جسمه بما يسمى في الطب بـ «الزرقة الجيفية» وتكون الأحماض بعدها، مما ينشأ عنه تكون الجراثيم الهوائية واللاهوائية، التي تؤدي إلى تعفن الحيوان وتكون روائح كريهة وآثار سامة تضر بجسم الإنسان إذا تناول الميتة[1].

٢. أن الحيوان قد يكون مات بسبب مرض معين، فيخشى من انتقال هذا المرض للإنسان.

٣. أن الخنزير جمع من الأضرار والمفاسد والخبائث ما لا يخفى على عاقل، وأن هذه الأضرار تطال كل أجهزة جسم الإنسان، وبعضها تظهر سريعًا على آكل الخنزير، وبعضها تكمن وتتراكم في البدن.

٢. المأكولات الخبيثة تؤدي إلى فساد الأعمال والطاعات.

وقد سبق ذكر قول النبي عليه السلام

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٧٣٣.

(١) انظر: الوقاية الصحية في الإسلام، وادع الشبيتي، مجلة البحوث الإسلامية، ٧١/ ٢٦٣.

«والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يومًا»[(١)].

وقال الغزالي نقلًا عن أحد العلماء: «إذا صمت يا مسكين فانظر عند من تفطر، وعلى أي شيء تفطر، فإن العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حالته الأولى، فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل وأخصها بالتأثير تناول الحرام؛ وتؤثر اللقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها، ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له؛ ولذلك قال بعضهم: كم من أكلة منعت قيام ليلة، وكم من نظرة منعت قراءة سورة، وإن العبد ليأكل أكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة»[(٢)].

٣. المأكولات الخبيثة تمنع استجابة الدعاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر: أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وملبسه حرامٌ، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟)[(٣)].

وهذا لا شك أنه مما يخيف المؤمن؛ لأن حاجته للدعاء أعظم حاجة، فدل هذا على أن إطابة المطعم من أعظم أسباب إجابة الدعاء، وأنه إذا تخلف هذا السبب ولو وجدت الأسباب الأخر فإنها لا تجاب الدعوة غالبًا لقوله: (فأنى يستجاب لذلك).

٤. الأجساد النابتة من المأكولات الخبيثة مصيرها النار.

جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ [المائدة:٤٢].

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به)[(٤)].

فالأكل إذا كان طيبًا كان البدن طيبًا، وسلم من العذاب، وإذا تغذى البدن على حرام كان البدن آثمًا أو نجسًا.

موضوعات ذات صلة:

الحرام، الحلال، الحيوان، الشرب، الطعام، النبات

(١) سبق تخريجه.
(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٣٥٦.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.





عناصر الموضوع

مفهوم الإلحاد	٢٢٢
الإلحاد في الاستعمال القرآني	٢٢٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٢٤
صور الإلحاد في ضوء القرآن	٢٢٦
أسباب الإلحاد	٢٤٤
منهج القرآن في إبطال الإلحاد	٢٤٧
آثار الإلحاد على الفرد والمجتمع	٢٥١



مفهوم الإلحاد

أولًا: المعنى اللغوي:

مادة (ل ح د) تدل على معنى ميل عن استقامة، فيقال: (لحد السهم عن الهدف)، أي: عدل عنه، واللحد: حفرة مائلة عن الوسط، وفلان عدل عن الحق وأدخل فيه ما ليس منه، ويقال: (ألحد إليه)، مال عنه، وألحد الرجل، أي: ظلم في الحرم واستحل حرمته وانتهكها، ولحد الرجل في الدين، طعن وحاد عنه وعدل وجادل ومارى، ولحد. أي: مال عن طريق القصد، وجار وظلم[(١)].

والملحد: «الطاعن في الدين المائل عنه»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو: «الميل، والجور، والانحراف عن الإسلام، أو الإيمان»[(٣)].

وقد عرفه ابن عاشور بقوله: «لما كان وسط الشيء يشبه به الحق والصواب، استتبع ذلك تشبيه العدول عن الحق إلى الباطل بإلحاد، فأطلق الإلحاد على الكفر والفساد»[(٤)].

والمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي إلا أنه خص بالانحراف في الإسلام.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩٠، مختار الصحاح، الرازي ص٢٤٧، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٣٨، المصباح المنير، الفيومي ص٣٢٧.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٥٠.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧٢.

(٤) التحرير والتنوير ٩/ ١٨٩.



الإلحاد في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ل ح د) في القرآن (٦) مرات، منها مادة (ألحد) (٤) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٣	﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف:١٨٠]
المصدر	١	﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥]

وجاء الإلحاد في القرآن بمعناه في اللغة وهو: الميل عن الحق[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٤٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٧٣٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الردة:

الردة لغةً:

«من ردد بمعنى: رجع، وارتد الشخص، أي: رد نفسه إلى الكفر»(١).

الردة اصطلاحًا:

«الرجوع من الإسلام إلى الكفر»(٢).

الصلة بين الإلحاد والردة:

الإلحاد هو زيغ وانحراف وميل عن الحق، والردة تكون بالنكوص والرجوع عن الإسلام، فهما مشتركان في الكفر.

٢ الكفر:

الكفر لغةً:

الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كفر درعه، والمكفر: الرجل المتغطي بسلاحه، وهو ضد الايمان، لأنه تغطية للحق(٣).

الكفر اصطلاحًا:

«الجحود بالوحدانية أو النبوة، أو الشريعة، أو بثلاثتها»(٤).

الصلة بين الإلحاد والكفر:

الكفر هو إنكار وجحود الإيمان، والإلحاد صورة من صور الكفر.

(١) المصباح المنير، الفيومي ص١٣٧.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢١٣.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩١.
(٤) انظر: المفردات، الأصفهاني ص٤٧٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩١.



٣ الزيغ:

الزيغ لغةً:

«الزيغ: الميل عن الاستقامة، والتزايغ: التمايل، ورجل زائغ وقوم زاغة وزائغون، وزاغت الشمس، وزاغ البصر»[١].

الزيغ اصطلاحًا:

الميل عن الحق إلى الباطل، والتحول من الإيمان إلى الكفر.

الصلة بين الإلحاد والزيغ:

كلاهما يشترك في الانحراف عن الحق، والتشكك في الإيمان وأصوله.

٤ الاستقامة:

الاستقامة لغةً:

«الاعتدال»[٢].

الاستقامة اصطلاحًا:

هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة وترك المنهيات كلها كذلك[٣].

الصلة بين الإلحاد والاستقامة:

الإلحاد ميل عن الحق ومفارقته، والاستقامة الديمومة على الحق والبقاء عليه ولزومه، فالاستقامة تعني: الاعتدال، والإلحاد يعني: الانحراف فهما متضادان.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٤٠، مختار الصحاح، الرازي ص١١٨، المصباح المنير، الفيومي ص١٥٨.

(٢) مختار الصحاح، الرازي ص٢٣٢.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ١٩٣.

صور الإلحاد في ضوء القرآن

تعددت صور ومعاني الإلحاد في القرآن الكريم، وأبرز صور الإلحاد في القرآن الكفر والشرك والردة والنفاق، والإلحاد ضربان، وهما «إلحاد إلى الشرك بالله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب، فالأول ينافي الإيمان ويبطله، والثاني يوهن عراه ولا يبطله»[1]، والإلحاد له صور وأشكال متعددة كلها تصب في معاني الانحراف العقدي والسلوكي والتعبدي، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: الإلحاد في الألوهية:

توحيد الألوهية حق لله وحده، ولا يحل لعبده أن يشرك معه غيره، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، والإلحاد في ألوهيته هو ظلم وجور وتجاوز خطير في حق الخالق سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

«هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ أي: وحدني وقم بعبادتي من غير شريك، وصل لتذكرني.

وقيل: معناه: وأقم الصلاة عند ذكرك لي»[2]، جمعت الآية أصول توحيد الألوهية وهي توحيده وعبادته، فتوحيد الألوهية: «هو إفراد الله تعالى بالعبادة المستلزم لعبادة الله تعالى بكل ما شرع أن يعبد به من أعمال القلوب والجوارح، وأن لا يشرك معه غيره في شيء منها، مع عدم الاعتراف بعبادة غيره تعالى»[3] وأضل الخلق إلحادًا في الألوهية هم أهل الكتاب، والمشركون، والفرق الضالة الخارجة عن دين الإسلام.

وقد أورد القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم، وما من نبي ولا رسول إلا وأمر قومه بعبادة الله وإفراده بالعبادة.

قال تعالى عن الرسل في دعوتهم لأقوامهم: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٢٧٧.

(٣) عقيدة المؤمن، الجزائري ص١٠٢.

﴿غَيْرُهُ﴾[الأعراف: ٨٥].

هذه الدعوات قابلها أقوام الأنبياء والمرسلين بالصد والإساءة، إلا من رحمه الله بالإيمان بما جاء به الأنبياء، ومن صور رد هذه الدعوات والإلحاد فيها:

أولًا: إلحاد المشركين في الألوهية:

لقد بلغت عقول المشركين من السفاهة والانحطاط الفكري مبلغًا كبيرًا في الفساد والإلحاد في الألوهية، حتى عبدوا الحجارة من دون الله.

ومن صور إلحادهم في الألوهية:

١. عبادة الأصنام:

من أكبر إلحاد المشركين عبادتهم للأصنام من دون الله، مع علمهم عدم نفعها ولا ضرها.

قال تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

أي: «معتكفون على عبادتها»[(١)]، فكانوا يعبدون الأصنام ويجعلونها في بيوتهم، وفي حلهم وترحالهم، بل جعلت قريش الأصنام داخل الحرم المكي وداخل الكعبة، ولعظم إلحادهم في الألوهية قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان: ٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

«كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السماوات والأرض؟ أقروا، وقالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»[(٢)]، وهذا يمثل الذروة في الميل، والعوج، والزيغ عن الحق لعلمهم بذلك.

٢. نسبة الملائكة والجن لله:

ألحد المشركون في نسبة الولد لله بادعائهم أن الملائكة هم بنات الله، وكانوا يعبدونهم؛ لينالوا الشفاعة عند الله بزعمهم وإلحادهم في الله.

فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨-١٥٩].

أي: «إن كفار قريش قالوا: الملائكة بنات الله، والجنة: صنف من الملائكة يقال لهم: الجِنَّة»[(٣)].

٣. عبادة الملائكة:

اتخذ المشركون عبادتهم الملائكة ليكونوا وسطاء وشفعاء لهم عند الله فقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ١١١.
وانظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ١٦٩.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٥٤.

أي: «ولا يأمركم أن تعبدوا الملائكة والنبيين؛ لأن الذين قالوا: إن عيسى إله، عبدوه واتخذوه ربًا، وقال قوم من الكفار: إن الملائكة أربابنا، يقال لهم: الصابئون»[1].

٤. إلحاد العبادات:

ابتدعوا صلاة لهم ودعاءً بالتصفيق والتصفير إلحادًا وزيغًا عما شرعه الله من الصلاة والدعاء.

فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥].

أي: وما كان دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة، أو ما يضعون موضعها، إلا مكاءً صفيرًا، وتصديةً تصفيقًا، وقيل: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، مشبكين بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون[2]، والعبادات بهذه الكيفية التي لم يأذن بها الله إلحاد في الألوهية.

٥. التحريم والتحليل:

سلك المشركون في ذبائحهم وأنعامهم إلى إلحاد في التحليل والتحريم حسب أهوائهم وميلهم في الذبح، والأكل، والتوريث دون الاستناد لشريعة ربانية، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٨-١٣٩].

أي: إنهم حرموا أنعامًا وحرثًا وجعلوها لأصنامهم، أو لخدام الأصنام، وهذا قول وفعل لم يرد به شرع، وجعلوا ما في بطونها من اللبن أو الأجنة حلالًا للذكور، وحرامًا على الإناث[3]، وهذا من جورهم وظلمهم، واعتدائهم على حق الله في التحليل والتحريم.

ثانيًا: إلحاد أهل الكتاب:

تعددت صور إلحاد أهل الكتاب في الألوهية، وسطرها القرآن الكريم في العديد من الآيات.

ومن صور إلحاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

١. تأليه عزير وعيسى عليه السلام:

ألـهت اليهود العزير، وألهت النصارى عيسى عليه السلام وادعوا بنوتهما إلى الله إلحادًا عن دين الله، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ

(١) الوسيط، الواحدي، ١/ ٤٥٧.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٥٨.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٩٤.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠].

وسبب نزول هذه الآية أن ابن عباس قال: «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفي، ومحمد بن دحية، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله فأنزل الله الآية»[1].

٢. عبادة الأحبار والقساوسة:

استجاب أهل الكتاب لأحبارهم وقساوستهم لما أحلوا لهم من الحرام ما أحلوه، وحرموا ما حرموه عليهم، فكانت هذه عبادتهم لهم.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم عبادتهم بتحليل الحرام وتحريم الحلال، فعن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: (يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه)[2].

٣. رد حكم الله:

تعطيل ورد حكم التوراة من صور إلحاد اليهود والنصارى في حكم الله والإعراض عنه، فقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

أي: «أيريد أولئك الخارجون عن أمر الله ونهيه أن يحكموا بأحكام الجاهلية التي لا عدل فيها، بل الهوى هو الذي يحكم بأن يجعلوا أساس الحكم الميل والمداهنة؟ وهذه هي طريقة أهل الجاهلية»[3].

٤. نسبة بنوتهم لله:

نسب اليهود أنفسهم ببنوتهم لله تعالى وادعائهم محبته ظلمًا وبهتانًا، فذكر الله قولهم، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ

(١) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ص١١٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ١٠ من سورة التوبة، ٥/ ٢٧٨، رقم ٣٠٩٥.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٣٢٩٣.

(٣) المنتخب في تفسير القرآن، نخبة من علماء الأزهر، ١/ ١٥٥.

﴿يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

وسياق الآية أبرز وأوضح إلحاد وضلال اليهود والنصارى معًا، وهو «دعواهم أنهم ﴿أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وهو تبجح وسفه وضلال، فأمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم بقوله: قل لهم يا رسولنا: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾»[1]، وفي هذا تبكيت لهم، وتهديد ووعيد لإلحادهم في ألوهيته سبحانه.

ومن صور إلحاد أهل الكتاب الخاصة بشرائعهم:

إلحاد اليهود في الألوهية:

ورد في القرآن الكريم بعض صور إلحاد اليهود في الألوهية، التي تبرز وتوضح زيغ وانحراف وضلال اليهود، ومن هذه الصور:

١ . تبديل كلام الله وتحريفه:

ومن إلحاد اليهود تحريفهم كلام الله وتبديله؛ افتراءً، وميلًا وعدولًا عن الحق، فوصفهم الله بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾[المائدة: ٤١].

أي: إن إقدام القوم على التحريف لا بد وأن يكون لخوف ورهبة، أو لطمع ورغبة، والمقصد والمراد: إياكم وأن تحرفوا كتابي للخوف من الخلق والملوك والأشراف، فتعطلوا الحدود الواجبة عليهم واختلاقكم الحيل في سقوط تكاليف الله تعالى عنهم، والزيغ عن الحق[2].

٢ . عبادتهم العجل:

قال تعالى عن عبادتهم لعجل السامري الذي صنعه لهم وأمامهم من حليهم: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾[الأعراف: ١٤٨].

«يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من الحلي، فشكل لهم منه عجلًا جسدًا لا روح فيه وقد احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يسمع له خوار، أي: صوتٌ كصوت البقر»[3]، وعبادة جسد مصنوع من الذهب وهو لا يملك نفعًا ولا ضرًا هو إلحاد قبيح.

قولهم وفعلهم هذا يستحقون بسببه التقريع والتوبيخ، أي: كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهًا مع أنه ليس فيه شيء[4].

وبهذا الإلحاد استوجبوا عقاب الله تعالى وغضبه عليهم لانحرافهم وزيغهم في حقه تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

---

(١) أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٦١٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٦٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٧.

(٤) صفوة التفاسير، الصابوني ١٧/ ٤٣٧.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

٣. طلبهم الإلهة:

قال تعالى واصفًا إلحادهم في طلب الإله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

«كان أولئك القوم من لخم، وكانوا نزولًا بالرقة وقيل: كانت أصنامهم تماثيل بقر، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ نظيره قول جهال الأعراب -وقد رأوا شجرة تسمى ذات أنواط يعظمونها في كل سنة يومًا-: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»[(١)].

إلحاد النصارى في الألوهية:

لم يكن النصارى بعيدين عن اليهود في إلحادهم في الألوهية بل قاربوا اليهود في ضلالهم وانحرافهم وزيغهم عن الحق، ومن صور إلحاد النصارى في الألوهية:

١. تأليه المسيح:

ألحد النصارى في جعل المسيح عيسى عليه السلام إلهًا من دون الله، فقال تعالى عن إلحادهم في ألوهيته: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾[المائدة: ١٧].

«يقول تعالى مخبرًا وحاكيًا بكفر

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٧٣.

النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم، وهو عبد من عباد الله، وخلقٌ من خلقه أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا»[(٢)].

وهذا القول من أضل صور الإلحاد في الألوهية، وبه أضلوا أتباعهم «وهو كفر من أقبح أنواع الكفر، وهذا وإن لم يكن قول أكثر النصارى فإنهم بانتمائهم إلى النصرانية وقولهم بها وانخراطهم في تعاليمها يؤاخذون به؛ لأن الرضا بالكفر كفر»[(٣)].

٢. الشرك بالله:

ومن إلحاد النصارى عقيدة التثليث -الأب والابن وروح القدس- بنسبة الشريك لله، فذكر الله كفرهم وإلحادهم فقال: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [المائدة: ٧٣].

أي: «أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة، فقوله ثالث ثلاثةٍ، أي: أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة»[(٤)].

ووصف الله بهذه الصورة إلحاد وزيغ واضح وبين في الألوهية -تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا-.

٣. تعطيل حكم الله:

أمر الله النصارى بالاحتكام إلى الإنجيل،

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٦١.
(٣) أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٦١٢.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٤٠٨.
وانظر: الوسيط، الواحدي، ٢/ ٢١٣.

فألحدوا فيه وزاغوا عنه بالاحتكام لغير منهجه، فقال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧].

وفي الآية «إشارة إلى الكهان الذين كانوا يأخذون الحلوان ويحكمون بحسبه وبحسب الشهوات»[1].

ثالثًا: إلحاد الفرق الضالة في الألوهية:

ضج التاريخ الإسلامي بالفرق الضالة التي اتبعت غير سبيل المؤمنين، فمنها التي ألهت علي بن أبي طالب أو الحاكم بأمر الله الفاطمي وغيرهما من الباطنية، وحكمت شرع الجاهلية، وعطلت حكم الله، وأحلت الحرام وحرمت الحلال وغير ذلك، ومن صور الإلحاد عند الفرق الضالة في الألوهية:

١. تحريم الحلال وتحليل الحرام:

التحليل والتحريم حق لله وحده ولا يجوز لأحد أن يحرم ما أحله الله أو يحل ما حرمه الله، فمن فعل ذلك فقد ألحد في ألوهية الله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

والآية تعني: «لا تقولوا لوصف ألسنتكم أو لأجل وصفكم الكذب أنكم تحلون وتحرمون لأجل الكذب لا لغيره، هذا حلال وهذا حرام، يعني البحيرة والسائبة؛ لتفتروا على الله الكذب، فتقولون إن الله أمرنا بهذا»[2].

ومن أشكال التحريم والتحليل والكذب على الله إصدار الفتوى بغير علم أو لتحقيق هدف أو انتصار لمذهب أو تزلف لسلطان أو حاكم.

٢. الإلحاد في الحاكمية:

تعتبر الحاكمية من أخص صفات الألوهية؛ لذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

[المائدة: ٤٩-٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فأما قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقوله

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢٠٣.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٠١.

تعالى بعدها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[المائدة: ٤٥]. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[المائدة: ٤٧].

فقد تباينت آراء العلماء فيمن نزلت على خمسة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في اليهود خاصة.

والثاني: أنها نزلت في المسلمين.

والثالث: أنها عامة في اليهود، وفي هذه الأمة.

والرابع: أنها نزلت في اليهود والنصارى.

والخامس: أن الأولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى.

وخلاصة القول: إن من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا له، وهو يعلم أن الله أنزله، كما فعلت اليهود، فهو كافر، ومن لم يحكم به ميلًا إلى الهوى من غير جحود، فهو ظالم وفاسق[(١)].

وفي جميع هذه الحالات الحكم بغير ما أنزل الله هو إلحاد وانحراف وعوج عن دين الله تعالى وحكمه وشرعه.

وختامًا فالإلحاد في الألوهية عند أهل الكتاب والمشركين والفرق الضالة له صور كثيرة غير ما أسلفنا، ومنها صرف القلوب بالخشية والخوف والحب والرجاء والنذر والذبح والركوع والسجود وما شابه لغير الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

أي: «ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أندادًا، أي: رؤساء وأصنامًا، يعظمونهم ويخضعون لهم»[(٢)].

٣. الإلحاد في أسماء الله وصفاته:

لقد سمى الله نفسه في القرآن الكريم بأسماء، ووصف نفسه بصفات لا تصح لغيره سبحانه تنزهت أسماؤه وعلت صفاته، فالأسماء الحسنى لا تكون إلا لله، والصفات العلى له، وهي محصورة ومقصورة على الله، ويجب أن تكون موصوفة بالحسن والكمال والجمال والجلال، وأي تعطيل أو تكييف أو تمثيل أو تشبيه فيها هو ضرب من ضروب الإلحاد.

وقد جعل الله «الإلحاد في أسمائه مظهرًا من مظاهر الكفر، وذلك بإنكار تسميته تعالى بالأسماء الدالة على صفات ثابتة له، وهو الأحق بكمال مدلولها»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[الأعراف: ١٨٠].

«والمراد من الأسماء في الآية وأحاديث

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٥٥٣.

(٢) صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٩٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ١٨٩.

الرسول: التسميات بلا خلاف، وهي عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى، منها ما يستحقه لنفسه، ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به، ومنها صفات لذاته، ومنها صفات أفعال، وهذه الأسماء عند العلماء توقيفية، فلا يسمى باسم لم يرد في القرآن والسنة كالرفيق والسخي والعاقل»[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة)[2].

ومعنى أحصاها: «عدها وحفظها وتفكر في مدلولها»[3].

وقد سمى الله نفسه ووصف ذاته قائلًا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨].

وقال: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٠٣].

وقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

هذه الشواهد تبرز بمعنى واضح لا لبس فيه بتسمية الله نفسه بأسماء مثل الله، اللطيف، الخبير، السميع، البصير كما في الآيات السابقة وغيرها، وكذا الصفات السميع والبصير، وعدم وجود الشبيه أو المثيل له وأي ميل أو زيغ أو انحراف عنها هو إلحاد في أسمائه وصفاته تعالى.

ووردت عدة أقوال في الإلحاد في أسماء الله وصفاته ومنها:

قول الراغب الأصفهاني: «الإلحاد في أسماء الله على وجهين:

أحدهما: أن يوصف بما لا يصح وصفه به.

والثاني: أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به»[4].

وقال الزحيلي: «والإلحاد يكون بثلاثة أوجه:

أحدها: بالتغيير فيها كما فعله المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان.

الثاني: بالزيادة فيها، أي: التشبيه، فالمشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه.

الثالث: بالنقصان منها، أي: التعطيل، فالمعطلة سلبوه ما اتصف به، كما يفعل الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه، ويذكرونه بغير ما

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا، ٦/ ٢٦٩١، رقم ٦٩٥٧.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ١٧٣.
(٤) المفردات ص٤٩٥.

يذكر من أفعاله، وهكذا»[1].

خلاصة هذه الأقوال: إن الإلحاد في أسماء الله وصفاته يكون بالزيادة عليها أو إنقاصها، أو تبديلها وتغييرها والاشتقاق منها.

والتعطيل والتحريف والتمثيل والتكييف في أسماء الله وصفاته أوقع المشبهة والمعطلة في الضلال والإلحاد في أسماء الله وصفاته، ووجه ذلك أن الأسماء: «ألفاظ دالة على المعاني، فهي إنما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنى للحسن في حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ونعوت الجلال، وهي محصورة في نوعين: عدم افتقاره إلى غيره، وثبوت افتقار غيره إليه»[2].

ونفي معاني الأسماء الحسنى من أقبح وأفحش معاني الإلحاد في أسماء الله الحسنى.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

أي: «نفي معاني أسماء الله من أعظم الإلحاد»[3].

ومن ألحد في أسماء الله وصفاته أهل الكتاب والمشركون وغيرهم.

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ١٧٤.
(٢) المصدر السابق، ٩/ ١٧٥.
(٣) الإيمان بالله جل جلاله، الصلابي ص١١٥.

أولًا: إلحاد المشركين في أسماء الله وصفاته:

ورد في القرآن الكريم العديد من صور إلحاد المشركين في أسماء الله وصفاته ومنها:

١ . اشتقاق المشركين أسماء لآلهتهم من أسمائه سبحانه:

نسب المشركون بعض أسماء الله إلى آلهتهم ظلمًا وافتراء على الله ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ «يميلون عن الحق، حيث اشتقوا منها أسماء لآلهتهم، كاللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة: من المنان»[4].

وفي ذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

«اللات وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، -تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا-، وكذا العزى من العزيز، وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها

(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧١.

ويهلون منها للحج إلى الكعبة»[1].

٢. إنكارهم اسم الرحمن:

لم يعترف المشركون باسم الله الرحمن زعمًا منهم أنهم لا يعرفونه بهذا الاسم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

«أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم»[2]، وقيل: «سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحجر ويقول: (يا الله يا رحمن)، فقال: كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين، فنزلت هذه الآية، ونزل ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

ثانيًا: إلحاد اليهود في أسماء الله وصفاته:

ورد في القرآن الكريم بعض صور إلحاد اليهود في أسماء الله وصفاته، مما يسفر عما في قلوبهم من زيغ وانحراف وضلال.

ومن هذه الصور:

١. وصفوا الله بالفقر:

وصف الله نفسه في القرآن الكريم بأنه الغني والمعطي والكريم، وألحد اليهود في اسمه الغني وصفته، وسموه ووصفوه بالفقير، فقال الله تعالى عن إلحادهم: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

«قيل: نزلت هذه الآية في اليهود. قالوا لما نزل قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]: إن الله فقير يستقرضنا ونحن أغنياء»[3].

٢. وصفوا الله بالبخل:

ذكر الله إلحاد اليهود في صفاته وتعديهم على ذاته الإلهية بوصفهم الله بالبخل -تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا-، وهو الجواد الكريم المعطي، فحقت عليهم اللعنة.

فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ...﴾ [المائدة: ٦٤].

«عن ابن عباس أنه قال: ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة، لكنهم يقولون: إنه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٢٢- ٤٢٣.

(٢) المصدر السابق، ٤/ ٣٩٦.

(٣) الوسيط، الواحدي، ١/ ٥٢٨.

بخيل أمسك ما عنده، -تعالى ربنا عما يقول الظالمون-»[1].

ثالثًا: إلحاد الفرق الضالة في أسماء الله وصفاته:

ألحدت بعض الفرق التي تدعي الإسلام في أسماء الله وصفاته إما بالنفي أو التشبيه «فمن نفى عنه ما وصف به نفسه، وسماها به من أسماء فقد كفر، ومن شبه تلك الأسماء والصفات بأسماء وصفات المحدثين فقد كفر وأشرك»[2].

ومن صور إلحاد الفرق الضالة ممن يدعون الإسلام:

التأويل:

فيؤولون «استواء الله تعالى على العرش بالاستيلاء فرارًا من وصف الله تعالى بالاستواء على عرشه، وتأويل صفة العلو بالقهر فرارًا من وصف الجهة والتحيز»[3].

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

«أولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأما أهل السنة فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى، بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل»[4].

فلا يحل أن يسمى الله أو يوصف بما لا يليق به، ومن وقع في ذلك فقد ألحد في أسماء الله وصفاته.

ثانيًا: الإلحاد في الكتب المنزلة:

تعرضت الكتب السماوية الأولى للعديد من صور التحريف والتكتم والنكران من أهل الكتاب.

قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾ [البقرة: ٧٩].

ومن رحمة الله بهذه الأمة تنزيل القرآن الكريم، والذي تكفل الله بحفظه، وكشف ما ألحده أهل الكتاب في كتبهم الأولى، ومنها:

أولًا: إلحاد المشركين في كتاب الله:

من صور إلحاد المشركين في القرآن والتشكيك والطعن فيه:

١. نسبة القرآن للسان أعجمي:

ألحد المشركون في القرآن بأن نسبوه

(١) أخرجه الطبري في تفسيره، ١٠/ ٤٥٢.
(٢) عقيدة المؤمن، الجزائري ص ١١٠.
(٣) المصدر السابق ص ١١٠.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٧٣.

لنصراني أعجمي يلقيه على النبي صلى الله عليه وسلم فرد الله عليهم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

«فمعنى يلحدون: يميلون عن الحق، فهم يتركون الحق القويم من أنه كلام منزلٌ من الله إلى أن يقولوا يعلمه بشر، فذلك ميل عن الحق، وهو إلحاد»(١).

فهم يلحدون في نسبة كلام الله الذي يتلوه عليهم النبي إلى لسان رومي أعجمي، وكلام الله نزل بلسان عربي، والله قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

أي: «أنزلناه بلغة العرب فصيحًا واضحًا، حتى تفهمونه وتتدبرونه»(٢)، فنسبة القرآن للعجمية إلحاد وزيغ عن وصفه قرآنًا عربيًا.

٢. الكذب على الله.

ومثاله قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

قال القرطبي: «والمعنى في هذه الآية ما سمى الله، ولا سن ذلك حكمًا، ولا تعبد به شرعًا»(٣).

فالكذب في سن أحكام ونسبة ذلك لله تعالى، إلحاد في التشريع.

ثانيًا: إلحاد أهل الكتاب في الكتب المنزلة:

فضح القرآن الكريم إفساد اليهود والنصارى في كتبهم وإلحادهم فيها، بالتحريف أو الإنكار أو التأويل الفاسد، ومن صور إلحاد أهل الكتاب في التوراة والإنجيل:

١. الكفر بآيات الله:

ذكر الله كفر أهل الكتاب بآياته فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

أي: «يكفرون بآيات الكتب المتلوة مطلقًا، أو التوراة أو آيات منها كالآيات التي فيها صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو التي فيها الرجم أو القرآن، وفي إضافة الآيات إلى اسمه تعالى زيادة تشنيع عليهم، ويدأ سبحانه بكفرهم بآياته؛ لأنه أعظم كل

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ٢٨٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢١٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٣٣٥.

عظيم»[1].

٢. تحريف الكلم عن مواضعه:

قال تعالى فاضحًا بعض خبايا اليهود القذرة، ومنها إلحادهم في كلامه سبحانه بتحريفه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١].

وقال تعالى عنهم مرة ثانية: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

أي: إن اليهود كانوا «﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

ومن أمثلتها قال تعالى لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩].

أمرهم الله تعالى «أن يدخلوها سجدًا...، علامة على التواضع والخشوع، ويقولوا: حطة... أي: حط عنا ذنوبنا واغفر لنا، دخلوها على غير الهيئة التي أمروا بها، وقالوا قولًا آخر غير الذي أمروا به»[2]، «فقد بدلوا الحطة بالحنطة والحنطة هي القمح»[3] وقالوا: «حبة في شعرة»[4]، ومن تحريفهم للكلم قوله تعالى عنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وتحريفهم الكلم جاء بعد عقلهم إياه وعلمهم به مبالغة في إلحادهم وزيغهم.

قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

والاستفهام هنا «للاستبعاد أو للإنكار التوبيخي»[5]؛ لإلحادهم القبيح في كتبهم.

٣. إخفاء وكتمان الآيات والأحكام:

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

أي: «﴿فَنَبَذُوهُ﴾ أي: الميثاق، ﴿وَرَآءَ

(١) روح المعاني، الألوسي، ١/ ٣٤٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٧٣.

(٣) تفسير الشعراوي، ١/ ١٩٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، ٤/ ١٦٢٧، رقم ٤٢٠٩.

(٥) روح المعاني، الألوسي، ١/ ٣٧٣.

﴿ظُهُورِهِمْ﴾ فلم يراعوه ولم يلتفتوا إليه، وهذا مثل في ترك الاعتداد وعدم الالتفات»[1].

ومنها إخفاؤهم وكتمانهم آية وحكم رجم الزاني، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأةً زنيا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟). فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة»[2].

٤. تجزئة الكتاب وتقسيمه:

فرق أهل الكتاب بين أحكام الله، فقبلوا ما ناسب أهواءهم وردوا ما خالفها.

فقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

لذا حذر الله تعالى المؤمنين من الإيمان ببعض الكتاب ورد بعضه كما فعل اليهود والنصارى فقال: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩٠-٩١].

«أي: قسموه إلى حق وباطل حيث قالوا عنادًا وعداوة، بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما»[3].

فمن يفعل فعلهم من المسلمين بتجزئة القرآن وأخذ بعض أحكامه وترك بعضها فهو إلحاد في القرآن، مشابهة لليهود والنصارى.

٥. نكران نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يعني: «محمدًا صلى الله عليه وسلم، جاء بالقرآن بصدق التوراة في الأخبار والأقاصيص، ﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾ بالإيمان والنصرة له، وقبلتم؟

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله إلى العربية، ٩/ ١٥٨، رقم ٧٥٤٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، ٣/ ١٣٢٦، رقم ١٦٩٩.

(٣) روح المعاني، الألوسي، ١٠/ ٧٢.

قالوا: ﴿أَقْرَرْنَا﴾، فقال الله للنبيين: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم»[1].

وقيل: «عهد إليهم في محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به.

قال مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا عهدًا في محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]»[2].

٦. التدليس في كتابة الكتب السماوية:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ [البقرة: ٧٩].

أي: «يكتبون الكتاب أي: المحرف، أو ما كتبوه من التأويلات الزائغة بأيديهم، فإن نسبة المحرف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحًا أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل؛ ليشتروا به أي: يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ثمنًا، هو ما أخذوه من الرشا بمقابلة ما فعلوا من التحريف والتأويل»[3].

وهذا تدليس على الكتب السماوية وإلحاد واضح عن الحق النازل من عند الله، ومنها:

* تعطيل أحكام الكتب: الاحتكام إلى غير كتاب الله هو إلحاد وزيغ وميل عن كتب الله، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. «أي: ولا تستبدلوا بأحكامي التي أنزلتها، الرشوة والجاه، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ مستهينًا به منكرًا له ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره، ولذلك وصفهم بقوله: ﴿الْكَافِرُونَ﴾ و﴿الظَّالِمُونَ﴾ و﴿الْفَاسِقُونَ﴾»[4].

* لي اللسان بالآيات: بإدخالهم في الكتب ما ليس منها، ولي اللسان بالآيات؛ لتحريفها عن معناها الصحيح؛ إلحادًا في كتاب الله. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ٧٨]. «﴿يَلْوُونَ﴾ على التكثير، إذا أماله، ومنه والمعنى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ ويعدلون به عن القصد، وأصل اللي: الميل، لوى بيده، ولوى برأسه.

(١) الوسيط، الواحدي، ١/ ٤٥٨.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ١/ ١٤٦.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٢٠.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٢٨.

قوله تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [النساء: ٤٦]. أي: عنادًا عن الحق، وميل عنه إلى غيره»(١).

ثالثًا: إلحاد الفرق الضالة في كتاب الله:

ومن صور إلحاد الفرق الضالة التأويل المنحرف لآيات القرآن.

ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠].

أي: «ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة»(٢)، ويلحدون في الآيات أي: «يميلون عن الحق، فيضعون الكلام في غير موضعه، ويحرفون كلام الله وآياته الدالة على قدرته وحكمته، لا يخفون علينا، سنجازيهم بما يعملون بالعقوبة والنكال، وفي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد، يقتضي الحذر والخوف»(٣)؛ لذا فضحهم الله في إلحادهم وهددهم بالوعيد لهم.

ثالثًا: الإلحاد في الحرم:

يعد الحرم المكي من أعظم الأماكن حرمة وتعظيمًا عند الله تعالى .

قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

وبارك في هذا البيت، وجعل في آيات للناس، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[آل عمران: ٩٦-٩٧].

وجعل مكة كلها حرمًا آمنا تعظيمًا للبيت الحرام، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١)﴾ [النمل: ٩١].

«﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: الذي إنما صارت حرامًا شرعًا وقدرًا بتحريمه لها، وعن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، **فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها**)(٤)»(٥).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

أتاح الله لهم بلدًا هو حرم آمن يكونون

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ١٢١.
(٢) الموسوعة القرآنية، إبراهيم الإبياري، ١١/ ١٢٣.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٤/ ٢٤٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشدٍ على الدوام، ٢/ ٩٨٦، رقم ١٣٥٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٩٦.

فيه آمنين من العدو»[1]، ولقد كانت قريش تسافر وتتاجر في الأرض وهي آمنة لا تنسابها للحرم المكي.

ومن صور الإلحاد في الحرم:

١. قتل الصيد في الحرم:

نهى القرآن الكريم عن الصيد في الحرم وحال الإحرام، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[المائدة: ٩٥].

وقال: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾[المائدة: ٩٦].

وقتل الصيد في الحرم إلحاد فيه؛ لأنه هتك لحرمة الحرم.

٢. الصد عن المسجد الحرام:

الصد عن المسجد الحرام إلحاد فيه، لذا حذر الله من الصد عن الحرم، بصد الناس ومنعهم من الصلاة فيه أو الحج إليه.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الحج: ٢٥].

وقد عاب الله على أهل مكة بمنعهم النبي صلى الله عليه وسلم والصحب الكرام من أداء العمرة ودخول البيت يوم الحديبية فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ١٤٨.

[الفتح: ٢٥].

«يعني كفار مكة، ومعنى صدهم عن المسجد الحرام: أنهم منعوهم أن يطوفوا به ويحلوا عن عمرتهم»[2]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾[البقرة: ١١٤].

والمراد هنا «هم المشركون حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت يوم الحديبية»[3].

٣. اقتراف المعاصي في الحرم أو الهم بها:

اقتراف المعاصي الصغيرة أو الكبيرة في الحرم أو إرادة المعصية والهم بها في الحرم هي إلحاد في الحرم وانتهاك لحرمته وعظمته؛ لذا قال تعالى عن الإلحاد والهم به في البيت الحرام: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الحج: ٢٥].

أي: «عادلًا عن القصد والاستقامة، ظالمًا، أو يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار، عامدًا قاصدًا، وهو من خصوصية الحرم»[4].

وقيل: « ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ الانحراف والميل نحو الظلم والبغي»[5]، والإلحاد

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٧٦.
(٣) المصدر السابق، ١/ ٢٠٥.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ١٧/ ١٨٨.
(٥) التفسير الحديث، دروزة، ٦/ ٢٣.

بمعنى: «المعاصي الكبار»[1]، والمقصد بالإلحاد هنا: «الظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر، فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على النية السيئة فيه»[2].

ومعلوم عند المسلمين أن المعصية تعظم في الحرم كما أن الأعمال الصالحة تعظم ويضاعف ثوابها لبركة المكان وعظمته وحرمته.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٤١١.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ١٧/ ١٨٩.

أسباب الإلحاد

سلوك الخلق الإلحاد في الدين عمومًا له أسباب عديدة، وهو سلوك مخالف ومناف للفطرة السليمة، ولا يسلك طريق الإلحاد إلا منحرف عقليًا أو قلبيًا، وأسباب الإلحاد متعددة، ومن هذه الأسباب:

أولًا: الجحود:

والجحود يقوم على رفض الإيمان بالرسل، ونكران الآيات التي جاءوا بها، مع علمهم بصدق الرسل.

قال تعالى عن قوم عاد: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

«جحودهم بآيات ربهم، وعصيان رسله. واتباع أمر الجبارين من عبيده»[3].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ثانيًا: الظلم والعلو:

الظلم انتقاص للحقوق، والعلو التكبر.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣-١٤].

«أي: ظالمين عالين، أي: الحامل لهم

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٤٤.

على ذلك الظلم والعلو، أي: جحدوا بها جحودًا ظلمًا وعلوًّا»[1].

وإلحادهم انتقاص من الآيات وتكبر عليها، رغم وضوحها وبيانها.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

أي: «إصرارًا منهم على الكفر»[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

«روي أن الوليد بن المغيرة كان يقول: لو كان ما يقوله محمد حقًا لنزل علي أو على أبي مسعود! فقال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[الزخرف: ٣٢]. يعني: النبوة فيضعونها حيث شاءوا»[3].

وهذا من مرض الكبر في قلب الوليد وظلمه وعلوه، وهو الذي قاده للإلحاد.

رابعًا: الجهل:

عدم المعرفة وسوء التقدير، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

«إنكم أيها القوم قوم تجهلون عظمة الله وواجب حقه عليكم، ولا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له ملك السماوات والأرض»[4]، فالذي حملهم على الإلحاد جهلهم بالله تعالى.

خامسًا: الغلو:

تجاوز الحدود المبالغ فيه، أو الإهمال والتقصير في المطلوب، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

«أي: في دينكم المخالف للحق، وذلك أنهم خالفوا الحق في دينهم، ثم غلوا فيه بالإصرار عليه»[5].

والغلو: هو التنطع في الدين، والإفراط والتفريط به.

سادسًا: الحقد والكراهية:

وهي أمراض قلبية تشتمل على الغل والبغض، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

أي: «من بعد ما تبين أن محمدًا رسول

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ١٨٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ٥١.
(٣) المصدر السابق، ١٦/ ٨٣.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٨٠.
(٥) الوسيط، الواحدي، ٢/ ٢١٤.

الله، يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسدًا وبغيًا، إذ كان من غيرهم»[(١)]، وحقدهم يهدف إلى حرف المؤمنين عن طريق الله وزوال نعم الإيمان عنهم، ومماثلتهم لليهود في إلحادهم.

سابعًا: المرض القلبي:

ليس المقصد هنا المرض العضوي، وإنما المرض المعنوي، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

«قالوا: قلوبنا في أكنة وأغطية وغلف»[(٢)]، وكأن الإلحاد مرض قلبي يجعل على قلوبهم غشاوة تحجب عنهم الإيمان.

ثامنًا: الإلحاد بالتضليل:

التضليل حمل الناس على الباطل، وهنا أمرهم بالتسوية بين الله والأصنام وهذا من الإلحاد.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٨-٩٩].

«والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم: رؤساؤهم وكبراؤهم»[(٣)]، حيث أمروهم وأضلوهم بالتسوية بين آلهتهم ورب العالمين؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

أي: «يعدلون بربهم الأوثان أي: يسوونها به سبحانه»[(٤)]، وتسويتهم بين الله وأصنامهم وعدلهم به، إلحاد ضلوا وأضلوا غيرهم به بما كان يمليه عليهم المجرمون الملحدون بالتسوية بين الله وأصنامهم.

تاسعًا: العداء لله تعالى وملائكته ورسله:

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

«أراد بعداوة الله مخالفته عنادًا، أو معاداة المقربين من عباده»[(٥)].

فالملحد عدو لله ولملائكته ورسله؛ لكفره بهم ولعداوته لهم.

والقرآن الكريم بهذه الأسباب يوجهنا إلى ضرورة تفقد القلوب من الأمراض القلبية؛ كالجحود والظلم والعلو والكبر وغيرها؛ لأنها تقود إلى الإلحاد والانحراف عن المنهج المستقيم، وعلاجها الاستشفاء بالقرآن الهادي بآياته ودلائله إلى الإيمان والتوحيد، وعدم اتباع الهوى والشهوات؛ لأنها مفسدة تؤدي إلى الإلحاد، والسلامة والنجاة من الإلحاد تكون باتباع هدي النبي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٦٥.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٣٢٤.
(٣) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٣٢٢.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٥٣.
(٥) المصدر السابق، ١/ ٩٦.

صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله.

فالهداية والرشاد والإيمان نعم من الله تعالى توجب الحمد والثناء على الله؛ لحفظه المؤمنين من الإلحاد الذي يكدر صفو حياتهم، وجعلهم يحيون بنور الإيمان.

منهج القرآن في ابطال الإلحاد

اتبع القرآن الكريم العديد من المناهج والأساليب المتنوعة في إبطال الإلحاد، وإيراد الأدلة والبراهين؛ لدحض الإلحاد، والرد على المنكرين لوجود الله، ومن هذه المناهج:

أولًا: الحوار الإقناعي:

وهو المحاجة بالتي هي أحسن من خلال ذكر الدليل بموضوعية وعقلانية؛ لإقامة الحجة على الملحدين، وقد ورد في القرآن الكريم العديد من صور المحاجة بين أنبياء الله وأقوامهم ومعانديهم.

ومنها حوار إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقد قص القرآن حجج إبراهيم في مواضع أخرى، فقال تعالى عن حوار إبراهيم مع النمرود وإقامة الحجة عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

[البقرة: ٢٥٨].

وحوار إبراهيم مع أبيه وقومه قال تعالى:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ
لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ
﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ
ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٤].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ
كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ
يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ
إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ
وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾

[الأنبياء: ٦٢-٦٧].

فبالرغم من بيان الدليل ألحدوا وكفروا، وهذا من منهج القرآن في مواجهة الإلحاد وإبطاله بالحوار الإقناعي للطرف الملحد بإبراز الأدلة والبراهين وإقامة الحجة عبر الحوار.

ومنه حوار موسى مع فرعون وإلجامه بالدليل والبرهان.

قال تعالى عنه: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا
تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ
رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ
﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ
ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ
﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾
فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا
هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٣٣].

فالحوار أحد أساليب القرآن لإبطال الإلحاد الفكري، ويكون بالحوار الفكري والمنطقي والعلمي.

ثانيًا: إيراد الأدلة والبراهين:

ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية التي تحمل الدليل والبرهان الساطع على إفراد الله وتوحيده، والرد على الملحدين في ألوهيته، ونفي الولد عنه، وفساد الكون في حال كان فيه شركاء.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

«أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال»[1].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٤٢٧.

﴿يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الإسراء: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٢].

«وهكذا الحق يصرف لنا الأمثال ويوضحها؛ ليجلي هذه الحقيقة بالعقل وبالنقل: لا إله إلا الله، واتخاذ آلهة معه سبحانه أمر باطل، وبذلك يرد على الذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل من قالوا: العزير ابن الله أو المسيح ابن الله، أو اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله»[(١)].

وهذا من منهج القرآن في رد الإلحاد وإبطاله بإيراد الأدلة والبراهين الساطعة على الملحدين.

ثالثًا: التحدي والإعجاز:

لقد تحدى القرآن الكريم الخلق جميعًا على معارضة القرآن أو الإتيان بمثله أو بعضه فعجزوا، وهذا التحدي المستمر والباقي هو أحد أساليب القرآن في الرد على الملحدين في كل زمان وفي أي مكان.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣-١٤].

أي: «لقد تحداهم بأن يأتوا أولًا بمثل القرآن، فلم يستطيعوا، ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور، فلم يستطيعوا، وتحداهم بأن يأتوا بسورة، ثم تحدى أن يأتوا ولو بحديث مثله، فلم يستطيعوا، وهنا جاء الحق سبحانه بالمرحلة الثانية من التحدي، وهو أن يأتوا بعشر سور»[(٢)].

ومثاله قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

هذا مثل؛ لبيان عجزهم عن خلق الذباب، والامتناع عما يفعل بهم وعجزهم إن أخذ الذباب منهم شيئًا ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ مع غاية ضعفه، ولقد جهلوا في إشراكهم بالله القادر على جميع المقدورات المنفرد بإيجاد كافة الموجودات، والتماثيل هي أعجز الأشياء قدرة على الخلق، وتعجز عن ذب الذباب عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه منها[(٣)].

عجز الخلق عن التحدي القرآني لهم،

---

(١) تفسير الشعراوي، ١/ ٥٨٤٢.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٤١٥٣.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ١٢١.

من أهم صور إبطال الإلحاد، واستمرارية هذا التحدي، وهذا الإعجاز يرد كيد الملحدين إلى نحورهم.

رابعًا: الدعوة إلى التوحيد:

الدعوة إلى الله من أهم أساليب القرآن في هداية الخلق إلى ربهم وإبعادهم عن الإلحاد، لما في الدعوة إلى الله من إنارة الطريق أمام المدعوين للدخول في رياض الإيمان، ومنهج القرآن هو دعوة المشركين عمومًا إلى التوحيد والعبادة، وتجديد الدعوة إلى الإيمان لأهل الكتاب.

ومثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

فالدعوة إلى الله منهج قرآني أصيل في إبطال الإلحاد، وسبيل سار عليه الأنبياء في هداية أتباعهم وإقامة الحجة عليهم يوم القيامة.

خامسًا: ضرب الأمثال:

تعتبر الأمثال من أبرز صور التقريب للأذهان التي سلكها وانتهجها القرآن الكريم في إقناع الخلق، والرد على الملحدين في شبهاتهم وانحرافهم عن الطريق المستقيم.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

«هذا إبراز لأعمال الكفار وعاقبتها؛ لعدم فعلها إيمانًا بالله، فهو تمثيل حال الذين كفروا في أعمالهم التي يعملونها وهم غير مؤمنين بحال من ركب البحر يرجو بلوغ غاية، فإذا هو في ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض لا يهتدي معها طريقًا، وهذا التمثيل من قبيل تشبيه حالة معقولة بحالة محسوسة»(١).

هذه بعض أساليب ووسائل القرآن في علاج وإبطال الإلحاد والرد عليه كمنهج قرآني أصيل في توجيه العباد لما يصلح حالهم ويردهم للصواب، ومن أعرض فقد رد حجة الله وبالغ في إلحاده وإعراضه عن المنهج القويم الذي جاء به المرسلون.

وهذه الأساليب في منهج القرآن في الرد على الإلحاد وإبطاله ترسم لنا الطريق وتهدينا إلى الإقبال على القرآن بقلب مفتوح دون حكم مسبق، والاستفادة من تعدد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/ ٢٥٥.

أساليب القرآن في إبطال الإلحاد والرد على شبهات الملحدين، ووضع الحلول لما أصاب قلوبهم من أمراض، وما أصاب عقولهم من اللوثة الفكرية، فالله خلق الناس على الفطرة السوية، والإلحاد مكتسب يمكن علاجه بالدعوة إلى الله.

آثار الإلحاد على الفرد والمجتمع

للإلحاد آثار ضارة على حياة الفرد والمجتمع لما فيه من الانحراف والزيغ عن الفطرة السوية السليمة، والخير والمنفعة لا تكون إلا بالالتزام بدين الله وتوحيده وعبادته كما أمر، وعدم العدول عنها، فإذا ما عدل الإنسان عنها فسدت دنياه وآخرته:

أولًا: أثر الإلحاد على الفرد:

إن انعكاس الإلحاد وأثره على الفرد سيء في حياته ونفسه ومعيشته، ومن آثار الإلحاد على الفرد:

١ . ضنك العيش.

توعد الله المعرض عنه والملحد في دينه بنكد العيش وصعوبة الحياة وشدتها عليه، كأثر لإلحاده وإعراضه عن منهج ربه.

فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

«المعيشة الضنك: أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها، وله معيشة حرام يركض فيها»(١).

٢ . ضيق الصدر.

المؤمن منشرح الصدر بإيمانه، والضال تضيق الدنيا عليه بسعتها وتضيق عليه نفسه

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ١٨١.

بسبب كفره وضلاله وإلحاده.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أي: «إن الله يشرح صدر المؤمن لقبول الإيمان وأنواره، فيؤمن ويسلم ويحسن فيكمل ويسعد، ومن طلب الغواية ورغب فيها، هيأ له أسبابها وفتح له بابها، فجعل صدره ضيقًا حرجًا لا يتسع لقبول الإيمان، فكأنه يتكلف الصعود إلى السماء، وهذه سنته في الهداية والإضلال»[(١)].

والإلحاد ينعكس على الملحد بضيق الصدر والقلق والاضطراب في الحياة بسبب فقدان الإيمان.

٣. الختم على الحواس.

الملحد يطبع الله على حواسه ويختم عليها، فلا يفقه ولا يبصر ولا يسمع بسبب جحوده وزيغه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أي: «﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ دلائل قدرة الله، بصر عظة واعتبار ولهم آذان لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ أولئك كالأنعام في عدم الفهم والبصر والاعتبار ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام»[(٢)].

والملحد لا يستشعر قدرة الخالق الموجودة والمبثوثة في صفحات الكون بسبب فقدان حواسه لها، فلا يرى دلائل قدرة الله، ولا يتنبه لما يسمع من آيات الله؛ ليهتدي به، فقلبه مطبوع عليه بسبب كفره وإلحاده.

٤. الضلال والشقاء.

الضلال والشقاء قرينان لا ينفكان عن بعضهما، فالملحد ينعكس عليه إلحاده بالضلال والشقاء فلا يهتدي، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وسبب الضلال وعدم الهداية هو الإلحاد في الألوهية، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

فالملحد غير مهتدٍ للحق والإيمان، فهو

(١) أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ١١٧.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ١٦٦.

مخلوق ضال وشقي.

٥. الحيرة والتردد والاضطراب.

المؤمن يعرف طريقه ولا يحيد عنها، فهو يؤمن بربه النافع الضار بيده كل شيء فهو يركن لربه، أما الملحد فلا هدف له إلا شهواته، مما يجعله حيران وتائه ولا ركن له.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

«أنعود إلى الكفر والشرك والضلال بعد الإسلام والهدى والنور؟ أنعود إلى ملة الكفر بعد إذ هدانا الله، ووفقنا إلى صراط مستقيم، وإننا إذا فعلنا ذلك كنا ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ وذهبت بعقله، وأطارت صوابه ولبه، وأصبح ﴿حَيْرَانَ﴾ تائهًا لا يدري كيف يسير»[(١)]، فمن يدعو غير الله فهو ملحد، فهو يركن لمن لا يملك له ضر ولا نفع، فيبقى حيران مضطربًا لا مرشد له.

٦. التخبط في الحياة.

المؤمن بالله يعيش في حياة نورانية، يسير فيها بخطى ثابتة، والملحد يتخبط في ظلمات الإلحاد والانحراف، ولا يستطيع الخروج منها، فهو لا يشبع من حطام الدنيا.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

« ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ بالكفر فأحييناه بالهدى، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يتبصر به الحق من غيره وهو الإيمان، ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وهو الكافر، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ زين للمؤمنين الإيمان كما ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي»[(٢)].

إن الملحد هو ضال كافر وشقي، وإن إلحاده يعود عليه بضنك العيش والتخبط والتردد والاضطراب وعدم الهداية؛ لطمس آلة الاستقبال عنده المتمثلة في حواسه، والتي أبطل الإلحاد الإدراك بها، والاستجابة لها بما يصلح حاله.

ثانيًا: أثر الإلحاد على المجتمع:

أثر الإلحاد على المجتمع خطير جدًا، يؤدي إلى فساده ودماره وإهلاكه، ومن هذه الآثار:

١. ضياع الحقوق.

الإلحاد في الحاكمية بتحكيم غير شرع

(١) التفسير الواضح، الحجازي، ١/ ٦٢٩.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٨/ ٢٧.

الله يضيع الحقوق بين المخلوقين ويفسد قضاءهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

أي: «﴿وَتُدْلُوا۟﴾ تلقوا بالأموال إلى الحكام رشوة؛ للوصول إلى الحكم القضائي لصالحكم بالإثم، أي: الظلم والتعدي: وهو شهادة الزور أو اليمين الكاذبة الفاجرة أو نحوها»(١).

٢. فساد الحياة.

الملحدون يفسدون حياة المجتمع.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وبفسادهم يستحقون فساد حياتهم، فالجزاء من جنس العمل.

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣].

٣. تمزق المجتمع.

التمسك بكتاب الله يجمع الصف ويوحد المجتمع، والبعد عن منهج الله والإلحاد فيه يمزق المجتمع.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فعدم التمسك بحبل الله يقود إلى تمزيق المجتمع وتفرقه، والقرآن حبل الله لعباده في الأرض، نكران الاعتصام بحبل الله إلحاد في كتابه.

٤. الصغار والذل.

العزة والكرامة منحهما الله للمؤمنين أهل التقوى والصلاح، والذل والصغار جعلهما للعصاة والملحدين.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

أي: «في الآيات تقرير لمظهر من مظاهر النظام الذي أقام الله عليه الاجتماع البشري، وهو وجود زعماء ماكرين مجرمين في كل بيئة، دأبهم الكيد والمكر والوقوف من رسل الله ودعاة الخير موقف التعطيل والعناد، فإذا جاءتهم آية كابروا، والآية فيها إنذار قاصم بأن الماكرين المجرمين سيصيبهم

(١) المصدر السابق، ٢/ ١٦٣.

هوان وذلة عند الله»[1].

فالمجتمع الملحد بما أرسل به الرسل، والتنكر لهم وعدم الإيمان بهم كرسل من عند الله، ميلًا عن الحق الذي أكرمهم الله به، فإنه يجلب الصغار والذل والهوان لأفراده.

٥. هلاك المجتمع.

الهلاك نتيجة حتمية؛ لفساد المجتمع وإلحاده وكفره، فالله لا يصلح عمل المفسدين، فإذا ما كفر الناس وظلموا وقع بهم الهلاك.

لذا قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٠-١٣١].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

«فلا يغرنهم إمهال الله لهم، فإن موعدهم بعد ذلك آتٍ»[2]، فإهلاك القرى يأتي بسبب ظلمهم، والملحد ظالم لربه لما ينتقصه من حقه سبحانه، فالمجتمع الملحد الظالم يقود المجتمع إلى الهلاك.

٦. زوال النعمة.

من تمام نعمة الله وفضله أنه لا يسلب قومًا نعمة أنعمها عليهم حتى يلحدوا في نعمه ودينه.

وضرب الله سبأ مثلًا لذلك، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

«لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقبه بحال الجاحدين لها، فلما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة أرسل الله عليهم نقمة سلب بها ما أنعم به عليهم»[3].

٧. حرمانهم من البيت الحرام.

حرم الله على المشركين دخول الحرم لنجاستهم، فبسبب شركهم وإلحادهم حرم عليهم دخول الحرم حتى يسلموا.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

بمعنى: «فلا يدخلوا الحرم، أطلق المسجد الحرام وقصد به الحرم كله، وقيل:

(١) التفسير الحديث، دروزة، ٤/ ١٥٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٧٦.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٦٧.

المراد المنع عن الحج والعمرة، أي: لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا»[1].

٨. حرمانهم من دخول الجنة.

من أعظم انعكاسات الإلحاد والتكذيب بآيات الله حرمان الملحدين والمجرمين من دخول الجنة يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

٩. فتنة المجتمع.

الإلحاد وتنوعه واختلافه يشتت المجتمع ويشعل فيه نار الفتنة ويعرضه للعذاب.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

«فليحذر المخالفون عن أمر الله، أو أمر رسوله، أو أمرهما جميعًا، إصابة فتنة لهم، والفتنة هنا: غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن، وقيل: هي القتل، وقيل: الزلازل، وقيل: تسلط سلطان جائر عليهم، وقيل: الطبع على قلوبهم»[2].

إن آثار الإلحاد على الإنسان والمجتمع مدمرة، أما الإيمان فهو حماية للفرد والمجتمع من كدر الحياة وضنك العيش، فالمؤمن المهتدي حي بنور الإيمان، والملحد الكافر ميت يعيش في الظلمات ولا يستطيع الخروج منها، فالإلحاد يفسد حياة الأفراد والجماعات، لما فيه من الزيغ والميل والعوج.

موضوعات ذات صلة:

أسماء الله، الإيمان، التوحيد، الشرك، صفات الله، مكة

(١) صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٤٩٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٦٨.





عناصر الموضوع

مفهوم الالوهية	٢٥٨
الالوهية في الاستعمال القرآني	٢٥٩
الالفاظ ذات الصلة	٢٦٠
الألوهية أصل التوحيد	٢٦٢
أركان الألوهية	٢٦٩
نفي الوهية غير الله	٢٧١
منهج القرآن في إثبات الألوهية	٢٧٧
حقوق الالوهية	٢٨٣
مدعو الألوهية في القرآن	٢٨٥



مفهوم الألوهية

أولًا: المعنى اللغوي:

الهمزة واللام والهاء أصل واحد، أله يأله من باب تعب إذا تحير؛ إذ العقول تتحير في معرفته، وقيل: من أله الفصيل إذا أولع بأمه؛ إذ العباد مولعون بالتضرع إلى الله، وأصله وله يوله، إلاهة وألوهة وألوهية، بضمهما، بمعنى عبد عبادة، وتأله تعبد، والإله المعبود وهو الله عز وجل، ثم استعاره المشركون لما عبدوه من دون الله تعالى من الأصنام وغيرهم؛ لاعتقادهم أن العبادة تحق لها، والتأليه: التعبيد، والتأله: التنسك والتعبد، وقيل: اشتقاقه من ألهت إليه: أي فزعت إليه.

قال سيبويه: الإله أصل اسم اللاه تعالى، فحذفت الهمزة، وجعلت الألف واللام عوضًا لازمًا، فصار بذلك كالاسم العلم، والجمع آلهة وأله إلاهة بالكسر، ومنه قولنا: (الله) وأصله إلاه على فعال، بمعنى مفعول؛ لأنه مألوه، أي: معبود، كقولنا: إمام فعال بمعنى مفعول؛ لأنه مؤتم به[١]. وأله فلانًا: اتخذه إلهًا، وتأله فلان: تنسك وتعبد، وادعى الألوهية، و(التأليه) القول بوجود إله مدبر للكون[٢].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والإله المألوه الذي تألهه القلوب، وكونه يستحق الألوهية مستلزم لصفات الكمال، فلا يستحق أن يكون معبودًا محبوبًا لذاته إلا هو، وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل، وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد»[٣].

والإله الحق هو الذي تحق له العبادة وتجب دون غيره من المعبودات[٤].

وتوحيد الألوهية: صرف جميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة لله تعالى، دون شرك أو رياء، كالخوف، والرجاء، والتوكل، والصلاة، والزكاة.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٢٣، مختار الصحاح، الرازي، ص ٢١، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٩.

(٢) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب، ص ٢٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٥.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨٤٦.

(٤) انظر: المخصص، ابن سيده ٥/ ٢١٦.

الألوهية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أله) في القرآن (٢٨٥١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسمًا مفردًا	١١١	﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة:١٦٣]
اسمًا جمعًا	٢	﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ٥١﴾ [النحل:٥١]
اسمًا مجموعًا	٣٤	﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان:٣]
لفظ الجلالة (الله)	٢٦٩٩	﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص:١]
اللهم	٥	﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس:١٠]

ويدور معنى الألوهية في القرآن الكريم حول العبادة واللجوء[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٨-٧٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص١٠٧.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ١٢-٣٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ١٠٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الربوبية:

الربوبية لغةً:

الرب: هو الله عز وجل، هو رب كل شيء، أي: مالكه ومستحقه، وله الربوبية على جميع الخلق، لا شريك له، وهو رب الأرباب، ومالك الملوك والأملاك، والرب يطلق في اللغة على المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيم، والمنعم، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله عز وجل وإذا أطلق على غيره أضيف، فقيل: رب الدين ورب المال[(١)].

الربوبية اصطلاحًا:

أما الربوبية فهي مصدر صناعي، وهي صفة لله تعالى بكونه ربًا[(٢)].

الصلة بين الألوهية والربوبية:

والذي يظهر أن كلًا منهما يستلزم الآخر، فالإله الحق يلزم أن يكون متصفًا بصفات الربوبية، واتصافه بصفات الربوبية يلزم منه أن يكون إلهًا.

٢ العبادة:

العبادة لغةً:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحده وأطاعه، وانقاد وخضع وذل له، والتزم شرائع دينه، وأدى فرائضه[(٣)].

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: «العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل»[(٤)].

وقال الراغب: «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٩٩، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢١٤.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٤٦٣، معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي، ص ٢١٩، المطلع على ألفاظ المقنع، البعلي، ص ٤٦٢.
(٣) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ١٤٤٨.
(٤) التوقيف، ص ٢٣٤.



يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»[1].

الصلة بين الألوهية والعبادة:

إن بين الألوهية والعبادة علاقة وثيقة، فالإقرار بالألوهية ينتج عنها بالضرورة العبادة، فصفات الألوهية ومعانيها ليست موجودة بأحد من المخلوقات، ولا يستحقها إلا الله عز وجل، فإذا عرفنا ذلك واعترفنا به حقًا أفردناه بالعبادة كلها، الظاهرة، والباطنة، فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة: كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والقيام بحقوق الله، وحقوق خلقه، وغير ذلك من العبادات.

(١) المفردات، ص ٣١٨.

الألوهية أصل التوحيد

لقد أقر المشركون بأن الله الخالق والرازق، ولكنهم أشركوا في توحيد الألوهية والعبادة.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

لذا كانت دعوة رسل الله جميعًا إلى توحيد الألوهية وعدم الإشراك في عبوديته أحدًا مما خلقه الله جل جلاله .

أولًا: حاجة العبد الفطرية إلى الله سبحانه وتعالى:

إن شعور الإنسان بألوهية الله، وبوجود الله الواحد الأحد هو شعور فطري مستقر في أساس تكوينه، وعلاقته بخالقه هي علاقة المخلوق بخالقه الرحمن الرحيم، وهي علاقة لا يستطيع أي مخلوق دفعها، أو الحياد عنها، فشعور الإنسان بوجود الله خالقه، هو ضرورة من ضروراته التي لا يستطيع أن يتخلى عنها، فحاجة الإنسان إلى الإيمان بالله كحاجته إلى التنفس، وإلى الطعام والشراب، والراحة، فإذا كانت حاجاته هذه قانونًا من قوانين وجوده المادي، فإن إيمانه بالله الخالق، الرحمن، الرحيم، هو قانون من قوانين وجوده الروحي، وضرورة من ضروراته.

لقد كرم الله عز وجل الإنسان بنور الفطرة التي يستطيع بها أن يعرف ربه، ويستدل بها على الصراط المستقيم الذي ارتضاه لنا وذلك من التدبر في آلائه ونعمه، وقضية الإيمان بخالق للإنسان والكون والحياة، قضية راسخة في الفطرة الإنسانية عميقة الجذور، عمق الشعور بالذات البشرية واحتياجاتها وعجزها وافتقارها إلى الملجأ والملاذ.

فكما يشعر الإنسان بعمق غرائز الأبوة والأمومة وحب البقاء وحب التملك في كيانه، يشعر بالقلق والاضطراب في روحه أيضًا إن لم تشبع بالطريقة السليمة، وتوجيهها الوجهة السليمة للمعبود الحق[(١)].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

الحديث هنا عن أقدم وأول ميثاق أخذه الله سبحانه وتعالى على كافة العباد، وهم لا يزالون في أصلاب آبائهم في عالم الذر، وهذا الميثاق هو ميثاق فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهو يتضمن في جوهره الإقرار بربوبية الله وبعبودية الإنسان، على أساس من التوحيد والإيمان، فما من إنسان إلا وولد على فطرته الأولى التي أرادها الله

(١) انظر: التفسير الموضوعي، مسلم، ص٩٥.

جل جلاله، ولم تتعرض فطرته لعوامل التشويه والإفساد، إلا وهو مقر بألوهية الله وربوبيته للعباد، ومعترف من أعماق قلبه بهذا الميثاق، وملتزم بجميع نتائجه وآثاره على الإطلاق، دون معارضة، ولا جحود أو تكبر، ودون أي حجج واهية[1].

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)**.

ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠][2].

ومن أدلة حاجة العبد إلى ربه جل جلاله أنه يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى حين ييأس من كل شيء حوله، وحين يمسه الضر، وحين يفقد قوته.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

إن افتقار المخلوق إلى أن يكون عبدًا لله تبارك وتعالى هو افتقار ذاتي فطري، وهو حاجة ملحة لا يسدها حقًا إلا عبادة الله وحده لا شريك له، وهو الذي أودع في العبد هذه الحاجة الفطرية، والمشركون والملحدون يلجؤون إلى الله في أوقات الشدة؛ لأن في داخلهم افتقارًا لله سبحانه وتعالى، وهذا الافتقار الذاتي إلى عبادة الله من فطريته وضروريته في النفس الإنسانية، أنه لا يمكن أن ينكره منكر، ولا يكابر فيه مكابر، حتى الكفار الذين جحدوا آيات الله، وعاندوا أنبياء الله عز وجل، وردوا ما جاءوا به من أمر الله، واستكبروا على عبودية الله، فإنك في وقت الشدة تراهم يذعنون لله تبارك وتعالى بالعبودية، ويظهرون الافتقار والحاجة إليه، في وقت الضرورة الذي تنتفي فيه كل البهارج وكل ما يكون على

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٧، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، ٢/ ٩٤، رقم ١٣٥٨.

القلب من الكبر والعتو[1].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

أن يتضرع الناس ويلجؤون وقت الشدة إلى الله، ويعترفون أنه لا ملجأ ولا منجىً منه إلا إليه، وأنه هو الذي يغيث الملهوف، وينقذ المكروب ويكشف الغم هي فطرة، فطر الله سبحانه وتعالى عليها كل واحد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذابًا: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتديًا بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم، أن لا تشرك -أحسبه قال: ولا أدخلك النار- فأبيت إلا الشرك)[2].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «إن أكثر الناس على أن الإقرار بالصانع ضروري فطري؛ وذلك أن اضطرار النفوس إلى ذلك أعظم من اضطرارها إلى ما لا تتعلق به حاجتها، ألا ترى أن الناس يعرفون من أحوال من تتعلق به منافعهم ومضارهم، كولاة أمورهم ومماليكهم وأصدقائهم وأعدائهم، مالا يعلمونه من أحوال من لا يرجونه ولا يخافونه، ولا شيء أحوج إلى شيء من المخلوق إلى خالقه، فهم يحتاجون إليه من جهة ربوبيته؛ إذ كان هو الذي خلقهم، وهو الذي يأتيهم بالمنافع، ويدفع عنهم المضار»[3].

إن الإنسان متدين بالطبع وبالفطرة.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ومهمة المربين من آباء ومعلمين ودعاة ومصلحين تربية فطرة المسلم على الإيمان الصحيح وخشية الله وعبادته، والتعليم والقدوة أساس الفضيلة والأخلاق؛ ولذلك كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٤١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا، ٤/ ٢١٦٠، رقم ٢٨٠٥.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣٤٧.

لها قيمة تربوية خلقية، وقد أمرنا الله جل جلاله بأن نتبع الرسول وأن نأخذ ما آتانا وبه ونتتهي عما نهانا عنه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

والتدين فطرة في الإنسان، يسعد به من هداه الله، فيظهر عليه، ويعيش في رحابه، ويحيا على آدابه، ويخفيه ويقاومه من لم يهده الله، فلا يظهر عليه، ولا يعيش في رحابه، ولا يعرف آدابه، ولا ينطق به إلا وقت الشدائد، يوم لا ينفع نفسًا تدينها ولا إيمانها، ويصيرون كمن إذا أدركته المنية يقول آمنت، يوم لا ينفع الإيمان.

ومما سبق يتضح أن بني آدم جميعًا يشعرون بحاجتهم وفقرهم، وهذا الشعور أمر ضروري فطري، فإذا ألمت بالإنسان -حتى المشرك- مصيبة قد تؤدي به إلى الهلاك فزع إلى خالقه سبحانه، والتجأ إليه وحده، واستغنى به، ولم يستغن عنه، وأدرك أنه لا إله إلا هو، وشعور هذا الإنسان بحاجته وفقره إلى ربه تابع لشعوره بوجوده وإقراره، فرجوع الإنسان وإنابته إلى ربه عند الشدائد دليل على أنه يقر بفطرته بخالقه وربه سبحانه، وهكذا كل إنسان إذا رجع إلى نفسه أدنى رجوع عرف افتقاره إلى الباري سبحانه وتعالى في تكوينه في رحم أمه وحفظه له، وعرف كذلك افتقاره إليه في بقائه وتقلبه في أحواله كلها.

والاعتراف بأن الله هو الخالق لا يتضمن مجرد الإقرار بذلك فقط بل إقرارًا يتبعه عبودية لله بالحب والتعظيم وإخلاص الدين له، وأصل الإيمان قول القلب وعمله، والقلب مفطور على ذلك، وإذا كان بعض الناس قد خرج عن الفطرة بما عرض له من المرض، إما بجهله وإما بظلمه، فجحد بآيات الله واستيقنتها نفسه ظلمًا وعلوًا، لم يمتنع أن يكون الخلق ولدوا على الفطرة.

ثانيًا: الألوهية أصل دعوة الرسل، ومنهجهم في الدعوة إليها:

إن الله عز وجل خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، وأرسل الرسل لبيان هذه الحكمة والدعوة إليها، وبيان تفصيلها وبيان ما يضادها، هكذا جاءت الكتب السماوية، فجميع الرسل عليهم السلام دعوا إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

﴿رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والعبادة حق الله على عباده، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. وحق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا)[(١)].

ولقد وردت آيات كثيرة تبين حال الرسل ومنهجهم مع أقوامهم فيقولون لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقد تكررت هذه الآية في القرآن الكريم كثيرًا؛ لأن هذا هو هدف الدعوة إلى الله، عبادة الله وحده.

فبعث الله سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم ليجدد لهم دين أبيهم إبراهيم؛ حيث إنهم أشركوا في الألوهية بحجة أن معبوداتهم تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله عز وجل، لا يصلح منه شيء لأي أحد، وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله جل جلاله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يخلق ولا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، وأن جميع السماوات السبع ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره[(٢)].

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

فهذا يوسف عليه السلام وهو الذي كان يعيش في قصر الملك، ولاقى الأذى والسجن ظلمًا من الملك وزوجته، ولكن كل ذلك لم يمنعه من الدعوة إلى عبادة الله وحده، سائرًا على منهج الأنبياء الرباني في الدعوة إلى التوحيد.

قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

وقد بذل الرسل في سبيل دعوة الناس

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي، صلى الله عليه وسلم، أمته إلى توحيد الله، تبارك وتعالى، ٩/ ١١٤، رقم ٧٣٧٣.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٧٥.



إلى الله جهودًا عظيمة، وفي هذه الآية نرى الجهد الذي بذله نوح عليه السلام على مدار تسعمائة وخمسين عامًا، فقد دعاهم ليلًا ونهارًا، سرًا وعلانية، واستعمل أساليب الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وحاول أن يفتح عقولهم، وأن يوجهها إلى ما في الكون من آيات(1).

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢-٣].

ولكنهم أعرضوا، و رفضوا الدعوة، ووقفوا منها موقفًا سلبيًا، وواجهوا نوحًا بعدد من المواقف، فقد أنكروا الدعوة، واتهموه بالضلال، والجنون، والسفاهة(2).

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥-٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح: ٢١-٢٤].

لقد قامت دعوة نوح عليه السلام على دعوة الناس إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وقصر العبادة له وحده، وترك ما عدا ذلك، من شرك وضلال، يوضح الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقة في آيات متعددة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

وهود عليه السلام دعا قومه، وطلب منهم تصحيح العقيدة، أساس الإيمان، وبين لهم أن العقيدة السليمة تحتاج إلى توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته، وهذا يقتضي منهم أن تكون عبادتهم، وتوجههم لله فقط، وترك عبادة الأصنام والأوثان؛ لأن عبادة غير الله صرفٌ للعمل في غير وجهه، وإضاعة للوقت، والوقوع في الكفر والضلال، وذكرهم بنعم الله فيهم(3).

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ وَيَٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٦.
(2) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٠٠.
(3) انظر: تفسير المراغي ١٢/ ٤٦.

﴿مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٠ – ٥٢]

ولكنهم أبوا إلا العناد والكفر.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣-٥٤].

ووصية الأنبياء عليهم السلام عند وفاتهم التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣].

إننا بحاجة إلى الرسل وتعاليمهم لصلاح قلوبنا، وإنارة نفوسنا، وهداية عقولنا، ونحن بحاجة إلى الرسل كي نعرف وجهتنا في الحياة، وعلاقتنا بالحياة وخالق الحياة، وكيلا ننحرف أو نزيغ فنقع في مستنقع الضلال.

مما سبق يتبين أن جميع الرسل عليهم السلام دعوا الناس إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وترك تأليه ما سواه، ورأينا أن الدعوة إلى عبادة الله جاءت ملازمة للدعوة إلى التوحيد؛ لأن التوحيد بلا عبادة عبث لا يجوز في دين الله عز وجل.

وكان لكل رسول منهجه في القيام للدعوة إلى الله جل جلاله، وقد عانى رسل الله الويلات من أقوامهم ليطمسوا دعوة التوحيد، لكن الله يأبى إلا أن يتم نوره.

أركان الألوهية

الألوهية صفة استحقاق، أي: أن الله عز وجل مستحق للألوهية، ومستحق للعبودية، والإله معناه المعبود كما ذكرنا سابقًا، وهذا مجمع عليه عند أهل اللغة، وأجمع السلف الصالح على أن الإله بمعنى المعبود وحده سبحانه وتعالى، ولهذا فإن (لا إله إلا الله) معناها: لا معبود بحق إلا الله.

وقد بين الطبري معنى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

أن الذي يستحق الطاعة، ويستوجب منا العبادة معبود واحد ورب واحد، لا رب للعالمين غيره، ولا يستوجب على العباد عبادة سواه، وأن كل ما سواه فهم خلقه، والواجب على جميعهم طاعته، والانقياد لأمره، وترك عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، وهجر الأوثان والأصنام؛ لأن جميع ذلك خلقه وعلى جميعهم الإقرار له بالوحدانية والألوهية، ولا تنبغي الألوهية إلا له، فلا يصح عبادة غيره ولا الشرك معه سواه، فإن من يشركونه مع الله عبادٌ لله مثلهم، وإلهكم إله واحد لا مثل له ولا نظير، ومعنى وحدانية الله نفي الأشباه والأمثال عنه[(١)].

وإن من خواص الألوهية علم السر والعلن، والحياة الدائمة، مما يدل على أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، ويدل على إبطال عبادة غير الله تعالى[(٢)].

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ١٧-٢٣].

ومما سبق يتضح أن للألوهية أركانًا تقوم عليها، وأركان الألوهية هي:

الأول: النفي: وهو المراد بقولنا: (لا إله) نفي ما يعبد من دون الله جل جلاله.

والثاني: الإثبات: وهو المراد بقولنا: (إلا الله) إثبات أن الله سبحانه وتعالى هو فقط المستحق للعبادة.

إذن مدلول كلمة الشهادة: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)، فلا عبادة ولا طاعة إلا لله، ولا طريق لذلك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل

(١) انظر: جامع البيان ٢/ ٧٤٥.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ١٠٥.

طريق غيره فإنه لا يوصل إلى المطلوب[1].

فمن اجتمعت له هذه الأركان نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الأشياء، فمن اعتقد أن غير الله تعالى يستحق العبادة مع الله، أو يستحق أن يصرف له أي نوع من أنواع العبادة فهو مشرك في الألوهية.

فليس هناك رب معطٍ رازق إلا الله جل جلاله، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، ولكن هناك من لا يخلص لله في معاملته وعبوديته، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة أخرى، هذا من أشقى خلق الله؛ لأنه لم يسخر نفسه لله فقط.

قال العلامة القنوجي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

أنه تقرر أن العبادة لا تجوز إلا لله، وأنه هو المستحق لها، فكل ما يسمى في الشرع عبادة ويصدق عليه مسماها فإن الله يستحقه، ولا استحقاق لغيره فيها، ومن أشرك فيها أحدًا من دون الله فقد جاء بالشرك[2].

ويظهر لنا مما سبق بأن من لوازم الاعتراف بالألوهية أن تكون قائمة على أركان ثلاثة، وهي:

١. الإخلاص، فلا يكون للمرء مراد إلا الله جل جلاله.

٢. الصدق ببذل كل الطاقة لعبادة الله.

٣. المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

(١) انظر: الجواهر المضية، محمد بن عبدالوهاب، ص ٤.

(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ٧/ ٣٧٤.

نفي ألوهية غير الله

لقد أصر عدد كبير جدًا من السفهاء على عبادة غير الله جل جلاله على مر العصور، وكان الله سبحانه وتعالى يرسل أنبياءه لدعوتهم لتوحيد العبودية له جل جلاله، فنبهوا ووعظوا وأنذروا، وقد جاء في الكتاب الحكيم الكثير من الآيات القرآنية التي بينت فساد ما يعبدون بعدة طرق.

أولًا: نفي النفع والضر عن المعبودات من دون الله:

إن العبادة أعظم أنواع التعظيم، فلا تليق إلا بالله الواحد الأحد، خالق كل شيء ومليكه، الذي يضر وينفع، يحيي ويميت، وهذه الأصنام التي عبدوها جماد وحجارة، لا تضر ولا تنفع، وفي هذه الآية توبيخ وتقريع وتبكيت لهؤلاء المشركين الذين يعبدون أصنامًا، لا تضرهم إن عصوها وتركوا عبادتها، ولا تنفعهم إن عبدوها وأطاعوها؛ لأنها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع، والمعبود ينبغي أن يكون مثيبًا ومعاقبًا؛ حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضر[(١)].

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس: ١٨].

وكانت حجتهم في عبادتها أنها تشفع لهم عند الله عز وجل، افتروا على الله بدعواهم هذه، فعند الله علم السماوات والأرض لا لأحد غيره.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾[الفرقان: ٥٥].

إن المشركين بالله يعبدون من دونه آلهة أحجارًا صماء لا تضر ولا تنفع، ويتركون عبادة من أنعم عليهم بالكثير من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وهذه الآية تنعى على المشركين خفة أحلامهم وسفه عقولهم في إعراضهم عن توحيد الله، وإنكار ألوهيته، وتندد باتخاذهم آلهة من دون الله يصنعونها بأيديهم ثم يعظمونها، ويقدمون لها القرابين من نعم الله وما أفاءه عليهم، وهي من الضعف والهوان بحيث لا تستطيع أن تجلب لهم نفعًا، ولا أن تدفع عنهم ضرًا، بل هي من المهانة بحيث لا تستطيع أن تجلب لنفسها نفعًا ولا تدفع عنها شرًا، بل كان إن جاع أحدهم أكله، وهم بذلك معينين للشيطان على ربهم، مظاهرين له على معصيته[(٢)].

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء: ٥٦].

---

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٣٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٨٤.

قال ابن عباس: «إن ناسًا من خزاعة كانوا يعبدون الجن، وهم يرون أنهم هم الملائكة»، وقال مجاهد: «هم قوم من المشركين كانوا يعبدون الملائكة والمسيح وعزيرًا»[1].

وانصرف النصارى إلى عبادة المسيح دون الله سبحانه وتعالى فأشركوا، كما عبد المشركون البشر والملائكة والأصنام، فكانوا سواء في الكفر والضلال، فأمر الله رسوله أن يخاطبهم متعجبًا منكرًا: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[المائدة: ٧٦].

والمسيح لا يملك من الضر والنفع شيئًا مما يقدر عليه الله عز وجل، فهم قد عدلوا عن إفراد الله السميع لأقوال عباده في السر والعلن، العليم بكل شيء، إلى عبادة مخلوق خلقه الله، لا يستطيع أن يضرهم بمثل ما يضرهم الله به من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا يقدر أن ينفعهم بمثل ما ينفعهم الله به من صحة الأبدان وسعة الأرزاق، فإن الضار والنافع هو الله سبحانه وتعالى، لا من يعبدون من دونه، ومن لم يقدر على النفع والضر لا يكون إلهًا، والله وحده هو السميع العليم[2].

قال ابن عباس: «إن أهل مكة قالوا: يا محمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري به فتربح فيه عند الغلاء، وبالأرض التي يريد أن تجدب فترحل عنها إلى ما قد أخصبت» فأنزل الله عز وجل: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فهذا أمر إلهي لتعليم وتلقين جميع المؤمنين، ولإزالة كل شك أو ريب، في أن الله وحده هو النافع الضار، والمنفرد بالتصرف المطلق في خلقه دون غيره، ولو كان هذا الغير رسولًا فهو أضعف من ذلك، فالرسول لا يملك حتى لنفسه نفعًا ولا ضرًا، رغمًا عن كونه خاتم المرسلين، وخير من وطئت قدمه الثرى، وفي أعلى درجات القرب من الله عز وجل والحصول على رضاه، فيعترف الرسول صلى الله عليه وسلم ببشريته وضعفه أمام قدرة الله جل جلاله، فيقر بأنه لا يقدر على اجتلاب نفع إلى نفسه، ولا دفع ضر يحل بها، ولو كان يعلم ما هو كائن مما لم يكن بعد لأعد الكثير من الخير[3].

فعلى الإنسان بعد ذلك كله أن يخضع ويسلم أمره لله وحده، فليس هناك ضار أو

(١) الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤٢٢٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٠٢.

نافع إلا الله فأمورنا كلها بيده؛ حياتنا، رزقنا، سعادتنا، فلا يضير المرء بعد ذلك قوله الحق، والسطوع به في وجه كل طاغية متجبر يظن أنه إله هذا الكون، ونسي أنه مخلوق ضعيف، لا يملك لنفسه فضلًا عن غيره ضرًا أو نفعًا، فلنكن جميعًا عبيدًا للواحد القهار النافع الضار، ولسنا عبيد مصالح ومناصب.

ثانيًا: نفي الاستجابة:

من طرق القرآن الكريم لإثبات الألوهية لله وحده ونفيها عمن سواه التطرق إلى عجزها عن مناصرة من يعبدها وعدم الاستجابة لهم، وهنا بيان لعجز من يدعى من دون الله إما لعدم قدرته على السماع أصلًا، أو لعدم استجابته إن سمع الدعاء، وهذا يدل بلا أدنى شك على عدم استحقاقها للعبادة من دون الله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٤].

والأمر هنا للتحدي أو للتعجيز، وليس للطلب أو الإباحة، فلقد تحداهم الله عز وجل أن يدعوهم، فإن استجابوا لكم فصدقت دعواكم لهم بالألوهية، ولكن هيهات أن تجيبهم صخور صماء، ولو سمعوا ما استجابوا لهم، وما أجابوهم، ويوم القيامة يتبرؤون منهم ومن عبادتهم لها، فهنا تسفيه لمعتقدات المشركين وإقامة الحجة عليهم[1].

ويذكر الله تعالى أن التعجيز يقع في الآخرة أيضًا.

فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴾ [الكهف: ٥٢].

لقد وصف كتاب الله موقف المشركين الحرج يوم القيامة، ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله، عندما يأمر الله المشركين به أن ينادوا ما كانوا يعبدون من دونه عز وجل ليشفعوا فيهم، وينقذوهم من العذاب الشديد، ثم يدعونهم فلا يستجيبون لهم ولا يلبون نداءهم، بل يتجاهلونهم بالمرة، كأنهم لا يعرفونهم، أو كأن بينهم عداوة متأصلة من قديم، فجعل بين الداعين من المشركين والمدعوين من الشياطين، مهلكًا مشتركًا وهو النار التي يصلونها جميعًا[2].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴾[القصص: ٦٤].

فقد طلب الله عز وجل من الكفار تقريعًا لهم، وتهكمًا وتوبيخًا وتشهيرًا بهم على

---

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٩١، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٠٣٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢.

رؤوس الأشهاد بدعاء ما عبدوا في الدنيا من دون الله لتنصرهم، وتدفع عنهم الأذى، مثلما كانوا يفعلون ذلك في الدنيا، فاستغاثوا بهم، فلم يجيبوهم ولم ينصروهم، فيتمنوا وقتها لو أنهم كانوا مؤمنين بالله جل جلاله .

فعدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة دليل عجزهم الواضح، ولكنها العقول الضالة التي تأبى إلا العناد والكفر، فلو كانوا يهتدون بهدي الله سبحانه وتعالى، وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم، ويرون العذاب الذي أنذرهم به حقيقة وواقعًا لا يتخلفون عنه لما حدث لهم هذا، ولما واجهوا هذه العاقبة الأليمة(١) .

ومن الآيات الجامعة قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سبأ: ٢٢].

فهو خطاب توبيخ وتقريع المشركين لدعوة ما زعموا أنها آلهة لهم من دون الله سبحانه وتعالى لتنفعهم وتذب عنهم، ولكنهم لا يملكون دفع ضر في أي أمر من الأمور، أو حتى جلب منفعة، وليس لهم قدرة على خير ولا شر، فليس للآلهة في السماوات والأرض مشاركة لا بالخلق ولا بالملك ولا بالتصرف، فما لله من هؤلاء من معين على خلق شيء، بل الله المنفرد بالخلق والإيجاد، فهو الذي يعبد، وعبادة غيره محال(٢).

وما نراه اليوم من فعل بني جلدتنا ممن يدعون أنهم مسلمون من التضرع لقبور الأولياء والصاحين، والتمسح بقبورهم، ودعائهم من دون الله لجلب منفعة أو دفع ضر، ليس إلا صورة من صور الشرك بالله فهذه القبور لا تستجيب لهم، ولا تملك لنفسها فضلًا عن غيرها الشر أو الخير، تمسكوا بعادات وتقاليد آبائهم الفاسدة الضالة؛ فضلوا وأضلوا من بعدهم.

ثالثًا: المعبودات من دون الله عبيد لله تعالى:

إن مقياس الألوهية هو الخلق والتكوين، فإن كان الله هو الخالق المكون فهو المالك لما خلق وكون، وهو وحده المستحق للعبادة سبحانه وتعالى، والله عز وجل مالك السماوات والأرض وخالقهما، وخالق الإنسان فكيف يعبد غيره؟!؛ ولذا قال جل جلاله مستنكرًا ما عليه الضالون ممن أشركوا بالله عز وجل غيره من المخلوقات أو الجمادات.

قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٢٧، تفسير الشعراوي، ١٨/ ١٠٩٨٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٩٥.

﴿يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف: ١٩١-١٩٢].

وهنا استنكار وتجهيل على المشركين، أيشركون به سبحانه وتعالى وهو الخالق لهم ولكل شيء، ما لا يخلق شيئًا من الأشياء مهما يكن صغيرًا أو حقيرًا؟!

إن هذه الأصنام التي تعبد من دون الله مخلوقة ومصنوعة، فكيف يليق بذي العقل السليم التنازل عن عقولهم، وجعل المخلوق العاجز الذي لا يملك لنفسه أي مقومات الحياة شريكًا لله سبحانه وتعالى الخالق القادر المصور؟![1].

ففي الآية تدرج ومراحل للوصول إلى الحقيقة، ويتحدث عن ذلك الشيخ الشعراوي قائلًا: «فأول مرحلة عرفهم أن الأصنام لا تخلق، وثاني مرحلة عرفهم أنهم هم أنفسهم مخلوقون، والأصنام لا تقدر على نصرهم، إذن فهم معطلون من كل ناحية؛ لأنهم لا يخلقون، وهذا أول عجز، ومن ناحية أخرى أنهم يخلقون وهذا عجز آخر، لكن بعد هذا العجز الأول والعجز الثاني فهل هم قادرون على نصر غيرهم؟»[2].

وتكون النتيجة النهائية لهذه المراحل أن ما يعبد السفهاء عباد مثلهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[الأعراف: ١٩٤].

فهذه الأصنام ليست لها أدنى قدرة إن جاءها من يحطمها، أو يكسرها، أو يسرقها، فهي أضعف من عابديها، والمعبود يجب أن يكون أعلى منكم؛ لتسجدوا له، فكيف تعبدون مثلكم؟! ولماذا تختارونه للعبادة وهو على أكثر تقدير له مثلكم لا فرق بينكم وبينهم؟! فكلكم عبيد لله مملوكون[3].

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان: ٣].

وفي هذه الآية أيضًا تقريع للمشركين بعبادتهم ما دون الله، وتنبيه لهم على موضع خطأ فعلهم، ببيان أن آلهتهم التي يعبدونها لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة، ومع ذلك فهي لا تملك دفع ضر عن نفسها ولا جلب منفعة إليها، ولا تملك إماتة ولا إحياء، ولا بعثًا ولا نشورًا، فهذه هي صفتها، فهي لا تستحق العبادة، فكيف يليق بالإنسان أن يعبد مع ربه أحدًا من خلقه، ويتخذ أندادًا يعبدهم من دون الله، ويحبهم كما يحبه، وهم مخلوقون مثله، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٥١٩.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٤٥٢١.

(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٠٣٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣١٢.

في الأرض؟![1].

فهذا من أعجب العجب، وأسفه السفه أن يعطي الله عز وجل للإنسان عقلًا مفكرًا ودلائل ساطعة على أنه الإله الخالق، ويعلم أن الله جل جلاله هو الرازق الخالق المدبر، ثم يشرك به غيره، ويعبد معه آلهة أخرى، لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًا.

وصاحب الدعوة إلى الله يلجأ إلى الله ويلوذ إليه وهو مدرك أنه لن يؤذيه شيء إلا بإذن ربه، ولكن قد يؤذى المرء كثيرًا وهو سائر في طريق الله، ليس عقابًا أو عجزًا عن حمايته ولا تخليًا منه سبحانه وتعالى عن نصرة أوليائه، ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص والتدريب، واستدراجًا لعباده الطالحين للإعذار والإمهال والكيد المتين.

لقد كان أبو بكر رضي الله عنه يتناوله المشركون بالأذى، ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه، حتى تركوه وما يعرف له فم من عين، فما كان منه إلا أن يردد طوال هذا الاعتداء «رب ما أحلمك! رب ما أحلمك! رب ما أحلمك!...»[2] فقد كان يعرف في قرارة نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه، لقد كان واثقًا أن ربه لا يعجز عن تدمير أعدائه، كما كان واثقًا أن ربه لا يتخلى عن أوليائه الصاحين![3].

(١) انظر: موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ١/ ١٦٣.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ٩٥.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤١٦.

منهج القرآن في إثبات الألوهية

لقد انتهج القرآن الكريم العديد من المناهج لإثبات الألوهية، وجميع هذه المناهج والأدلة يمكن فهمها واستيعابها لجميع البشر وعلى جميع المستويات؛ لأنها من لدن عليم خبير، فلا يكون عذر لبشر بعد إقامة الأدلة على وحدانية الله، في وجود العقل، وتكوين الفطرة.

أولًا: المنهج الفطري:

يقرر القرآن الكريم حقيقةً كبيرةً، وهي أن الإنسان قد خلقه الله على فطرة سليمة تتجه إلى بارئها وتلجأ إليه، فقد جبلت النفوس على معرفة خالقها سبحانه وتعالى، منذ أن أخذ الله جل جلاله العهد والميثاق على أبناء آدم يتضمن الاعتراف على أنفسهم أن الله ربهم ومالكهم وأنه لا إله إلا الله، وذلك حين خلق آدم وأخذ من ظهور ذريته ذريتهم في عالم الذرة، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢][1].

وكل مولود في هذا الوجود يولد على الفطرة؛ ولذلك يخاطب الله تعالى الإنسان ويذكره بهذه الفطرة بأسلوب وجداني حي؛ ليوقظ إحساسه بالأمور الإيمانية والعقيدة، وأهمها: توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

ولقد سلك القرآن الكريم المنهج الفطري للتعرف على الله وإثبات ألوهيته، يعرض القرآن الكريم قضية التوحيد، ويدعو الناس لتوحيد الله ونبذ الشركاء والأنداد، ويقيم الحجج والبراهين على وحدانية الله تعالى، فقد دعا إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض، وجعل هذا النظر والتفكر هو المنهج القويم لمن يريد أن يعرف الله ويؤمن به من خلال المشاهدات المحسوسة اليسيرة التي يتعامل معها الناس جميعًا.

وآثار الله سبحانه وتعالى تتجلى لنا في هذا الوجود الذي تعمل فيه حواسنا وعقولنا دون أن تقع في مجال الحس والإدراك؛ ولهذا فرض الله سبحانه وتعالى معرفة ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله على العباد من خلال آثاره في الآفاق وفي أنفسهم؛ حتى يتبين للناس جميعًا أنه الحق[2].

فمن المشاهدات الأولية اليسيرة في حياة الناس يكون التوصل إلى الإيمان بخالق الكون ومدبره قيوم السماوات والأرض بالنظر والتفكر والتدبر والتذكر، فلا نقرأ الآيات إلا ونراها تعرض علينا الأكوان، وتأمرنا بالنظر فيها واستخراج أسرارها؛ لذا

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٧٤٩.

(٢) انظر: التوحيد، عمر العرباوي، ص ٥٢.

كانت كل الأدلة ملموسة في حياتنا[1].

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[الغاشية: ١٧-٢٠].

وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ٦-١٦].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة البينة التي تبين عظمة الخالق وقدرته، والتي تدعو إلى الرجوع للفطرة السليمة التي بها نعرف الخالق العظيم.

ويقول الدكتور صلاح الخالدي: «إن مخاطبة الناس بما يدركون، والاستدلال على القضايا بما يحسون، وضرب الأمثال بما يفقهون، والاستدلال من خلالها على ما يعقلون، هو الأسلوب الفطري المؤثر الفعال في إيجاد القناعات لديهم، وهي الطريقة المثلى لتحريك كوامن الفطرة السليمة، واستجاشتها عندهم»[2].

إن وراء خلق الكون قوة خارقة، وقد عرفها العربي بفطرته فقال: البعرة تدل على البعير، والقدم تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير؟!! إنه دليل فطري، يدلك على وجود القوة، إنها الطريقة الفطرية في المحاجة والاستدلال، والقرآن بدأ هذه البدايات الميسرة، وتوصل إلى تلك النتائج الباهرة المقنعة من خلال إقامة البراهين، هذه هي القضية التي يراد إثباتها والاستدلال عليها، وهي قضية: تفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والإيجاد، وعدم وجود الشركاء له في ذلك[3].

ويعرض القرآن الكريم موضوع الخلق والموت والرزق بطريقة توقظ الفطرة، وتحرك الوجدان لمعرفة الله تعالى، ولمعرفة أنه سبحانه المتفرد بهذا الرزق والعطاء، وأن الإنسان مهما بذل من جهد فهو لا ينشئها في الحقيقة، وإنما يعمل فيها بسنة الله ومشيئته، ولكن المنشئ والخالق هو الله سبحانه وتعالى، وهذه حجج وبراهين على إمكان البعث، وإثبات أنه في مقدور

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٠٨.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي، ص ١٠٦.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٤/ ١٩٦٣.

الله، بضرب الأمثلة والنظائر المشاهدة المحسوسة التي لا يمكن إنكارها[1].

قال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٧-٧٤].

يقول سيد قطب في تفسيره لهذه الآيات: وفيه تنجلي طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية، وفي تناول الدلائل الإيمانية، وفي التلطف إلى النفوس في بساطة ويسر، وهو يتناول أكبر الحقائق في صورها القريبة الميسورة، إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى، يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة، وتصورًا كاملًا لهذا الوجود.

إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره، إنه المصدر الذي صدر منه الكون، فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون، المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان: النسل، والزرع، والماء، والنار، أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه؟ أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية، ونشأة نبتة، ومسقط ماء، وموقد نار.

ومن هذه المشاهدات التي رآها أي إنسان ينشئ القرآن العقيدة؛ لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيئة، وهذه المشاهدات اليسيرة الساذجة هي بذاتها أضخم الحقائق الكونية وأعظم الأسرار الربانية، فهي في بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان. وهي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان[2].

ويعرض لنا القرآن الكريم جانبًا منها بطريقة تصويرية أخاذة، تبين كمال قدرة الله جل جلاله الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف، وجعل فيه ماء غزيرًا منه يشربون وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حروثهم؛ فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة، فيرسم لها صورة شاملة متكاملة، ثم يخلص إلى النتيجة والتوجيه

(١) انظر: التفسير الواضح، حجازي ٣/ ٦٠١.

(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٤٦٦، باختصار.

والقناعة الوجدانية.

كما في قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ١٠-١١][(١)].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[الزمر: ٢١][(٢)].

ثانيًا: المنهج العقلي:

لقد اهتم القرآن الكريم بالعقل كثيرًا، حيث تواردت النصوص التي تحض على التفكير، وتذم الذين يعطلون عقولهم عما خلقت من أجله من تفكر سليم وعقل صحيح، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فالإسلام ينوه تنويهًا كبيرًا بالعقل ويعلي من مكانته وقيمته، ونجد شاهدًا على ذلك في الآيات القرآنية التي تنزلت بشأنه، فالعقل هو هبة الله جل جلاله للإنسان؛ ولذلك جعله الله سبحانه وتعالى سببًا للتكليف، ومناطًا للمسؤولية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية، دل عليها القرآن وهدى الناس إليها؛ فإن نفس كون الإنسان حادثًا بعد أن لم يكن، ومخلوقًا من نطفة ثم من علقة، فإن هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم، فهو إذن عقليٌّ؛ لأنه بالعقل تعلم صحته، وهو شرعيٌّ أيضًا»[(٣)].

ففي مجال الألوهية يعرض القرآن الكريم جملة من آيات الله الكونية البارزة في خلقه، ووصف طائفة من نعمه السابغة، من آيات القدر والخلق، ومظاهر الموت والحياة والزرع والماء والنار، هذه النعم التي يتقلب فيها الإنسان ليل نهار، صباح مساء دون أن يحسب لها حسابًا[(٤)].

فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٣٦.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٤٩.
(٣) النبوات ١/ ٢٩٣.
(٤) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي ٦/ ١٥١.

﴿...نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ۝٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۝٦٧ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ۝٧٠ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٧ - ٧٤].

والقرآن الكريم يخاطب العقل، ويقنع الإنسان بالمنطق السهل المؤثر في النفس، بأسلوب حي جذاب؛ حيث يوجه نظره إلى آيات الله في الكون والرزق والحياة والموت والأحداث الجارية -كما سبق الحديث عنها- في المنهج الفطري الوجداني، ولكنه مرة أخرى يعرض لها؛ لما فيها من أسلوب منطقيٍ يتصف بالحيوية؛ لما فيها من الأسئلة الموجهة إلى المخاطب والإجابة عنها، إلى أن يصل إلى النتيجة المطلوبة بأسلوب ومنهج عقلي يؤدي في النهاية إلى الغاية ذاتها، وهي إدراك حقيقة الألوهية، وما يتفرع عنها من حقائق وقضايا الإيمان والعقيدة[١].

ولو تأمل الإنسان بعقله وفكره آيات الله الباهرة المبثوثة في الأرض والسماء وفي النفس والآفاق، لأيقن بأن وراء هذه الآيات قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنها دليل على الإله الأوحد الذي تجب طاعته، والالتزام بأمره ونهيه، وخلع ما يعبد من دونه من الأنداد والشركاء، فهو المتفرد بالألوهية، فليست نفوسكم مخلوقة بالصدفة ولا بالطبيعة، وإنما خالقها الله القادر على كل شيء، وعلى البعث وإعادة الحياة[٢].

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

وبالأسلوب العقلي المنطقي تأتي أدلة الوحدانية، فتأتي الآيات القرآنية تباعًا لتبين أنه لو كان للكون خالقان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام واحد، ولكان العجز يلحق أحدهما؛ لتنازع الإرادتين بين سلب وإيجاب، وذلك لو أراد أحدهما مثلًا إحياء جسم، وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض؛ لاستحالة تجزؤ الفعل إن فرض الاتفاق، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزًا ويسمى هذا الدليل دليل التمانع، أي: امتنعت الثنوية

(١) انظر: التفسير الوسيط، نخبة من علماء الأزهر ٩/ ١٢٦١.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٧/ ١٩.

لامتناع الفساد، فكانت الوحدانية[1].

قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

باستنكار وتعجب يكذبهم الله عز وجل فيما يدعون من الشريك والولد، و ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾، فلو كان هناك شريك لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه، ولم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره، ومنع كل إله الآخر عن الاستيلاء على ما خلقه هو، وطلب بعضهم مغالبة بعض، كما يفعل ملوك الدنيا فيما بينهم، ولغلب القوي منهم الضعيف، فتعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم، فيختل النظام لهذا الكون، ويضطرب الأمر، ويعم الفساد في هذا العالم، والضعيف لا يمكن أن يكون إلهًا.

ولما كان المشاهد غير ذلك؛ إذ كل شيء في هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق، دل الأمر على أن لهذا الكون كله إلهًا واحدًا قادرًا، وإذا كان كذلك فعلم عقلًا أنه إله واحد، بيده ملكوت كل شيء، ويقدر على كل شيء، فسبحان الله ما أبلغها من حجة وأوجزها لمن عقل وتدبر.

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢-٤٣].

قال ابن العباس رضي الله تعالى عنهما: «لطلبوا مع الله منازعة وقتالًا كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض».

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: «المعنى إذًا لطلبوا طريقًا إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه؛ لأنهم شركاؤه»[2].

فالنتيجة النهائية لهذا المنطق أن الله واحد لا شريك له، له وحده تجب العبادة والخشية والخضوع.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

فالآيات القرآنية قد جاءت متضمنة الأدلة العقلية، صافية من كل كدر، فما على العقل إلا فهمها وإدراكها، وعدم التكبر والعناد.

(١) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص ٢٧٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٦٥.

حقوق الألوهية

إن للألوهية حقوقًا واجبة على العباد، وإن من أهم حقوق الألوهية ما يلي:

أولًا: التوحيد:

وهو الإقرار بوحدانية الله سبحانه وتعالى وعدم الإشراك به، وذلك بالاعتقاد الراسخ بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والعمل بمقتضاه[1].

وقد بين الله عز وجل كفر الذين أشركوا بالله ولو يوحدوه، فذم الله النصارى الذين زعموا أن الإلهية ثلاثة مشتركة، الله والمسيح ومريم فكفروا بذلك[2].

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

واتخذ اليهود والنصارى علماءهم وقراءهم وأحبارهم ورهبانهم أربابًا، فهم لم يعبدوهم مباشرة، بل إنهم أطاعوهم في معصية الله، عز وجل واستحلوا ما أحلوا، وحرموا ما حرموا، فاتخذوهم كالأرباب، وكذلك اتخذوا المسيح ابن مريم عليه السلام، إلهًا ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١][3].

عن معاذ رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له عفير، فقال: (يا معاذ، هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟)، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا)، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: (لا تبشرهم، فيتكلوا)[4].

ثانيًا: العبادة:

ومن حق الألوهية أيضًا القيام لها بالعبادة، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، سواءٌ أعمال القلوب أو أعمال الجوارح، كلها يجب أن تكون على وفق الشرع، وأن تكون خالصة لله، وأن يكون التأله لله وحده، وإذا حصل تأله لغير الله فإن هذا هو الشرك، ويجب أن يكون الحب والخضوع والذل والتعظيم في أداء العبادات لله وحده[5].

فما خلقهم الله تعالى إلا لذلك.

(١) انظر: التوحيد، عمر الحملاوي، ص ١٥.
(٢) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٢١٣.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٣٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، ٤/ ٢٩، رقم ٢٨٥٦.
(٥) انظر: شرح فتح المجيد، الغنيمان ٢٧/ ١٠.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إن الله جل جلاله أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السماوات والأرض؛ ليعرف ويعبد ويوحد، ويكون الدين كله له، والطاعة كلها له، هذا الذي من أجله خلق الله تبارك وتعالى الثقلين، فالعبادة لله هي الغاية المحبوبة المرضية له عز وجل[١].

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

تبين الآية أن الملة القيمة والدين المنجي من العذاب المحقق للإسعاد والكمال ما قام على أساس عبادة الله وحده، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والمسارعة إلى فعل الخيرات، والميل عن كل دين إلى هذا الدين، فحق الله عز وجل علينا أن نعبده، ونخلص له العبادة شكرًا لله على النعم التي منحنا إياها[٢].

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله تبارك وتعالى)**[٣].

إن تشريع الأحكام حق لله عز وجل وحده، ولا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله؛ لأنه إخلال بالألوهية، فإن طاعة البشر في التشريعات والأحكام المخالفة لحكم الله شرك في الألوهية.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

إن التشريع حق من حقوق الله سبحانه وتعالى، من ادعاه فقد ادعى الألوهية، ومن ادعى الألوهية فقد كفر، وهذا ما يعرفه الكثير من علماء السلطان الذين يلوون أعناق الآيات؛ لتماشي هوى السلطان فيما لا يرضي الله عز وجل، فقد فضلوا الدنيا على الآخرة، وجعلوا من سلاطين الدنيا آلهة لهم، لها حق التشريع والحكم، وضربوا بعرض الحائط كل الأحكام والقوانين الإلهية، ومن الناس من جعل أندادًا مع الله في الحاكمية، يغتصبون حقوق الألوهية وخصائصها، ويزاولونها في حياة الناس، وعن هذا يقول سيد قطب رحمه الله: «وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل!

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٥٥.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٦٠١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة)، ١/ ١٤، رقم ٢٥.

يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعًا! لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول: إن التشريع حق من حقوق الله سبحانه من ادعاه فقد ادعى الألوهية.

ومن ادعى الألوهية فقد كفر، ومن أقر له بتلك الفرية وتابعه عليها، فقد كفر أيضًا.

فقد يصل الكفر في مرحلة من مراحله لدرجة أن يدعي أناسٌ الألوهية من دون الله، وقد يكون هذا الادعاء قولًا ولفظًا، مثلما قال فرعون ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وقد يكون حكمًا وواقعًا، فإذا كان هناك أناس يشرعون للناس من دون الله عز وجل، فهذا ادعاءٌ للألوهية من دون الله سبحانه وتعالى بالفعل، قد لا يكون واضحًا بالقول، ولكنه على أية حال منازعة لله عز وجل في حقٍ عظيم من حقوق الألوهية وهو التشريع، مثل القوانين الوضعية التي يتحاكم عليها الناس تاركين شرع رب الأرباب.

مدعو الألوهية في القرآن

إن ادعاء الألوهية جريمة كبرى في حق الله تعالى، ولا شك أن للشيطان والهوى الأمارة بالسوء دورًا فاعلًا في هذا الادعاء الباطل، ولا شك أن مصير هؤلاء المدعين ومتبعيهم إلى سخط الله وعذابه في الدنيا والآخرة، وبيان ذلك فيما يلي:

أولًا: مدعو الألوهية:

١ . نمرود بن كنعان ملك بابل أول ملك في الأرض[١].

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «وقوله تعالى: ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

أي: وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره»[٢].

فزعم أنه يفعل كما يفعل الله عز وجل، فقال إبراهيم: ربي هو المنفرد بأنواع

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٣١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٨٦.

التصرف، وخص بالذكر الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا، والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال النمرود: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ فزعم أنه يقتل شخصًا فيكون قد أماته، ويستبقي على حياة آخر فيكون قد أحياه، واطرد سيدنا إبراهيم معه في الدليل فقال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ وهذا أمر يقر به كل أحد حتى ذلك الكافر، فلما قال له أمرًا لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحًا يقدح في سبيله، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ تحير فلم يرجع إليه جوابًا، وانقطعت حجته، وسقطت شبهته.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك[1].

٢. فرعون مصر.

فقد قال الله عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

وقال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾[الزخرف: ٥١].

ثانيًا: أسباب دعاواهم:

قال تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فإيتاء الملك العظيم لهذا النمرود أبطره وأورثه الكبر. وبدلًا من شكر الله على النعم العظيمة التي منحه الله عز وجل إياها حاج إبراهيم عليه السلام في ربه، والمحاجة هي أقبح وجوه الكفر، وادعى لنفسه مقام الألوهية عنادًا ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨][2].

أما فرعون فقد كان مثالًا للطاغية المتجبر، المتجاوز لحد الظلم والتجبر والاستبداد والمعصية، وكان قومه صورة للأقوام التي خضعت وتابعت هذا الطاغية، ووصل الأمر بفرعون إلى ادعاء الألوهية، والاستخفاف بعقول الناس وإرادتهم ومصالحهم، وكلما أنس منهم السكوت

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١١١.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٩٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٦.

على ظلمه، والخضوع لبغيه وعدوانه ازداد صلفًا وتجبرًا وتمردًا، حتى يصل إلى التأله، والإعراض عن كل الآيات التي جاءته من الله حتى أهلكه الله وقومه.

قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٣-٢٤].

فكان هذا هو السبب في ادعاء فرعون للألوهية.

ثالثًا: مصيرهم:

١. النمرود:

«بعث الله عز وجل عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه ثم ضرب بهما رأسه، وكان جبارًا أربعمائة سنة، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه، ثم أماته الله، وهو الذي كان بنى صرحًا إلى السماء، فأتى الله بنيانه من القواعد»[١].

٢. فرعون:

كان مصير هذا الفرعون الطاغي أن أغرقه الله في قاع البحر، وبقيت جثته على الماء؛ ولم يصدق بنو إسرائيل بهذا؛ لأن بني إسرائيل كان في نفوسهم من عظمته وجبروته ما خيل إليهم أنه لن يهلك، حتى كذبوا موسى حين أخبرهم بغرقه، إلى أن رأوه ملقى على الساحل، وكذلك ليكون لمن يأتي بعد ذلك من القرون التي ستسمع بأمره عبرة ونكالًا للطغيان، أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظيم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور، بعيد عن مظان الألوهية[٢].

قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

[يونس: ٩٠-٩٢].

رابعًا: مصير متبعيهم:

مصير أتباع النمرود: «بعث الله عز وجل إلى ذلك الملك الجبار ملكًا يأمره بالإيمان بالله جل جلاله، فأبى عليه ثم دعاه الثانية فأبى، ثم الثالثة فأبى وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم بابًا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عز وجل عليهم، فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظامًا بادية»[٣].

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٩.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٤٩٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٧،

مصير أتباع فرعون: أخذ الله عز وجل أتباع فرعون من الجنود الذين كانوا عونًا له في الظلم والاستبداد فنبذهم وطرحهم في البحر، ورماهم فيه رمي البقايا التالفة والمخلفات التي لا قيمة لها، وفي ذلك فخامة وتعظيم لشأن الآخذ، واستحقار شديد للمأخوذين، وكأنه أخذهم مع كثرتهم وطرحهم في اليم كما يأخذ الإنسان شيئًا عديم القيمة فيرميه.

وكذلك أتبعهم في هذه الدنيا التي فتنتهم وصرفتهم عن اتباع الهدى والحق المنير، لعنة وطردًا وإبعادًا عن الرحمة، يلعنهم الناس والملائكة إلى يوم الدين، وهم يوم القيامة من المطرودين المبعدين عن رحمة الله عز وجل[(١)].

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٠ - ٤٢].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤-٥٦].

وفي سورة غافر يبين الله جل جلاله نوعًا آخر لعذاب متبعي فرعون غير الغرق في الدنيا، فهم إلى يوم القيامة يعرضون على نار جهنم صباحًا ومساء.

يقول عز وجل: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦][(٢)].

وهناك العديد من الآيات التي تبين شدة العقاب الواقع عليهم في الدنيا والآخرة، وهذا يدل على عظم جريمة أتباع الظلمة والمفسدين، ومناصرتهم، وتأييدهم للظلم والمساعدة فيه.

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

وقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤١٦. فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٩.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٧٥.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

موضوعات ذات صلة:

أسماء الله، الإيمان، التوحيد، الشرك، صفات الله





عناصر الموضوع

مفهوم الامانة	٢٩٢
الأمانة في الاستعمال القرآني	٢٩٣
الالفاظ ذات الصلة	٢٩٤
الحث على الأمانة	٢٩٥
مجالات الامانة	٣٠٩
الآثار المترتبة على اداء الأمانات	٣٢٢



مفهوم الأمانة

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمانة: ضد الخيانة[١]. وهي مصدر مشتق من مادة (أمن) قال في اللسان: «(أمن) الأمان والأمانة بمعنى»[٢]. يقال: أمن: أمنًا وأمانًا وأمانةً وإمنًا وأمنةً، بمعنى: اطمأن ولم يخف، فهو آمن وأمن وأمين[٣].

فمادة (أمن) تدور حول معنيين:

أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها: سكون القلب.

والآخر: التصديق، والمعنيان متدانيان[٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفت الأمانة بأنها: رعاية حقوق الله تعالى بتأدية المرء للفرائض والواجبات، وكذلك المحافظة على حقوق العباد، فلا يطمع الإنسان في وديعة اؤتمن عليها، ولا ينكر مالًا أو متاعًا أمنه الناس عليه[٥].

وعرفها الكفوي بقوله: «كل ما افترض على العباد فهو أمانة، كصلاةٍ وزكاة وصيام وأداء دين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار»[٦].

وجاء معنى الأمانة بأنها: خلق يعف به الإنسان عما ليس له به حق، ويؤدي ما عليه من الحقوق[٧]. وهي على هذا الأساس تشتمل على ثلاثة عناصر:

- عفة الأمين عما ليس لديه حق في أخذه من الآخرين.
- تأدية الأمين ما يجب عليه من حقوق لأصحابها.
- اهتمام الأمين بحفظ ما استؤمن عليه من حقوق، وعدم التفريط بها[٨].

---

(١) مختار الصحاح، الرازي ص٢٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢١.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٨.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٣٣.
(٥) انظر: موسوعة أخلاق القرآن، الشرباصي ٢/ ١٥.
(٦) الكليات ص ١٨٧.
(٧) انظر: الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حبنكة الميداني ١/ ٦٤٥.
(٨) انظر: الأخلاق في الإسلام، كايد فرعوش وآخرون ص١٢٢.

الأمانة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أمن) في القرآن الكريم (٨٧٩) مرة، يخص موضوع البحث منها (٢١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة:٢٨٣]
الاسم	٦	﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [الأحزاب:٧٢]
الصفة المشبهة	١٤	﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف:٦٨]

وجاءت الأمانة في الاستعمال القرآني بمعنى: كل ما عهد به إلى الإنسان واتمن بالمحافظة عليه من فرائض أو طاعات، أو غير ذلك[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ٤/ ١٨٥-١٩٧.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٧٣، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص١٠٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ١٥٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ العهد:

العهد لغةً:

هو الموثق الذي يعطيه الإنسان لغيره، ويقال: عهد إليه، أي: أوصاه. فهو: التزام بين اثنين، أو أكثر على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به، وسمي عهدًا؛ لأنهما يتحالفان بعهد الله، أي: بأن يكون الله رقيبًا عليهما في ذلك[(١)].

العهد اصطلاحًا:

قال الراغب: حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال[(٢)].

الصلة بين العهد والأمانة:

العهد من الأمانات التي يجب على المسلم حفظها، بينما الأمانة عامة، تشمل العهد وغيره، فهي تعم جميع وظائف الدين، فكل عهد أمانة، وليس العكس. وأحيانًا يقال للشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه: أمانة وعهدًا[(٣)].

٢ الميثاق:

الميثاق لغةً:

هو مصدر بمعنى التوثقة[(٤)] وهو: العهد المؤكد بيمين أو نحوه، والفرق بين الميثاق والعهد: أن الميثاق توكيد العهد من قولك: أوثقت الشيء إذا أحكمت شده، وقال بعضهم: العهد يكون حالًا من المتعاهدين، والميثاق يكون من أحدهما[(٥)].

الميثاق اصطلاحًا:

حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال، فهو الموثق باليمين مما يلزم مراعاته.

الصلة بين الميثاق والأمانة:

الفرق بين الأمانة والميثاق كالفرق بين الأمانة والعهد من حيث العموم والخصوص، فالأمانة عامة، تشمل كل ما اؤتمن عليه الإنسان، والميثاق خاص بالعهد المؤكد باليمين.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٨١٩.
(٢) المفردات ص٥٩١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ١٦٦.
(٤) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١١٩٧.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٥٢٥.



الحث على الأمانة

تنوعت الأساليب القرآنية في الحث على الأمانة؛ حثًا للعباد على التمسك بها، وسوف نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الأمر الصريح بأداء الأمانة:

أمر الله تعالى في كتابه الكريم بأداء الأمانات إلى أهلها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

والمعنى: إن الله تعالى يأمركم بأداء مختلف الأمانات التي اؤتمنتم عليها إلى أصحابها، فلا تفرطوا فيها، ولا تضيعوها.

وتصدير الكلام بكلمة التحقيق ﴿إِنَّ﴾ تأكيد لوجوب امتثال الأمر، والدلالة على الاعتناء بشأنه، وإضافة (الأمر) إلى الله سبحانه وتعالى يفيد معنى التأكيد أيضًا، كما يقال لتأكيد الأمر للعبد بالطاعة: سيدك يأمرك بكذا، ولله المثل الأعلى في أوامره ونواهيه.

وهذه الصيغة صيغة قوة وسلطان، فهو لم يقل: إني آمركم، إنما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ يأمركم بألوهيته وعظمته وهذا نحو: إن الرئيس يأمر بكذا، فهذا أبلغ وأقوى من قولنا: صدر قرار بكذا وكذا.

واسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ أيضًا يوحي بالخشية والرهبة على عقبى التفريط بها، ثم إن الخطاب المباشر منه تعالى للناس كافة ﴿يَأۡمُرُكُمۡ﴾ دون توسيط الرسول صلى الله عليه وسلم الذي تنتهي مهمته بالإبلاغ مما زاد الأمر تأكيدًا وأهمية.

فيكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ خبرًا في الظاهر، لكنه في حقيقته أمر وطلب، فهو كاسم فعل الأمر، وكصيغة (عليك) في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وكقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وعلى هذا فجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ صريحة في الوجوب، مثل صراحة النهي في قوله في الحديث: (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم)(١).

ثم هو تعالى يأمر الناس جميعًا من عنده الأمانة والمجتمع الذي يراقب ويتابع ويساعد على التنفيذ، ويأمر بالأداء بفعل المضارع المفيد استمرار الوفاء بحق الأمانة؛ لتظل شارة الأمة التي تريد لنفسها البقاء، ثم هو الأداء إلى أهل الأمانة فجارًا كانوا أم أبرارًا.

فالخطاب في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ خطاب يعم حكمه المكلفين قاطبة، كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، ٦/ ٢٤٤٩، رقم ٦٢٧٠.

بذممهم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد، سواء كانت فعلية أو قولية أو اعتقادية، وإن كان هذا الأمر قد ورد في شأن عثمان بن طلحة بن عبد الدار سادن الكعبة المعظمة.

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان رضي الله عنه باب الكعبة، وصعد السطح، وأبى أن يدفع المفتاح إليه، وقال: «لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه»، فلوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يده، وأخذه منه وفتح، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم، وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح، ويجمع له السقاية والسدانة، فنزلت الآية -وظاهر هذا أنها نزلت في جوف الكعبة-، فأمر عليًا أن يرده إلى عثمان، ويعتذر إليه، فقال عثمان لعلي: «أكرهت وآذيت، ثم جئت ترفق؟!»، فقال: «لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآنًا»، فقرأ عليه الآية، فقال عثمان: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»، فهبط جبريل عليه السلام، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة في أولاد عثمان أبدًا[1].

والمقصود أنه وإن كان هذا خطابًا للرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أخذ مفتاح الكعبة من حجبتها، وهم بعض بني شيبة، فجاء الأمر من الله للنبي صلى الله عليه وسلم أن يرد لهم مفاتيح الكعبة إلا أن الآية أعم من ذلك، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في الأصول.

فيكون الخطاب لكل من يصلح لتلقي هذا الخطاب والعمل به من كل مؤتمن على شيء، ومن كل من تولى الحكم بين الناس في الحقوق[2].

فهو أمر عام للمؤمنين جميعًا، لا يختص به راع دون الرعية، ولا قوي دون ضعيف، ولا غني دون فقير، وهذا يدل على أهمية الأمانة، وتأكيد طلبها، وأنها فضيلة مطلقة.

وظاهر الآية أيضًا يفيد أن الأمر لعموم الناس مؤمنهم وكافرهم، ومن أهل العلم من قال: هو أمر لعموم المؤمنين.

وعبر بالأداء في قوله: ﴿أَن تُؤَدُّوا﴾؛ لأن الأداء: دفع الحق وتوفيته كاملًا، وهذا الموضع كقوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣].

وقال: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة:١٧٨].

قال السعدي: «وفي قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمن، ووكيله بمنزلته؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٩٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٩٦٩.

مؤديًا لها»[(١)].

ولهذا أجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها، الأبرار منهم والفجار، كما قال ابن المنذر[(٢)].

وفي حديث سمرة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)[(٣)].

فإطلاق اسم الأمانة في الآية حقيقة؛ لأن عثمان سلم مفتاح الكعبة للنبي صلى الله عليه وسلم دون أن يسقط حقه، والأداء حينئذٍ مستعمل في معناه الحقيقي؛ لأن الحق هنا ذات يمكن إيصالها بالفعل لمستحقيها، فتكون الآية آمرة بجميع أنواع الإيصال والوفاءات، ومن جملة ذلك دفع الأمانات الحقيقة، فلا مجاز في لفظ: ﴿تُؤَدُّوا﴾[(٤)].

فيكون أداء الأمانة واجبًا عقلًا وشرعًا؛ لأن أداء الأمانة صفة من صفات الكمال، محبوبة بالذات؛ ولأن أداء الأمانة من أحد الجانبين سبب لأداء الأمانة من الجانب الثاني؛ قال بعض الصحابة: «رأيت أعرابيًا أتى باب المسجد، فنزل عن ناقته وتركها، ودخل المسجد، وصلى بسكينة ووقار، ودعا بما شاء، فتعجبنا، فلما خرج لم يجد ناقته، فقال: إلهي أديت أمانتك، فأين أمانتي؟ قال الراوي: فزدنا تعجبًا، فلم يمكث حتى جاء رجل على ناقته، وقد قطع يده، وسلم الناقة إليه، والسبب أنه لما حفظ أمانة الله، حفظ الله أمانته»[(٥)].

وجمع (الأمانات) هاهنا باعتبار تعدد أنواعها، وتعدد القائمين بالحفظ، تنصيصًا على العموم. فللأمانة معانٍ كثيرة مادية ومعنوية، تدور كلها على صون حقوق الله، وحقوق الناس، في سائر الأعمال والأحوال، كما تتسع دائرة الأمانة؛ لتشمل المؤمن والكافر والبر والفاجر.

قال السعدي: «الأمانات كل ما ائتمن عليه الإنسان، وأمر بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها، أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولًا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات، والأموال، والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله، وقد ذكر الفقهاء على أن من اؤتمن أمانة وجب عليه حفظها في حرزٍ مثلها.

قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك»[(٦)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨٣.
(٢) الإجماع، ابن المنذر ص٣٦.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤/ ١٥٠، رقم ١٥٤٢٤، وأبو داود في السنن، كتاب الإجارة، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده ٣/ ٣١٣، رقم ٣٥٣٦، والترمذي في سننه، أبواب البيوع ٣/ ٥٦٤، رقم ١٢٦٤. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٧٨٣، رقم ٤٢٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٩٧٠.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٢٨.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨٣.

ويدخل في ذلك: أمانات الطبيب أن يؤدي إلى المريض حقه من التشخيص، وأمانات أصحاب الصنائع أن يتقنوا صناعاتهم، وينصحوا للناس، كما علمهم الله تبارك وتعالى.

ومن الأمانات الأمانة العلمية، فالعالم استؤمن على العلم فعليه أن يؤديه إذا طلب منه.

ومن الأمانة تسخير الحواس والجوارح في طاعة الله، واستعمالها في مرضاته، ومن الأمانة أداء الحقوق، وحفظ الودائع، ثم تأديتها إلى أصحابها، برًا كان أم فاجرًا، وسواء كان مسلمًا أم كافرًا.

ومن الأمانة صيانة أعراض المسلمين، وستر عوراتهم، وحفظ المجالس، وتجنب إفشاء الأسرار، والمبالغة في سرد الأخبار، والتحديث بكل ما يسمع ويقال.

ومن الأمانة حفظ الأسرار الزوجية؛ وأمانة الزوجين القيام بواجباتهما الأسرية؛ وذلك بإلزام أهل البيت بالفرائض والواجبات، وتربيتهم على الفضائل والمستحبات، وتطهير البيت من المنكرات.

ومن الأمانة إتقان العمل المناط بالمسلم، فيؤدي المرء ما عليه على خير وجه، فالعامل يتقن عمله ويؤديه بإجادة وأمانة، وهكذا يؤدي كل امرئٍ واجبه بأمانة وجد واجتهاد.

والأمانة في الإسلام كالعدل مطلقة لا نسبية، وترتفع قيمة الأمانة إلى حد لا يغني بذل الحياة عنها.

وقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة، ثم قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله، فيقال: أد أمانتك، فيقول: أي: رب كيف وقد ذهبت الدنيا؟ قال: فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلق به إلى الهاوية، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه، حتى إذا نظر ظن أنه خارج زلت عن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عدها، وأشد ذلك الودائع»[(١)].

وبهذا ندرك سر حرص النبي صلى الله عليه وسلم على التذكير بها في كل موعظة، فقد جاء عن أنس رضي الله عنه أنه قال: ما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: (لا إيمان لمن لا عهد له)[(٢)].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٨٨. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ١٥٧، رقم ١٧٦٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٢، رقم ١٢٥٦٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧١٧٩.

ومن هنا اشترط فيمن يتولى أمور المسلمين أن يكون قادرًا على الوفاء بحق الأمانة، وليس كل مسلم صالحًا لها، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: **(يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها)**[(١)].

والمقصود: أن الله أمر المؤمنين في هذه الآية بأداء الأمانات في جميع الأمور، سواء كانت من باب المذاهب والديانات، أو من باب الدنيا والمعاملات[(٢)].

ومعنى أدائها إلى أهلها توصيلها إلى ذويها كما هي، من غير بخس ولا تطفيف، وأهل الأمانة هم مستحقوها، يقال: أهل الدار، أي: أصحابها.

فالعالم يؤدي أمانة العلم من غير زيادة عليها ولا تحريف لها؛ لأن الزيادة طمس لمعالم العلم، والتحريف تبديل للحق، فمن أوتي علمًا بالقرآن لا يؤله لهوى في نفسه، بل يقدمه للناس من غير تحريف للكلم عن مواضعه، والحكم كذلك أمانة في أعناق الحكام، عليهم أن يؤدوا الأمانة فيه بإقامة العدل، وتوخي المصلحة، وتجنب الفساد، سواء أكان فسادًا معنويًا، أم كان فسادًا ماديًا، والأول أعلى أنواع الفساد، والثاني أدناها، ومن أمانة الحكم ألا يشقوا على الرعية، وألا يفسدوا ضمائرهم، ولا يزعجوهم بالتظنن والتتبع، ما داموا مؤمنين مذعنين...، وإذا كانت رعاية الأمانات وأداؤها واجبًا مفروضًا على الأمة كلها حاكمها ومحكومها، وأنها متفاوتة المراتب، فإن الحاكم قد اختص بواجب آخر هو العدل، وهو من نوع الأمانة التي اختص بها؛ ولذا قال سبحانه بعد الأمر بأداء الأمانات: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨][(٣)].

ثانيًا: وصف جبريل عليه السلام بالأمين:

ومما يرغب في الأمانة أنها من صفات أشرف الملائكة المقربين، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فقد أخبر الله تبارك وتعالى أن مما اتصف به جبريل من الصفات صفة الأمانة، فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣].

ففي قوله: ﴿الْأَمِينُ﴾ دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به، لا يزيد فيه ولا ينقص منه؛ فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة، ويدل هذا على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل في طريق إنزاله؛ لأن الرسول

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ٣/ ١٤٥٧، رقم ١٨٢٥.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ١٣.

(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ١٧٢٤.

المؤتمن على إنزاله قوي لا يغلب عليه حتى يغير فيه، أمين لا يغير ولا يبدل.

وفي هذه الآية إشادة بنزول القرآن من عند الله تعالى بواسطة جبريل الأمين، وحققت صدقه بأنه نزل به ﴿الرُّوحُ﴾ ويطلق لفظ: ﴿الرُّوحُ﴾ على الملك الذي ينزل بالوحي على الرسل، وهو جبريل عليه السلام.

وسمي روحًا من حيث إنه خلق من الروح، فهو روح كله، لا كالناس الذين في أبدانهم روح[1]. أو لأن نجاة الخلق في باب الدين متوقف على ما جاء به، فهو كالروح الذي تثبت معها الحياة، أو لأن الدين يحيى به، وقيل: سمي روحًا على المجاز لمحبته وتقريبه، كما تقول لحبيبك: روحي[2].

وسماه أمينًا؛ لأنه مؤتمن على وحيه لأنبيائه[3]. فهو مقبول القول، مصدقٌ بقوله، مؤتمن على ما يرسل به، ويؤدي من وحي، وامتثال أمر[4].

وقد كان لجبريل عليه السلام من الصفات الحميدة العظيمة من الكرم، والقوة، والقرب من الله تعالى، والمكانة والاحترام بين الملائكة، والأمانة، والحسن، والطهارة ما جعله أهلًا لأن يكون رسول الله تعالى بوحيه إلى رسله...، وقد بين الله تعالى لنا هذه الأوصاف في القرآن، وهي تدل على عظم القرآن وعنايته تعالى، فإنه لا يرسل من كان عظيمًا إلا بالأمور العظيمة.

قال عز وجل في صفته في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

فنجد في هذه الآيات أن الله تعالى وصف جبريل عليه السلام بست من صفات الكمال، أحدها: كونه رسولًا لله، وثانيها: كونه كريمًا على الله تعالى، وثالثها: كونه ذا قوة عند الله، ورابعها: كونه مكينًا عند الله، وخامسها: كونه مطاعًا في عالم السموات، وسادسها: كونه أمينًا في كل الطاعات، مبرءًا عن أنواع الخيانات...، وكما وصف جبريل عليه السلام هاهنا بهذه الصفات الست وصف محمدًا صلى الله عليه وسلم أيضًا بصفات، وهي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

فالوصف الأول: كونه شاهدًا، والثاني: كونه مبشرًا، والثالث: كونه نذيرًا، والرابع: كونه داعيًا إلى الله تعالى بإذنه، والخامس: كونه سراجًا منيرًا.

والمقصود أن جبريل عليه السلام قوي شديد أمين كريم، لا يمكن أبدًا أن يفرط بهذا

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٥٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٧/ ٢.

الوحي الذي نقله إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذه الصفات في مجموعها توحي بكرامة هذا القول وضخامته، وسموه كذلك وارتفاعه، كما توحي بعناية الله سبحانه بالإنسان؛ حتى إنه ليختار هذا الرسول صاحب هذه الصفة؛ ليحمل الرسالة إليه، ويبلغ الوحي إلى النبي المختار منه، وهي عناية تخجل هذا الكائن الذي لا يساوي في ملك الله شيئًا، لولا أن الله سبحانه يتفضل عليه، فيكرمه هذه الكرامة!

وكأن المعنى: هذه صفة الرسول الذي حمل القول وأداه، فأما الرسول الذي حمله إليكم فهو ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ [التكوير: ٢٢].

عرفتموه حق المعرفة، عمرًا طويلًا، فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون، وتذهبون في أمره المذاهب، وهو صاحبكم الذي لا تجهلون؟! وهو الأمين على الغيب الذي يحدثكم عنه عن يقين[1].

وقد جاء في قوله: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أنه: أمين على سبعين حجابًا يدخلها بغير إذن[2].

وهذا كله يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم، الموصوف بتلك الصفات الكاملة، والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات، وأشرف الرسائل. ويدل على أهمية صفة الأمانة؛ وصف جبريل بها، وأنه ينبغي الحرص على الاتصاف بها، والتشبه بالرسول الملكي والرسول البشري المتصفين بهذه الصفة.

ثالثًا: وصف الأنبياء عليهم السلام بالأمانة:

ومما يرغب في الأمانة أنها من صفات الأنبياء، ومن مستلزمات الرسالة؛ إذ كل رسول قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:١٠٧].

فإن الرسول لا يبعث إلا وهو معروف بالأمانة، وحسن الخلق قبل الرسالة.

فهذا نوح يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:١٠٧].

وجملة ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعليل للإنكار، أو للتحضيض، أي: كيف تستمرون على الشرك وقد نهيتكم عنه وأنا رسول لكم، أمين عنكم، وكان نوح موسومًا بالأمانة، لا يتهم في قومه، كما كان محمد صلى الله عليه وسلم يلقب الأمين في قريش؛ ولهذا قال النابغة الذبياني[3]:

فألفيت الأمانة لم تخنها
كذلك كان نوح لا يخون

وتأكيده بحرف التأكيد ﴿إِنِّي﴾ مع عدم

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ٤٧٣.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٤٣٤.
(٣) انظر: ديوان النابغة الذبياني ص ٧٣.

سبق إنكارهم أمانته؛ لأنه توقع حدوث الإنكار، فاستدل عليهم بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة، فإن الأمانة دليل على صدقه فيما بلغهم من رسالة الله.

كما قال هرقل لأبي سفيان وقد سأله: «هل جربتم عليه، يعني: النبي صلى الله عليه وسلم كذبًا؟» فقال أبو سفيان: «لا، ونحن منه في مدة، لا ندري ما يفعل فيها»، فقال له هرقل بعد ذلك: «قد علمت أنه ما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله!» ففي حكاية استدلال نوح بأمانته بين قومه في هذه القصة المسوقة مثلًا للمشركين في تكذيبهم محمدًا صلى الله عليه وسلم تعريض بهم إذ كذبوه بعد أن كانوا يدعونه الأمين، ويحتمل أن يراد به أمين من جانب الله على الأمة التي أرسل إليها[(١)].

وقال نوح عليه السلام أيضًا في موضع آخر: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف:٦٨].

فجاء بوصف الأمانة وهي الوصف العظيم الذي حمله الإنسان، ولا أمانة أعظم من أمانة الرسالة، وإيصال أعبائها إلى المكلفين، والمعنى: أني عرفت فيكم بالنصح، فلا يحق لكم أن تتهموني، وعرفت بالأمانة فيما أقول فلا ينبغي أن أكذب.

وقوله: ﴿أَمِينٌ﴾ يحتمل أن يريد على الوحي والذكر النازل من قبل الله، ويحتمل أنه أمين عليهم وعلى غيبهم، وعلى إرادة الخير بهم، والعرب تقول: فلان لفلان ناصح الجيب، أمين الغيب، ويحتمل أن يريد به من الأمن، أي: جهتي ذات أمن لكم من الكذب والغش[(٢)].

والمعاني كلها متقاربة وصحيحة.

وقال موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الدخان: ١٨].

أي: على وحيه ورسالته، صادق في دعواه بالمعجزات، وهو علة للأمر بالتأدية، وفيه إشارة إلى أنه يلزم تأدية بني إسرائيل إلى موسى عليه السلام لكونه أمينًا.

وهكذا نجد أن الأمانة شرط أساس لاصطفاء الرسل، وهي من أبرز أخلاقهم، ولقد تجلى هذا الخلق العظيم في أبهى وأزهى صوره في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد عرف بالأمانة والصدق حتى لقبته قريش بالصادق الأمين، ويدل على ذلك قصة رفع الحجر الأسود عند بناء الكعبة المشرفة، عندما تنازعوا في استحقاق شرف رفعه، ووضعه في مكانه من البيت، حتى كادوا يقتتلون لولا أنهم احتكموا لأول من يدخل من باب الصفا، وكان صلى الله عليه وسلم هو أول من دخل، فقالوا: قبلنا به حكمًا، هذا هو الصادق الأمين، فرفعوه

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٠٢٧.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٧٦.

في ثوب، ثم أخذه صلى الله عليه وسلم بيديه، ووضعه في الركن المعد له في الكعبة المشرفة[(١)].

فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان يعرف بالأمين قبل النبوة، وبعد حمله الرسالة مثل الأمانة حق تمثيل، حتى وكل عليًا رضي الله عنه في أداء الأمانات لأهل مكة، بعد أن طردوه منها[(٢)].

وكانت تلك شهادة أعدائه فيه، كما جاء في حوار أبي سفيان وهرقل، حيث قال هرقل: «سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة. قال: وهذه صفة نبي»، وفي موضع آخر: «وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون»[(٣)].

ولئن كانت هذه صفة أصحاب الدعوات فإن أتباعهم كذلك متميزون؛ ولذلك اقترن تعريف المؤمن بسلوكه المميز، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (**المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم**)[(٤)].

أي: الإيمان والأمانة أخوان، بحيث لا وجود للإيمان بدون الأمانة، فمن كان أمينًا بحيث يأمنه الناس على أموالهم ونفوسهم ولا يخاف منه على مال أحد ولا على نفسه؛ فذلك الحقيق بأن يسمى مؤمنًا.

فالرسل أمناء الله على وحيه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟! يأتيني خبر السماء صباحًا ومساء**)[(٥)].

وكذلك كل من جاء بعدهم من العلماء والدعاة فهم أمناء في تبليغ هذا الدين إلى الناس.

والمقصود أن الأمانة صفة وشعار كل الرسل والدعاة الصادقين الصالحين، في كل الأمم والعصور، فالرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة، وإبلاغ الأمانة، وقد قاموا بذلك أتم القيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق، وهذا يقتضي تعظيم الأمانة، والاقتداء بهم

---

(١) أخرجه أحمد ٢٤/ ٢٦١، رقم ١٥٥٠٤.

(٢) انظر: معرفة السنن والآثار، البيهقي ١٠/ ٤٩٢، رقم ٤٠٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٧، رقم ٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله، ٢/ ١٢٩٨، رقم ٣٩٣٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٦٥٨.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع، ٤/ ١٥٨١، رقم ٤٠٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ٣/ ١١٠، رقم ٢٥٠٠.

في هذه الصفة؛ لأن الاقتداء بالأنبياء مأمور به.

وكذلك كان للأمانة عند أتباع الأنبياء شأن عظيم، فقد رعوها حق رعايتها، وعظموا شأنها، وحثوا عليها، ففي فتوحات فارس غنم المسلمون غنائم كثيرة، وكان من أعجب ما أخذوا من الغنائم البساط -بساط كسرى-، وهذا البساط كان كبير الطول والعرض، وكان كسرى إذا جاء الشتاء يشتاق إلى الربيع، فأمر المهرة والمهندسين والفنيين، فصنعوا له هذا البساط العظيم، وجعلوا اليواقيت فيه مثلما تنبت الأزهار في الربيع ملونة بالألوان المعروفة، فأخذوا اللآلئ واليواقيت والجواهر ولونوها بلون الأزهار، وغرسوها في هذا البساط العظيم، فيجلس كسرى في إيوانه في وسط هذا البساط العجيب، ولم يكن لدى أحد من ملوك الأرض مثل هذا البساط، ولكن ماذا يفعل المسلمون؟ لابد أن يبعثوا بكل هذه الغنائم إلى بيت المال؛ ليقسمها عمر رضي الله عنه، ويعطي من شاء، كما فرض الله سبحانه وتعالى، فكيف كان العمل؟

ليس هناك من وسيلة لنقل هذا البساط كاملًا، فقالوا: لابد أن نقطعه، ويحمل كل جمل ما يستطيع، فقطعه سعد رضي الله عنه ومن معه، حتى أوصلوه إلى المدينة، وقالوا لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: ألا نريك يا أمير المؤمنين كيف كان يجلس كسرى؟! ففرشوا ذلك البساط، وضموا كل قطعة إلى الأخرى، وعمر رضي الله عنه واقف يتأمل ويتفحص، ويتعجب حيث لم تنقص منه لؤلؤة واحدة، فقال: «إن قومًا أدوا هذا لأمناء» وقد قال ابن أبي نجيح: «لما أتي عمر بتاج كسرى وسواريه جعل يقلبه بعود في يده، ويقول: والله إن الذي أدى إلينا هذا لأمين، فقال رجل: يا أمير المؤمنين أنت أمين الله، يؤدون إليك ما أديت إلى الله، فإذا رتعت رتعوا. قال: صدقت»[1].

أي: أن جيش المسلمين جيش أمين حين أدى ذلك؛ لأن ياقوتة واحدة يضعها في جيبه قيمتها بعشرة آلاف دينار! ولم يكن العرب قبل الإسلام يحلمون بألف ولا بمائة درهم أن يكسبها الواحد من أموال كسرى، لكن عمر رضي الله عنه وجد البساط كاملًا! فتعجب من هذه الأمانة! وكان بجواره أحد الصحابة فقال: «يا أمير المؤمنين عففت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا» أي: لو أنك خنت لخانوا، فهؤلاء جيشك تربوا على الإيمان الذي تربيت عليه.

إنها الأمانة التي فقدتها الأمة الإسلامية؛ لأن هؤلاء القوم لم يخرجوا إلا ابتغاء وجه الله، وقاتلوا في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله، وماذا تساوي يواقيت كسرى بالنسبة

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٣٥٧.

إلى جنات النعيم؟!

وماذا يساوي أخذ شيء من هذه الدنيا الفانية إذا كان الإنسان متوعدًا عليه بغضب من الله عز وجل، ونارٍ في الدار الآخرة؛ فلذلك أدوا تلك الغنائم كاملة، وشهد لهم عمر رضي الله عنه بالأمانة.

ومما يدل على مكانة الأمانة عند السلف أتباع الأنبياء ما جاء عن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول: «لا يغرنك صلاة امرئ ولا صومه، من شاء صام ومن شاء صلى، ولكن لا دين لمن لا أمانة له»[1].

وقال نافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما: «طاف ابن عمر سبعًا، وصلى ركعتين، فقال له رجل من قريش: ما أسرع ما طفت وصليت يا أبا عبد الرحمن! فقال ابن عمر: أنتم أكثر منا طوافًا وصيامًا، ونحن خير منكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وإنجاز الوعد»[2].

رابعًا: وصف مكة المكرمة بالبلد الأمين:

وصف الله تعالى مكة بالبلد الأمين، بقوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:٣].

والمراد: مكة باتفاق[3]. وسمي الأمين لأن من دخله كان آمنًا، فالأمين فعيل بمعنى: مفعل، ويجوز أن يكون بمعنى: مفعول، على وجه الإسناد المجازي، أي: المأمون ساكنوه.

قال تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤].

والإشارة إليه بقوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ للتعظيم، ولأن نزول السورة في ذلك البلد، فهو حاضر بمرأى ومسمع من المخاطبين، نظير قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:١][4].

والأمن أكبر شروط حسن المكان؛ لأن الساكن أول ما يتطلب الأمن وهو السلامة من المكاره والمخاوف، فإذا كان آمنًا في منزله كان مطمئن البال، شاعرًا بالنعيم الذي يناله.

وأمين للمبالغة، أي: آمن من فيه وما فيه من طير وحيوان...، وأمانته حفظه من دخله، كما وصف بالأمن، في قوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧].

بمعنى: ذي أمن.

وفائدة القسم بهاتيك البقاع المباركة المشحونة ببركات الدنيا والدين إبانة شرفها، وما ظهر فيها من الخير بسكنى الأنبياء والصالحين[5]. وفيه إشارة إلى موارد أعظم الشرائع الواردة للبشر، فـ (التين) إيماء

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٨٨.
(٢) انظر: أخبار مكة، الفاكهي ١/ ٣٧٢، الآداب الشرعية، ابن مفلح ١/ ٤٠.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٣٣٩.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٨٥٦.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٤٩٨.

إلى رسالة نوح، وهي أول شريعة لرسول، و(الزيتون) إيماء إلى شريعة إبراهيم...، و﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ إيماء إلى شريعة التوراة، و﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ إيماء إلى مهبط شريعة الإسلام، ولم يقع إيماء إلى شريعة عيسى؛ لأنها تكملة لشريعة التوراة، وقد يكون الزيتون على تأويله بالمكان وبأنه المسجد الأقصى إيماء إلى مكان ظهور شريعة عيسى عليه السلام؛ لأن المسجد الأقصى بناه سليمان عليه السلام، فلم تنزل فيه شريعة قبل شريعة عيسى، ويكون قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:٣]. إيماء إلى شريعة إبراهيم وشريعة الإسلام، فإن الإسلام جاء على أصول الحنيفية؛ وبذلك يكون إيماء هذه الآية ما صرح به في قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣][(١)].

والمقصود أن مكة المكرمة هي البلد الأمين والآمن، وقد وردت آيات كثيرة تبين هذا غير ما سبق، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

وهو استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام، حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

فهو بلد أمن وسلام وسكينة وراحة.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يعترض له»، وقيل: آمنًا يعني: الأمان لكل أحد حتى الوحوش والجمادات والأشجار؛ لهذا كانوا في الجاهلية يحترمونه أشد الاحترام مع شركهم، ولما جاء الإسلام زاد حرمته تعظيمًا وشرفًا وتكريمًا[(٢)].

خامسًا: الثناء على الذين يؤدون أماناتهم:

أثنى الله تعالى على المحافظين على الأمانة، والموفين بالعهود، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

والآية تدل على أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس: أنهم راعون لأماناتهم وعهدهم، أي: محافظون على الأمانات والعهود.

وقوله: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ الأمانة هي في الأصل مصدر، لكن أريد بهاهنا ما اتمن عليه؛ إذ الحفظ للعين لا للمعنى.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٨٥٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١١١.

وهي تشمل: كل ما استودعك الله، وأمرك بحفظه، فيدخل فيها حفظ جوارحك من كل ما لا يرضي الله، وحفظ ما ائتمنت عليه من حقوق الله وحقوق الناس.

وكذا العهد مصدر أريد به ما عوهد عليه، ويشمل: كل ما أخذ عليك العهد بحفظه من حقوق الله وحقوق الناس.

وجمعت الأمانة دون العهد، قيل: لأنها متنوعة متعددة جدًا بالنسبة إلى كل مكلف من جهته تعالى، ولا يكاد يخلو مكلف من ذلك، ولا كذلك العهد.

ويجوز أن يراد بالأمانات ما ائتمنهم الله تعالى عليه من الأعضاء والقوى، والمراد برعيها حفظها عن التصرف بها على خلاف أمره عز وجل، وأن يراد بالعهد ما عاهدهم الله تعالى عليه، مما أمرهم به سبحانه بكتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، والمراد برعيه حفظه عن الإخلال به؛ وذلك بفعله على أكمل وجه، فحفظ الأمانات كالتخلية، وحفظ العهد كالتحلية، وكأنه جل وعلا بعد أن ذكر حفظهم لفروجهم ذكر حفظهم لما يشملها وغيرها[1].

ولما كانت الأمانة غالبًا في الأمور النفيسة التي يخشى صاحبها عليها التلف والضياع، فيجعلها عند من يظن فيه حفظها، وفي الغالب يكون ذلك على انفراد بين المؤتمن والأمين، فهي لنفاستها قد تغري الإنسان على جحدها وعدم ردها إلى صاحبها، ولكون دفعها في الغالب يخلو من الإشهاد جعل الله ردها من شعب الإيمان.

وهذه الصفة من جلائل صفات المؤمنين، وهي تنحل إلى فضيلتين، هما فضيلة أداء الأمانة التي يؤتمنون عليها، وفضيلة الوفاء بالعهد، فلا خيانة ، ولا خلف.

فخيانة الأمانة، وعدم الوفاء بالعهد من الكبائر، ومن علامة النفاق، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)**[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: **(لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)**[3].

والمقصود أن الله مدح المؤمنين من

(١) روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٥٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٢، رقم ١٢٥٦٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧١٧٩.

عباده، فوصفهم بأنهم يرعون العهد، فلا يخونونه أو ينكثونه، ويحفظون الأمانة فلا يضيعونها أو يهملونها، وإنما يؤدونها إلى أهلها كاملة وافية.

وقد اعتبرت الأمانة صفة من صفات عباد الله المؤمنين من الجن والإنس.

قال تعالى على لسان أحد العفاريت الذين سخرهم لنبيه سليمان عليه السلام، عندما طلب سليمان إحضار عرش بلقيس من اليمن إليه: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل ٣٨-٣٩].

وأخبر أن الأمانة من صفات الملائكة الأبرار، ومنهم جبريل الذي نزل بالقرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الأمانة من صفات الأنبياء والمرسلين الذين ائتمنهم الله على رسالته إلى خلقه، والذين هم أمناء على ما يعود بالنفع على أمتهم، حريصون على هدايتهم وإرشادهم، وكل هذا ترغيب بهذه الصفة الكريمة، وحث على الاتصاف بها.

وحسبك من رفع شأن الأمانة أن صاحبها جدير بولاية أمر المسلمين؛ لأن ولاية أمر المسلمين أمانة لهم ونصح؛ ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم يقول[(١)]: **(إن لكل أمة أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح)**[(٢)].

وحسبك من رفع شأن الأمانة أن من خانها قطعت يده، ولو في ربع دينار فقط، مع أنه عرف من الشرع أن اليد فيها نصف الدية، ودية الذهب ألف دينار، فتكون دية اليد خمسمائة دينار، فكيف تؤخذ في مقابلة ربع دينار؟ وما وجه العدالة والإنصاف في ذلك؟ وهذا النوع من اعتراضات الملحدين الذين لا يؤمنون بالله ورسوله قد نظمه المعري بقوله[(٣)]:

يدٌ بخمس مئينٍ عسجدٍ وديت
ما بالها قطعت في ربع دينار؟
تناقض ما لنا إلا السكوت له
ونستعيذ بمولانا من النار

وقد رد عليه أحد الشعراء بقوله[(٤)]:

قل للمعري عارٌ أيما عار
جهل الفتى وهو عن ثوب التقى عاري
يدٌ بخمس مئينٍ عسجدًا وديت

(١) انظر: تاريخ دمشق ٥٨ / ٤٠٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، ٣/ ١٣٦٩، رقم ٣٥٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، رقم ٢٤١٩.
(٣) انظر: ديوان أبي العلاء المعري ١/ ٥٧٠.
(٤) البيتان منسوبان لعلم الدين السخاوي. انظر: نكث الهميان، الصفدي ١/ ٣٧.

ما بالها قطعت في ربع دينار

صيانة النفس أغلاها وأرخصها

ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

وقد قيل: لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت. ومن الواضح أن تلك اليد الخسيسة الخائنة لما تحملت رذيلة السرقة، وإطلاق اسم السرقة عليها في شيء حقير كثمن المجن والأترجة، كان من المناسب المعقول أن تؤخذ في ذلك الشيء القليل، الذي تحملت فيه هذه الرذيلة الكبرى.

فالشرع إنما قطع يده بسبب أنه تحمل الدناءة والخساسة في سرقة ذلك القدر القليل، فلا يبعد أن يعاقبه الشرع بسبب تلك الدناءة هذه العقوبة العظيمة، فانظر ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق، والتنزه عما لا يليق!

وقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدًا يدل على أن التشريع السماوي يضع درجة الخائن من خمسمائة درجة إلى ربع درجة، فانظر هذا الحط العظيم لدرجته بسبب ارتكاب الرذائل!

ولو أن الدية كانت ربع دينار لكثرت الجنايات على الأيدي، ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثرت الجنايات على الأموال؛ فظهرت الحكمة في الجانبين، وكان في ذلك صيانة من الطرفين[(١)].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٥.

مجالات الأمانة

تعددت مجالات الأمانة كما بينها القرآن الكريم، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: التكاليف الشرعية:

المجالات التي تدخل فيها الأمانة كثيرة ومتعددة؛ لأن الأمانة تدخل في جميع أعمال الإنسان التي يقوم بها في الحياة، وفي جميع التكاليف التي كلف بها، ومنها: الأمانة الكبرى أمانة الدين، وهي الخضوع لأوامر الله، والانتهاء عن زواجره، ومن هذه الأمانة الكبرى انبثقت سائر الأمانات، مثل: أمانة الشهادة لهذا الدين، وأمانة العلم، وأمانة الدعوة إلى الله تعالى، وأمانة المحافظة على حرمات المجتمع، وأمانة التعامل مع الناس، ورد أماناتهم إليهم، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: «والأمانة في الصلاة، والأمانة في الصوم، والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع»[(٢)]، فمفهوم الأمانة في الإسلام إذن شامل لدين الإنسان وطاقته في تحمل أعباء التكاليف التي فرضها الله تعالى عليه، وسنتناول في هذه السطور الأمانة في التكاليف الشرعية.

فمن أعظم مجالات الأمانة الأمانة في التكاليف الشرعية من صلاة وصيام وزكاة وحج وغسل من جنابة وغيرها.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٤٠.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقد اختلف في هذه الأمانة المعروضة في هذه الآية. وأرجح الأقوال وأجمعها في المراد بالأمانة هنا: أنها التكاليف والفرائض الشرعية التي كلف الله تعالى بها عباده، من إخلاص في العبادة، ومن أداء للطاعات، ومن محافظة على آداب هذا الدين وشعائره وسننه. فالأمانة هنا تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور، كما قاله القرطبي(١).

قال ابن كثير بعد أن ذكر أقوالًا في المراد بالأمانة المعروضة هنا: «وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة، وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله»(٢).

وقد قيل: يجب أن يطرح منها صنف الشرائع؛ لأنها ليست لازمة لفطرة الإنسان، فقد خلت أمم عن التكليف بالشرائع، وهم أهل الفترة(٣). والصواب ما قدمناه.

وعرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال على سبيل الحقيقة، فلا مانع من أن يخلق الله تعالى إدراكًا ونطقًا للسماوات والأرض والجبال فتعرض عليها الأمانة، فتدرك وتنطق، ولكن هذا الإدراك والنطق لا يعلمه إلا الله سبحانه. قال بعض أهل العلم: ركب الله تعالى فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة، حتى عقلن الخطاب، وأجبن بما أجبن.

قال في اللباب: «إن الله عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة بما فيها؟ قلن: وما فيها؟ قال: إن أحسنتن جوزيتن، وإن عصيتن عوقبتن، فقلن: لا يا رب، نحن مسخرات لأمرك، لا نريد ثوابًا ولا عقابًا، وقلن ذلك خوفًا وخشية وتعظيمًا لله؛ خوفًا أن لا يقمن بها، لا معصية ومخالفة، وكان العرض عليهن تخييرًا لا إلزامًا، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها، فالجمادات خاشعة لله عز وجل، ساجدة له، كما قال تعالى للسماوات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وقال في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٥٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٨٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٢٧.

[الحج:١٨]... الآية»[١].

ويرى بعضهم أن العرض في هذه الآية الكريمة من قبيل ضرب المثل، أو من قبيل المجاز. قال القفال وغيره: العرض في هذه الآية ضرب مثل، أي: أن السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب.

أو يكون العرض على من فيها من الملائكة. وقيل: عرضها على أهلها كلها دون أعيانها، وهذا كقوله: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢].

أي: أهلها[٢].

أو يكون المراد: المقابلة، أي: قابلنا الأمانة بالسماوات فرجحت الأمانة، والعرض أسهل من الفرض؛ ولهذا كفر إبليس بالإباء، ولم يكفر هؤلاء بالإباء؛ لأن هناك استكبارًا، وهاهنا استصغارًا؛ بدليل قوله: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾...، وإنما صير إلى هذا التكلف لاستبعاد طلب الطاعة من الجمادات، ولم يستبعده أهل البيان؛ لأن المراد تصوير عظم الأمانة، وثقل حملها، فمثلت حال التكليف في صعوبته، وثقل محمله بحالة المتحملة المفروضة لو عرضت على هذه الأجرام العظام[٣].

والصواب: أن حمل الكلام على الحقيقة أولى بالقبول؛ لأنه ما دام لم يوجد مانع يمنع منه فلا داعي لصرفه عن ذلك، ومما لا شك فيه أن قدرة الله تعالى لا يعجزها أن تخلق في السماوات والأرض والجبال إدراكًا وتمييزًا ونطقًا لا يعلمه إلا الله سبحانه.

قال في أضواء البيان: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه عرض الأمانة، وهي التكاليف مع ما يتبعها من ثواب وعقاب على السماوات والأرض والجبال، وأنهن أبين أن يحملنها، وأشفقن منها، أي: خفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك عذاب الله وسخطه، وهذا العرض والإباء والإشفاق كله حق، وقد خلق الله للسماوات والأرض والجبال إدراكًا يعلمه هو جل وعلا ونحن لا نعلمه، وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها، وأبت وأشفقت، أي: خافت»[٤].

وسمى سبحانه ما كلفنا به أمانة؛ لأن هذه التكاليف حقوق أمرنا سبحانه بها، وائتمننا عليها، وأوجب علينا مراعاتها والمحافظة عليها، وأداءها بدون إخلال بشيء منها.

و«عبر عن التكاليف الشرعية بالأمانة؛ لأنها حقوق مرعية أودعها الله المكلفين، وائتمنهم عليها، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد، وأمرهم بمراعاتها،

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٣/ ١١٤.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ١١/ ١٨٣.
(٣) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ٢٧٠.

(٤) أضواء البيان ٦/ ٢٥٨.

والمحافظة عليها، وأدائها من غير إخلال بشيء من حقوقها»[1].

وتخصيص ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بالذكر من بين الموجودات؛ لأنهما أعظم المعروف للناس من الموجودات، وعطف ﴿وَٱلۡجِبَالِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهي منها؛ لأن الجبال أعظم الأجزاء المعروفة من ظاهر الأرض، وهي التي تشاهد الأبصار عظمتها؛ إذ الأبصار لا ترى الكرة الأرضية، كما قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١][2].

ولما عرضت الأمانة على هذه الأجرام العظام من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ أبين أن يحملنها؛ لثقلها وضخامتها ﴿وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ أي: وخفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك ما يؤدي بهن إلى عذاب الله وسخطه؛ بسبب التقصير في أداء ما كلفن بأدائه.

وفائدة هذا تعظيم أمر هذه الأمانة؛ إذ بلغت أنه لا يطيق تحملها ما هو أعظم ما يبصره الناس من أجناس الموجودات.

وقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: قبل الإنسان حمل هذه الأمانة عند عرضها عليه، بعد أن أبت السماوات والأرض والجبال حملها، وأشفقن منها. والمراد بحمله إياها: تقبله لحمل هذه التكاليف والأوامر والنواهي مع ثقلها وضخامتها، والإنسان المعروضة عليه هذه الأمانة: إما أن يكون آدم عليه السلام أو جنس الإنسان.

قال في التحرير: «فحقيق بنا أن نقول: إن هذا العرض كان في مبدأ تكوين العالم ونوع الإنسان؛ لأنه لما ذكرت فيه السماوات والأرض والجبال مع الإنسان علم أن المراد بالإنسان نوعه؛ لأنه لو أريد بعض أفراده -ولو في أول النشأة- لما كان في تحمل ذلك الفرد الأمانة بتعذيب المنافقين والمشركين؛ ولما كان في تحمل بعض أفراده دون بعض الأمانة حكمة مناسبة لتصرفات الله تعالى، فتعريف الإنسان تعريف الجنس، أي: نوع الإنسان»[3].

فتكون اللام في ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ للجنس، وحمل الشيء على بعض الجنس يكفي في صدقه على الجنس.

فلو قال قائل: لكن لو كانت الآية تعني التكاليف -على ما قاله الجمهور- لذكر الجن (الخلق المكلفين) ولو كانت تعني الإيمان والاختيار، فالجن مشتركون معنا في هذه الخاصية، وإن الآية فصلت حتى إنها ذكرت الجبال رغم تابعية الجبال للأرض، ثم إن الآية حددت من حمل الأمانة وهو

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١١٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٢٥.
(٣) المصدر السابق.

الإنسان، ولم تقل: الجان، فما التوجيه؟

والجواب: أنه لابد للناظر في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخذ العظة والعبرة منهما أن يكون صاحب فهم ومعرفة، وعليه أن لا يقتصر على نصٍ يستشكله ويترك نصوصًا أخرى.

فإذا لم تكن هذه الآية فيها بيان تكليف الجن، فأين نحن من الآيات الأخرى التي ذكر الله فيها أن الجن مكلفون؟ كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وأيضًا أول الآيات في سورة الجن.

وأيضًا فلفظ ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ليس من صيغ الحصر التي تعني أنه لا يوجد لها متحمل إلا الإنسان، فلو قال: (ولم يحملها إلا الإنسان) لكان لهذا الاستشكال حظ من النظر حتى يبحث له عن جواب.

ثم إن الجن قد لا تكون عرضت عليهم أصلًا بل حملوها بغير عرض، والله جل وعلا له أن يكلف المخلوق قبل أن يأخذ رأيه، فهو ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقد يكون تخصيص الإنسان بالذكر مع أن الجن مكلفون أيضًا وكذا الملائكة عليهم السلام؛ لأنه لم يكن في ذلك كلفة عليهم؛ لأنه ليس فيه ما يخالف طباعهم[(١)].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي: إنه كان مفرطًا في ظلمه لنفسه، ومبالغة في الجهل؛ لأن هذا الجنس من الناس لم يلتزموا جميعًا بأداء ما كلفهم الله تعالى بأدائه، وإنما منهم من أداها على وجهها -وهم الأقلون-، ومنهم من لم يؤدها، وإنما عصى ما أمره به ربه، وخان الأمانة التي التزم بأدائها.

والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود على بعض أفراد جنس الإنسان، وهم الذين لم يؤدوا حقوق هذه الأمانة التي التزموا بحملها، ويكفي في صدق الحكم على الجنس بشيء وجوده في بعض أفراده فضلًا عن وجوده في غالبها.

وقال بعض العلماء: رجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلي معروف في اللغة التي نزل بها القرآن.

وقد جاء فعلًا في آية من كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ

(١) انظر: روح المعاني ٢٢/ ٩٦.

﴿عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١].

وهذه المسألة هي المعروفة عند علماء العربية بمسألة: عندي درهم ونصفه، أي: ونصف درهم آخر.

والمقصود أن من المجالات العظيمة للأمانة التكاليف الشرعية، وهي -بشكل أعم- ممارسة منهج الله في واقع حياة الإنسان على الأرض؛ ولهذا وهب الله الإنسان كل ما يلزمه لحمل هذه الأمانة، فتميز ببعض ذلك عن سائر المخلوقات.

ومن أهم ذلك السمع والبصر والفؤاد؛ لتكون المنافذ التي يستقبل بها آيات الله المبثوثة في الكون، ويستقبل بلاغ الأنبياء والرسل؛ فيعي الإنسان حقيقة الأمانة التي يحملها، فيؤمن بها، ويمضي للوفاء بها.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣].

وقد استخدم هذا الأسلوب وهو تمثيل للأمانة في ضخامتها وعظمها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السماوات والأرض والجبال -وهن من القوة والشدة بأعلى المنازل- لأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وهو تمثيل رائع لتهويل شأن الأمانة.

ثانيًا: العهود والمواثيق:

ومن مجالات الأمانة حفظ العهود والمواثيق، ومن أبرز وأقوى العهود ما التزم به العبد من عبادة الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله، والوفاء بذلك حتى الموت، زيادة على أمانات الناس والعهود لهم، فالكل واجب الحفظ والرعاية.

قال تعالى في سورة المؤمنون والمعارج: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون:٨]،[المعارج:٣٢].

أي: أن من صفات هؤلاء المفلحين أنهم يقومون بحفظ ما اتتمنوا عليه من أمانات، ويوفون بعهودهم مع الله تعالى، ومع الناس، ويؤدون ما كلفوا بأدائه بدون تقصير أو تقاعس؛ وذلك لأنه لا تستقيم حياة أمة من الأمم إلا إذا أديت فيها الأمانات، وحفظت فيها العهود، واطمأن فيها كل صاحب حق إلى وصول هذا الحق إليه.

قال الشنقيطي: «ففي هذه الآية الكريمة ذكر -جل وعلا- أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس: أنهم راعون لأماناتهم وعهدهم، أي: محافظون على الأمانات والعهود...، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من حفظ الأمانات والعهود جاء مبينًا في آيات كثيرة»[1].

وقد جمع ها هنا الأمانة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ

(١) أضواء البيان ٢/ ٣٠.

﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾؛ وذلك لتعددها وتنوعها، فهي كثيرة جدًا -كما سبق-، ومنها ما جاء في الحديث: (المؤذن مؤتمن)[1] يعني: أن المؤذن أمين الناس على صلاتهم وصيامهم، فصلاة الناس وصيامهم أمانة عنده.

وفي الحديث أيضًا: (المجالس بالأمانة)[2].

وهذا ندب إلى ترك إعادة ما يجري في المجلس من قول أو فعل، فكان ذلك أمانة عند من سمعه أو رآه.

ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (المستشار مؤتمن)[3] أي: أمين على المشورة، فإذا كان يعرف الصواب يجب أن يذكره من دون خداع، وإذا كان لا يعرف أحاله على من يعرفه واعتذر.

ولكن لو أنه عرف الصواب في النصيحة وأخفاه، وذكر سواه كان خائنًا، ويؤكد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: (من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه)[4].

وأما تقديمها على العهد فلأهميتها، وحسب ذلك أن يكون الشرع كله كما مر أمانة، وحسبك من ذلك قوله: (لا إيمان لمن لا أمانة له)[5].

الالتزام بالعهود والمواثيق:

ونلحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى ذكر العهد بعد ذكر الأمانات، فقال: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ والعهد: التزام بين اثنين أو أكثر على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به، وسمي عهدًا؛ لأنهما يتحالفان بعهد الله، أي: بأن يكون الله رقيبًا عليهما في ذلك.

والعهد شامل لعهد الله وعهد الناس، وهو ما عقده الإنسان على نفسه، وهو يضاف إلى المعاهد والمعاهد، فيجوز هنا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٤٨٥، رقم ٨٩٠٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٧٨٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٣/ ٤٥، رقم ١٤٦٩٣، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في نقل الحديث، ٤/ ٢٦٨، رقم ٤٨٦٩، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة رقم ١٩٠٩.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في المشورة، ٤/ ٤٩٥، رقم ٥١٣٠، والترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب إن المستشار مؤتمن ٥/ ١٢٥، رقم ٢٨٢٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب المستشار مؤتمن، ٢/ ٢٣٣، رقم ٣٧٤٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٧٠٠.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ١٨٤، رقم ٣٥٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٦٨.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٢، رقم ١٢٥٦٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧١٧٩.

الإضافة إلى الفاعل والمفعول[1].

وقد بين سبحانه وتعالى أن له على عباده عهدًا ولهم عليه عهد، وبين أنهم متى ما وفوا بعهدهم فإنه سبحانه يفي أيضًا بعهده، فقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠].

ثم في سائر الآيات أفرد عهد العباد بالذكر، وأفرد عهد نفسه أيضًا بالذكر، أما عهد العباد فقال فيه: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ [البقرة:١٧٧].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون:٨].

وأما عهده سبحانه وتعالى فقال فيه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم بين عهده إلى أبينا آدم، فقال: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥].

ثم بين عهده إلينا، فقال: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [يس:٦٠].

ثم بين عهده مع بني إسرائيل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ﴾ [آل عمران:١٨٣].

ثم بين عهده مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقال: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ [البقرة:١٢٥].

ثم بين أن عهده لا يصل إلى الظالمين، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وهذه المبالغة الشديدة في هذه العهود والمعاهدة تقتضي البحث عن حقيقة هذه العهود، فنقول: العهد المأخوذ عليك ليس إلا عهد العبودية، والعهد الذي التزمه الله تعالى من جهته ليس إلا عهد الرحمة والربوبية، ثم إن العاقل إذا تأمل في حال هذه المعاهدة لم يجد من نفسه إلا نقض هذا العهد، ومن ربه إلا الوفاء بالعهد.

والعهود التي بين العباد وبين بعضهم هي: كل عقدٍ يعقد لتوثيق أمرٍ وتوكيده، كعقد البيع والشركة، وعقد اليمين والنذر، وعقد الصلح، وعقد النكاح وغيرها، فمقتضى هذه الآية أن كل عهدٍ وعقدٍ يجري بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء بذلك العقد والعهد إلا إذا دل دليل منفصلٌ على أنه لا يجب الوفاء به.

والوفاء بالعهد من أعظم خلق الكريم؛ لدلالته على شرف النفس وقوة العزيمة.

قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١].

وقوله: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الفتح:١٠].

---

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ١٠/ ١٢٦.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل:٩١].

ونقض العهد مع الله أو مع عباده من علامة النفاق، ومن شيم أهل البعاد والشقاق، والوفاء بالعهد من علامة الإيمان، ومن شيم أهل المحبة والعرفان.

وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سرًا وجهرًا امتازت الشريعة الإسلامية على غيرها، فشعار أهل الإسلام الوفاء بالعهود، والبعد عن الخيانة والغدر.

وقد ذم الله تعالى الذين ينقضون العهد، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [الرعد: ٢٥].

والمراد من نقض عهد الله عدم الوفاء بما أمر وأوجب على عباده.

والمراد من قوله: ﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي: من بعد أن وثق الله تلك الأدلة وأحكمها؛ لأنه لا شيء أقوى مما دل الله على وجوبه في أن ينفع فعله، ويضر تركه.

فإن قيل: إذا كان العهد لا يكون إلا مع الميثاق فما فائدة اشتراطه تعالى بقوله: ﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قلنا: لا يمتنع أن يكون المراد بـ (العهد): هو ما كلف الله العبد، والمراد بـ (الميثاق): الأدلة المؤكدة؛ لأنه تعالى قد يؤكد إليك العهد بدلائل أخرى، سواء كانت تلك المؤكدة دلائل عقلية أو سمعية[1].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ١٧٦.

وقال في الآية الأخرى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٦].

فجمع بين الوفاء والتقى، وهما أصلان لجميع مكارم الأخلاق، فالوفاء بالعهد يشمل عهد الميثاق، وعهد الله تعالى بالتزام التكاليف الخاصة والعامة، والتقوى تتممها وتزينها؛ حتى يأتي بها على وجه الكمال من غير شائبة الاختلال، فكل متقٍ موفٍ بالعهد، ولا يلزم العكس؛ فلهذا اقتصر على قوله: ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ دون أن يقول: يحب الموفين، أو الموفين والمتقين[2].

والجمع بين رعي الأمانات ورعي العهد؛ لأن العهد كالأمانة؛ لأن الذي عاهدك قد ائتمنك على الوفاء بما يقتضيه ذلك العهد. إلا أن العهد أخص من الأمانة والأمانة أعم من العهد؛ لأنها قد تكون بعهد وبغير عهد متقدم[3].

وذكرهما عقب أداء الزكاة؛ لأن الزكاة أمانة الله عند الذين أنعم عليهم بالمال؛ ولذلك سميت حق الله، وحق المال، وحق المسكين.

وقوله: ﴿رَاعُونَ﴾ أي: قائمون على حفظ الأمانة والعهد، فالرعي: مراقبة شيء بحفظه من التلاشي، وبإصلاح ما يفسد

(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٢٩٠.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٣١.

منه، فمنه رعي الماشية، ومنه رعي الناس، ومنه أطلقت (المراعاة) على ما يستحقه ذو الأخلاق الحميدة من حسن المعاملة، والقائم بالرعي راعٍ، فرعي الأمانة: حفظها؛ ولما كان الحفظ مقصودًا لأجل صاحبها كان ردها إليه أولى من حفظها، ورعي العهد مجاز، أي: ملاحظته عند كل مناسبة[1].

أما اختيار كلمة ﴿رَٰعُونَ﴾ مع الأمانة والعهد دون (الحفظ) الذي استخدم مع الفروج فله سبب لطيف؛ وذلك أن ﴿رَٰعُونَ﴾ اسم فاعل من (رعى) وأصل الرعي: حفظ الحيوان، وتولي أمره، وتفقد شأنه، فالرعي ليس مجرد الحفظ، بل هو الحفظ والإصلاح والعناية، وما إلى ذلك، وليس مجرد الحفظ كافيًا.

فمن ائتمن عندك أهله وصغاره فلابد من أن تتفقد أمورهم، وتنظر في أحوالهم وحاجاتهم، علاوة على حفظهم، وكذلك من تولى أمر الرعية، ومثله من اؤتمن على زرع أو ضرع، وكذلك ما حمله الله للإنسان من أمر الشرع، يحتاج إلى قيام به، وتحرٍ للحق فيما يرضي الله، ومثل هذه الأمور لا يصح معها مجرد الحفظ، فالرعاية أشمل وأعم.

ثم إن هناك فرقًا آخر بين رعي الأمانة وحفظ الفروج، وهو أن الفروج جزء من الإنسان لا تند عنه، أما الأمانات فقد تكون في أماكن متعددة، وربما تكون أماكن حفظها نائية عنه، فهي تحتاج إلى تفقد ورعاية، كما يحتاج الحيوان إلى حفظه من الذئاب والوحوش الضارية، وقد يصعب على الإنسان المحافظة على الأمانة من العادين واللصوص، فيضطر إلى تخبئتها في أماكن لا ينالها النظر، ولا يطولها التفتيش، فكان على المؤتمن أن ينظر في حفظها، كما ينظر الراعي لها، وهو أنسب من الحفظ.

وهناك فائدة أخرى، وهي أن كلمة (الراعي) قد تكون بمعنى الصاحب، تقول: (من راعي هذه الديار؟) أي: من صاحبها ومتولي أمرها؟ فيكون المعنى على هذا: والذين هم أصحاب الأمانات والعهود، أي: هم أهلها ومتولوها، ولو قيل بدل ذلك: الذين يحفظون الأمانة والعهود لم تفد هذه الفائدة الجليلة.

ثم إن اختيار كلمة ﴿رَٰعُونَ﴾ بالصيغة الاسمية دون الفعلية له سببه، فإنه لم يقل: (يرعون)؛ وذلك ليدل على لزوم ثبات الرعي ودوامه، وعدم الإخلال به البتة.

وأما تقديم الأمانة والعهد على ﴿رَٰعُونَ﴾ فللاهتمام والعناية بأمرهما، وللدلالة على أنهما أولى ما يرعى في هذه الحياة،

وزيادة اللام في ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ تفيد الزيادة في الاختصاص والتوكيد.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٧.

فيكون في هذه الآية وغيرها دلالة على تعظيم أمر الوفاء بالعهد؛ وذلك لأن الطاعات مقصورة على أمرين: التعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله، فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معًا؛ إذ ذلك سبب لمنفعة الخلق، فهو شفقة على خلق الله؛ ولما أمر الله به كان الوفاء به تعظيمًا لأمر الله[(١)].

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن)** أي: جعل أمينًا، ووضع عنده أمانة **(خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر)** أي: ترك الوفاء **(وإذا خاصم فجر)**[(٢)]. أي: مال عن الحق.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بالوفاء بالعهد، فهذا حذيفة رضي الله عنه يقول: **«ما منعنا أن نشهد بدرًا إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذنا كفار قريش، فقالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده، إنما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرن إلى المدينة، ولا تقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم، فلما جاوزناهم أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرنا له ما قالوا، وما قلنا لهم، فقال: (نستعين الله عليهم، ونفي بعهدهم) فانطلقنا إلى المدينة، فذاك الذي منعنا أن نشهد بدرًا»**[(٣)].

فهذه صورة مشرقة في حرص النبي صلى الله عليه وسلم لحفظ العهود، وتربية أصحابه على تطبيق مكارم الأخلاق الرفيعة، وإن كان في ذلك إجحاف بالمسلمين، ومفوت لهم جهد بعض أفراد المجاهدين.

والمقصود أن من مجالات الأمانة المهمة الوفاء بالعهد والميثاق، ويبدأ ذلك من رعاية الأمانة الكبرى التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، وهي أمانة العقيدة والاستقامة عليها اختيارًا لا اضطرارًا، ومن رعاية العهد الأول المقطوع على فطرة الناس وهم بعد في الأصلاب: أن الله ربهم الواحد، وهم على هذا العهد شهود، ومن رعاية تلك الأمانة وهذا العهد تنبثق رعاية سائر الأمانات والعهود في معاملات الأرض.

وقد شدد الإسلام في الأمانة والعهد وكرر وأكد؛ ليقيم المجتمع على أسس

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٤١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق ١/ ٢١، رقم ٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٥٨.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٢٠١، رقم ٢٠٢.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد». ولم يتعقبه الذهبي.

متينة من الخلق والثقة والطمأنينة، وجعل رعاية الأمانة والعهد سمة النفس المؤمنة، كما جعل خيانة الأمانة وإخلاف العهد سمة النفس المنافقة والكافرة، ورد هذا في مواضع شتى من القرآن والسنة، والتي لا تدع مجالًا للشك في أهمية هذا الأمر في الإسلام.

وجعل هذه الصفة من أخلاق المسلم الأصيلة والتي تنبع من عقيدته، وتدل على صدق اتجاهه، وشرف غايته، فهي صفة نفسية تملي على صاحبها سلوكًا يتبدل إزاء كل ما يعهد إليه القيام به، وكل ما يتحمل من مسئولية، وهي بهذا تحيط بكل تبعات الحياة الصغيرة والكبيرة، وتتناول كل الأعباء التي يتحملها الإنسان.

والجماعة المسلمة مسئولة عن أماناتها العامة، ومسئولة عن عهدها مع الله تعالى، وما يترتب على هذا العهد من تبعات، والنص يجمل التعبير، ويدعه يشمل كل أمانة، وكل عهد، ويصف المؤمنين بأنهم ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾، فهي صفة دائمة لهم في كل حين، وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات، وترعى فيها العهود، ويطمئن كل من فيها إلى هذه القاعدة الأساسية للحياة المشتركة الضرورية لتوفير الثقة والأمن والاطمئنان[(١)].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ٣٣٦.

ثالثًا: الأمانة في القضاء والحكم بين الناس:

ومن مجالات الأمانة: الأمانة في القضاء والحكم بين الناس، وتكون الأمانة في القضاء بإصدار الأحكام وفق أحكام العدل التي استؤمن القاضي عليها، وفوض الأمر فيها إليه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ فنلحظ هنا أن الله تعالى لما أمر بأداء الأمانة عمومًا عقب بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة[(٢)] الحجبي من بني عبد الدار، لما رد له النبي صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة، وقد سبق ذكر قصته.

قال ابن كثير: «وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه ومحمد بن الحنفية: هي للبر والفاجر، أي: هي أمر لكل أحد»[(٣)].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «قال العلماء: نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٠.
(٣) المصدر السابق.

الناس أن يحكموا بالعدل...، وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة، والولاية الصالحة»[١]. وقال الشوكاني رحمه الله: «ويدخل الولاة في هذا الخطاب دخولًا أوليًا، فيجب عليهم تأدية ما لديهم من الأمانات، ورد الظلامات، وتحري العدل في أحكامهم»[٢].

وفي الآية دلالة على أنه يجب أداء الأمانات إلى أهلها.

وفي حديث الحسن عن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)**[٣].

فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء)**[٤].

ثم بعد هذا الأمر العام الذي يشمل جميع أنواع الأمانة، وجميع أنواع المخاطبين، عقب سبحانه بالأمر بالعدل في الحكم والقضاء بين الناس؛ إذ هو من أعظم الأمانات وأوجبها، فقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

أي: أنه تعالى يأمركم أيضًا إذا حكمتم بين الناس أن تجعلوا حكمكم قائمًا على الحق والعدل، فإن الله تعالى ما أقام ملكه إلا عليهما، ولأن الأحكام إذا صاحبها الجور والظلم أدت إلى شقاء الأفراد والجماعات.

ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء: ٥٨].

وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه؛ لاشتمالها على مصالح الدارين، ودفع مضارهما؛ لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون[٥].

وهذا الخطاب -وإن رأى بعضهم- أنه موجه إلى الذين يحكمون وهم الحكام من ولاة وقضاة وغيرهم ممن يلون الحكم إلا أنه لا مانع من أن يكون الخطاب موجهًا إلى الأمة كلها؛ لأن الأمة العزيزة التي تتولى أمور نفسها من غير تحكم من ملك

(١) السياسة الشرعية ص١٢.
(٢) فتح القدير ١/ ٧٢٥.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٢٤/ ١٥٠، رقم ١٥٤٢٤، وأبو داود في سننه، كتاب الإجارة، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، ٣/ ٣١٣، رقم ٣٥٣٦، والترمذي في سننه، كتاب البيوع، ٣/ ٥٦٤، رقم ١٢٦٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٤٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٧، رقم ٢٥٨٢.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨٣.

أو طاغ قاهر هي محكومة ومحكمة، فهي التي تختار حاكمها وهي في هذا محكمة، مطلوب منها العدل، فلا تختار لهوى أو لعطاء أو لمصلحة شخصية أيًا كان نوعها، وهي محكمة في حاكمها فلا تقول فيه إلا حقًا، ولا تطالبه إلا بما هو حق لا جور فيه، ولا تشتط في نقده، ولا تسكت عن نصيحته، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (الدين النصيحة...، لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1].

وأما الحكم بالعدل بين الناس فالنص يطلقه هكذا عدلًا شاملًا ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ جميعًا، لا عدلًا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا عدلًا مع أهل الكتاب دون سائر الناس، وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه (إنسانًا) فهذه الصفة -صفة الناس- هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني، وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعًا، مؤمنين وكفارًا، أصدقاء وأعداء، سودًا وبيضًا، عربًا وعجمًا، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل -متى حكمت في أمرهم- هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط -في هذه الصورة- إلا على يد الإسلام وإلا في حكم المسلمين وإلا في عهد القيادة الإسلامية للبشرية، والذي افتقدته من قبل ومن بعد هذه القيادة فلم تذق له طعمًا قط، في مثل هذه الصورة الكريمة التي تتاح للناس جميعًا؛ لأنهم (ناس) لا لأية صفة أخرى زائدة عن هذا الأصل الذي يشترك فيه الناس!

وهذا هو أساس الحكم في الإسلام، كما أن الأمانة -بكل مدلولاتها- هي أساس الحياة في المجتمع الإسلامي، والتعقيب على الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل هو التذكير بأنه من وعظ الله سبحانه وتوجيهه، ونعم ما يعظ الله به ويوجه...، ثم إنها لم تكن (عظة) إنما كانت (أمرًا) ولكن التعبير يسميه عظة؛ لأن العظة أبلغ إلى القلب، وأسرع إلى الوجدان، وأقرب إلى التنفيذ المنبعث عن التطوع والرغبة والحياء![2].

وحديث القرآن عن وجوب إقامة العدل، ودفع الظلم، حديث مستفيض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:٩٠].

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص:٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة:٨].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ١/ ٧٤، رقم ٥٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٦٢.

ثم إن قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو.

والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به: هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء، إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله ولا في سنة رسوله فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله، ولا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدري ما هو العدل؛ لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته، فضلًا عن أن يحكم بها بين عباد الله.

وهذا يستلزم من الحاكم معرفة العدل ليحكم به. فعناصر العدل في الحكم هي فهم الحادثة من جميع جوانبها، ثم معرفة الحكم من مصدره التشريعي، ثم تحري انطباق الحكم على الحادثة، كل ذلك مع التسوية بين الخصوم في مجلس القضاء[1].

(١) غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ١٤.

وعليه قبل أن يفصل في القضايا وقبل أن يبدأ في فض النزاع والقضاء بين المتخاصمين التذكير بالله تعالى، وقد كان صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك، ففي قصة المتلاعنين قبل أن يقضي بينهما. قال لهما: **(الله أعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما من تائب؟)**[2].

وفي سائر قضاياه كان يقول للمتخاصمين قبل الحكم: **(إنكم تختصمون لدي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من أخيه، فأقضي له بحق أخيه، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقتطع له قطعة من نار)**[3].

وهذا كله من باب التذكير بالله تعالى.

ولابد أن يكون قويًا في الحكم، والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام، والأمانة ترجع إلى خشية الله وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلًا، وترك خشية الناس، وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل حاكم على الناس، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب صداق الملاعنة، ٥/ ٢٠٣٥، رقم ٥٠٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب اللعان، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، ٢/ ١١٣١، رقم ١٤٩٣.

(٣) أخرجه مسلم في الأقضية، باب الحكم بالظاهر، ٣/ ١٣٣٧، رقم ١٧١٣.

﴿...يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (القضاة ثلاثة، واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة، فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم، فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار)[1].

و(القاضي): اسم لكل من قضى بين اثنين وحكم بينهما، سواء كان خليفة أو سلطانًا أو نائبًا أو واليًا، أو كان منصوبًا ليقضي بالشرع، أو نائبًا له حتى يحكم بين الصبيان في الخطوط إذا تخايروا، هكذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ظاهر[2].

والمقصود أن الحكم في الإسلام مسئولية عظيمة، وأمانة ثقيلة، يوجل منها الأقوياء فكيف بالضعفاء؟! وهو مبني على العدل، وقد جعله الإسلام من أعظم الأمانات، فثمة علاقة وثيقة بين العدل وأداء الأمانة؛ إذ هما أمران متلازمان، فأداء الأمانة إلى أهلها عين العدل، وجحدها على صاحبها هو عين الجور، وأيضًا فإن الحكم بين الناس بالعدل هو أداء للأمانة التي حملها الحاكم، وبالمقابل فإن ظلم العباد هو جحد للأمانة، وتفريط فيها.

والعدل في الحكم يعد من القيم الإنسانية الأساسية التي جاء بها الإسلام، وجعلها من مقومات الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية، حتى جعل القرآن إقامة القسط - أي: العدل- بين الناس هو هدف الرسالات السماوية كلها، ومن هنا كان لابد من الرجوع إلى شرع الله في الحكم على كل أمر من هذه الأمور؛ حتى يتم تأدية الأمانات إلى أهلها دون أدنى تقصير، ويتم الحكم بين الناس بالعدل دون أدنى قدر من الجور أو الظلم.

والحاكم في الحقيقة أجير عند جمهور المسلمين، يرعى مصالحهم الدينية والمدنية، وحكمه بالحق يتطلب علمًا ويقينًا وإخلاصًا، كما يتطلب خبرة بالحياة والناس والأصدقاء والخصوم، وعليه أن يسمع النصيحة، ويستشير أهل الخبرة الأمناء، وألا يضيق صدره بالنقد البناء، وأن يستوعب كل الآراء، وألا يقصي أحدًا على حساب أحد، وألا يظلم أحدًا بسبب اختلاف العقيدة.

والحكم يحتاج إلى رجال أقوياء في

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في القاضي يخطئ، ٣/ ٣٢٤، رقم ٣٥٧٥، والترمذي في سننه، أبواب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في القاضي ٣/ ٦١٢، رقم ١٣٢٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق، ٢/ ٧٧٦، رقم ٢٣١٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٤٧.

(٢) السياسة الشرعية ص٢٥.

الحق، رحماء بالناس، أمناء على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وقد جاء عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال: **(يا أبا ذر إنك رجل ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها)**[(١)].

ومن هو أبو ذر هذا؟! إنه الذي يقول فيه صلى الله عليه وسلم: **(ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر)**[(٢)].

وليعلم الحاكم أن الله سائله يوم القيامة عن رعيته، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة)**[(٣)].

والحاكم العادل وعده النبي صلى الله عليه وسلم أنه من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله[(٤)].

والناظر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده ليعجب أشد العجب من تعاملهم مع تحمل المسئوليات، وكيف كانوا يعتبرونها حملًا ثقيلًا، وعبئًا يودون أن يرفع عنهم بأسرع وقت، وكيف كانوا يخافون من هذا الأمر أشد الخوف، ويزداد العجب عندما نسمع لواحد من هؤلاء الأفذاذ وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرفض أن يستخلف ابنه من بعده، ويقول قولته المأثورة: «حسب آل الخطاب ما تحملوا منها! إن عبد الله لم يحسن يطلق امرأته»[(٥)].

ومن الأمانة في الحكم إقامته على الشريف والوضيع والضعيف، ولا يحل تعطيله لا بشفاعة ولا بهدية ولا بغيرهما، ولا تحل الشفاعة فيه، ومن عطله لذلك وهو قادر على إقامته فهو عاصٍ لله، وممن اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا.

والأولى للقاضي والحاكم ألا يقبل الهدايا التي قد تؤثر على حكمه، هكذا كان السلف رحمهم الله، فهذا عمر بن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ٣/ ١٤٥٧، رقم ١٨٢٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٠٦، رقم ٦٦٣٠، وابن ماجه في سننه، مقدمة السنن، باب فضل أبي ذر، ١/ ٥٥، رقم ١٥٦. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٣٤٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، ١/ ١٢٥، رقم ١٤٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم ٦٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ١٠٣١.

(٥) تاريخ اليعقوبي ص١٦٩.

عبد العزيز رحمه الله تعالى لما رد الهدية، قيل له: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية، فقال عمر: «كانت للنبي صلى الله عليه وسلم هدية، ولنا رشوة»[(١)]؛ لأن المسلمين كانوا يتقربون بهذه الهدية للنبي صلى الله عليه وسلم لنبوته؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم معصوم مما يخاف من الهدية على غيره، ويقاس على الهدية كل منفعة يقدمها إليه أهل البلد الذي يقضي فيه.

وليس من الأمانة أن يؤثر القاضي والحاكم الأغرار الضعفاء والخائنين على الأقوياء الأمناء، فالحاكم يجب أن يتصف بصفتين، أن يكون قويًا حازمًا، وأن يكون أمينًا؛ إذ إن صفتي القوة والأمانة من المؤهلات الضرورية لمن يلي أمر الناس.

فهذا زياد ابن أبيه كان إذا ولى رجلًا قال له: «خذ عهدك، وسر إلى عملك، واعلم أنك مصروفٌ رأس سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال، فاختر لنفسك: إنا إن وجدناك أمينًا ضعيفًا استبدلنا بك؛ لضعفك، وسلمتك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك خائنًا قويًا استهنا بقوتك، وأحسنا على خيانتك أدبك، فأوجعنا ظهرك، وأثقلنا غرمك، وإن جمعت علينا الجرمين جمعنا عليك المضرتين، وإن وجدناك أمينًا قويًا زدناك في عملك، ورفعنا لك ذكرك، وكثرنا مالك، وأوطأنا عقبك»[(٢)].

فتولي الولايات العامة تكليف كبير، ومسئولية عظمى؛ لما يترتب عليها من عظم التبعة، ودقة المسئولية، فالمناصب العامة في الإسلام ليست وجاهة، ولا بابًا لكسب الأموال والثراء، وإنما هي أمانة ومسئولية هدفها خدمة الدين، وإعلاء الشريعة، وتحقيق مصالح المسلمين.

رابعًا: الأمانة في الودائع والمعاملات المالية:

ومن مجالات الأمانة: الأمانة في الأموال والودائع، فالأمانة في المال من أعظم الأمانات؛ لأن المال محبوبٌ للإنسان.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨].

وقال عز وجل: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ [الفجر:٢٠].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ [آل عمران:١٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال)[(٣)].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٥/ ٣٧٧.

(٢) عيون الأخبار، ابن قتيبة ١/ ٢٣.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٩/ ١٥، رقم ١٧٤٧١، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، ٤/ ٥٦٩، رقم ٢٣٣٦.

ومما يدل على أن الإنسان فطر على حب المال ما ورد عن نبي الله أيوب عليه السلام أنه لما كان يغتسل خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحتثي في ثوبه، فناداه ربه: (يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك)[1].

فالأموال تغري الإنسان على أخذها إذا تيسرت بين يديه، والأمانة ثقيلة وبخاصة في موطن الضعف في الأموال والشهوات.

ومما يدل على الحث على الأمانة في الجانب المالي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

فهي تتناول جميع الأمانات، ومن ضمنها ما يتعلق بالأمانات المادية.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران:٧٥].

فهذه الآية في الأمانة في الأموال، وقد قال أكثر المفسرين: إنها نزلت في اليهود كلهم، أخبر الله تعالى أن فيهم أمانة وخيانة. فإن قيل: فأي فائدة في هذه الأخبار، وقد علمنا أن الناس كلهم لم يزالوا كذلك، منهم الأمين ومنهم الخائن؟

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب من اغتسل عريانًا وحده في الخلوة، رقم ٢٧٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢١٤٨.

قلنا: تحذير من الله تعالى للمؤمنين أن يأتمنوهم على أموالهم، أو يغتروا بهم؛ لاستحلالهم أموال المؤمنين[2].

فذكر الله هاهنا فريقين من أهل الكتاب، فريقًا يؤدي الأمانة تعففًا عن الخيانة، وفريقًا لا يؤدي الأمانة، ومن الفريق الأول: عبد الله بن سلام، ومن الفريق الثاني: فنحاص بن عازوراء، وكلاهما من يهود يثرب، والمقصود من الآية ذم الفريق الثاني؛ إذ كان من دينهم في زعمهم إباحة الخون.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥].

ولذلك طول الكلام فيه، وإنما قدم عليه قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ [آل عمران:٧٥] إنصافًا لحق هذا الفريق؛ لأن الإنصاف مما اشتهر به الإسلام؛ وتقديم المسند في قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ في الموضعين للتعجب من مضمون صلة المسند إليهما، ففي الأول: للتعجب من قوة الأمانة مع إمكان الخيانة، ووجود العذر له في عادة أهل دينه، والثاني: للتعجب من أن يكون الخون خلقًا لمتبع كتاب من كتب الله، ثم يزيد التعجب عند قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ فيكسب المسند إليهما زيادة تعجب من حالهم.

وقد جعل القنطار والدينار مثلين للكثرة

(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٤.

والقلة، والمقصود ما يفيده الفحوى من أداء الأمانة فيما هو دون القنطار، ووقوع الخيانة فيما هو فوق الدينار.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أطلق القيام هنا على الحرص والمواظبة، كقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: لا يفعل إلا العدل، والدوام حقيقته استمرار الفعل، وهو هنا مجاز في طول المدة لتعذر المعنى الحقيقي، مع وجود أداة الاستثناء؛ لأنه إذا انتهى العمر لم يحصل الإلحاح بعد الموت(١).

ومجال الأمانة في الأموال مجال واسع:

فمن أمانة الأموال: العفة عما ليس للإنسان به حق من المال، وتأدية ما عليه من حق لذويه، وتأدية ما تحت يده منه لأصحاب الحق فيه، وتدخل الأمانة في البيوع والديون والمواريث والودائع والرهون والعواري والوصايا وغير ذلك.

فكما أن الإنسان لا يحب أن يتعدى أحد على أمواله الخاصة فإنه كذلك يجب أن لا يتعدى على مال غيره دون إذنٍ منه.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يحل مال امرئٍ مسلم إلا بطيب نفسٍ منه)(٢).

خاصةً أن صاحب المال لم يأته ماله بالراحة، بل في الغالب بعد تعب وجهد، فكيف يجوز أخذه منه بغير حق؟!

قال ابن عثيمين رحمه الله في الكلام على الأمانة في الأموال: «ومنها الأمانة المالية، وهي: الودائع التي تعطى للإنسان؛ ليحفظها لأهلها، وكذلك الأموال الأخرى التي تكون بيد الإنسان لمصلحته أو مصلحته ومصلحة مالكها؛ وذلك أن الأمانة التي بيد الإنسان إما أن تكون لمصلحة مالكها أو لمصلحة من هي بيده، أو لمصلحتهما جميعًا.

فأما الأول فالوديعة تجعلها عند شخص، تقول مثلًا: هذه ساعتي عندك، احفظها لي، أو: هذه دراهم، احفظها لي، وما أشبه ذلك، فهذه وديعة فيها بقيت عنده لمصلحة مالكها.

وأما التي لمصلحة من هي بيده فالعارية، يعطيك شخصٌ شيئًا يعيرك إياه من إناء أو فراش أو ساعة أو سيارة، فهذه بقيت في يدك لمصلحتك.

وأما التي لمصلحة مالكها ومن هي بيده فالعين المستأجرة، فهذه مصلحتها للجميع؛ استأجرت مني سيارة وأخذتها، فأنت تنتفع بها في قضاء حاجتك، وأنا أنتفع بالأجرة، وكذلك البيت والدكان، وما أشبه ذلك، كل هذه من الأمانات»(٣).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٨٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤/ ٢٩٩، رقم ٢٠٦٩٥، والبيهقي في السنن الكبرى، ٦/ ١٠٠، رقم ١١٨٧٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٦٦٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/ ٢٣٣.

ومن أمانة الأموال: الأموال التي يؤتمن عليها الموظف في العمل، سواء كان مديرًا له حق التصرف في الميزانية، أو أمين صندوق، أو موظف حسابات أو غيرهم، فإنها وديعة بيده، يجب أن يحافظ عليها، ولا يتصرف فيها إلا فيما فيه مصلحة العمل، سواء كان العمل حكوميًا أو خاصًا.

ونجد كثيرًا من الناس يتساهلون في الأموال العامة التي تكون تحت تصرفهم من أموال الوزارات والمؤسسات العامة حكومية كانت أو غير حكومية، فترى بعض المسئولين كبارًا كانوا أو صغارًا يعتبرون أن المؤسسة أو المكتب الذي يعملون فيه كأنه ملكهم الشخصي، لهم حرية التصرف فيه كما يشاءون، أضف إلى ذلك استغلال المناصب للأمور الشخصية، وأمثال هؤلاء الموظفين الذين خانوا الأمانة يتجاهلون أن أعمالهم هذه ستكون وبالًا عليهم في الآخرة، فالأصل في الموظف أنه أجير، والأجير لابد أن يكون أمينًا.

وقد دلت الأدلة على حرمة الخوض في الأموال العامة، فعن خولة الأنصارية رضي الله عنها قالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(إن رجالًا يتخوضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة)**[(١)].

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: **(يتخوضون في مال الله بغير حق)** أي: يتصرفون في مال المسلمين بالباطل»[(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه، كان كالذي يأكل ولا يشبع)**[(٣)].

وليست بالضرورة أن تكون هذه الأموال نقودًا، بل كل مال ولو أعيانًا كالسيارات والأجهزة والأدوات والعدد وغيرها تعد أموالًا مملوكة للدولة أو المؤسسة لا يحق التصرف فيها إلا بإذن، قليلها وكثيرها، من القلم والورق وغيرها!

وهذا واضح من العموم في قوله صلى الله عليه وسلم: **(لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه)**[(٤)].

فلم يفرق بين القليل والكثير.

وقوله صلى الله عليه وسلم: **(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه،**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب قول الله تعالى: (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه)، ٣/ ١١٣٥، رقم ٢٩٥٠.

(٢) فتح الباري ٦/ ٢٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، رقم ١٣٩٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، رقم ١٠٥٢.

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)[1].

ومن الآفات التي يجب أن تحارب: أن تتحول المصالح في القطاعات وفي المؤسسات وفي الوظائف لخدمة شخص أو مسئول، وليس لخدمة عامة الناس، ويزداد الجرم أن هذه الأموال تعتبر أموالًا لبيت مال المسلمين، فالذي يأكل، يأكل من مال الفقراء والمحتاجين واليتامى، فهو من أعظم السحت.

وقد قال الله سبحانه وتعالى في حق اليهود: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢].

ومن الأمانة في المال: إعطاء الموظف والأجير أجره دون حيف أو نقص، فأرباب العمل والمسئولون عليهم أن يؤدوا للموظفين حقوقهم المالية كاملة دون تأخير أو أذى؛ لأن المسئول قد يعطي الحق كاملًا، ولكنه يؤخره، ويماطل فيه، فيؤذي أخاه المسلم، وإذا كان الله تعالى قد منع الأذى في الصدقة، بقوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

مع أنها مبنية على المسامحة؛ لأنها تطوع فمن باب أولى منع الأذى في حقوق الآخرين.

والرشوة من المجالات التي يخطئ فيها الناس في الوظائف، فيتساهل الموظف بأخذ الرشوة ويسميها إكرامية، أو يسميها خدمة أو غيرها من المسميات، كما قالت بلقيس: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥].

سمتها هدية، وهكذا قد يتلمس لها الموظف اسمًا آخر؛ لكي يلتمس لنفسه العذر مع أنها رشوة، فلا يجوز تلقي الرشاوى في الوظائف العامة ولا الخاصة على العمل الذي يؤديه الإنسان، والذي هو مكلف به أساسًا، فهذا هو عمله ووظيفته فكيف يأخذ على ذلك أموالًا مقابل أن يؤدي العمل الواجب عليه؟!

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (لعن الله الراشي والمرتشي)[2].

وعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا من الأزد، يقال له: ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقال صلى الله عليه وسلم: (فهلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر يهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منه شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب في القيامة، ٤/ ٦١٢، رقم ٢٤١٧.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٩٤٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٥/ ٨، رقم ٩٠٢٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٠٩٣.

إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر)[1].

وقد يتوصل الإنسان إلى الرشوة عن طريق أهله وزوجته أو أبنائه، فهذا واحد من عمال عمر رضي الله عنه أهدى إلى امرأة عمر نمرقتين، فدخل عمر ووجد في البيت سجادة، فقال: «من أين هذه السجادة؟ هل اشتريتها؟ قالت: بعث بها إلي فلان. قال: قاتله الله؛ لما أراد حاجة فلم يستطعها من قبلي أتاني من قبل أهلي، فجبذها جبذًا شديدًا من تحت من كان جالسًا عليها، وأخرجها من بيته، وفرقها بين امرأتين فقيرتين من الأنصار»[2].

ومن الأمانة في الأموال الأمانة في البيع والشراء، وهذا أدبٌ رفيع، وخلق اجتماعي، يقرب الناس من بعضهم؛ لأنه يوجد الراحة في النفوس، وللأمانة في البيع والشراء دورٌ كبيرٌ في طمأنينة النفس، واستتباب الأمن؛ لأن صدق التعامل مع الناس وسيلة لزيادة الحب والتآلف بينهم؛ لذلك أوصى صلى الله عليه وسلم التجار بالتزام الصدق والتقوى والأمانة؛ لينالوا درجة الصديقين والشهداء.

فعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)**[3].

ومن مجالات الأمانة في الأموال رد الودائع إلى أهلها، وأداء الحقوق لأصحابها.

قال صلى الله عليه وسلم: **(من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله)**[4].

وقد ورد أن الشهيد يسأل عنها يوم القيامة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة.

قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة -وإن قتل في سبيل الله- فيقال: أد أمانتك، فيقول: أي رب كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت له، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه، حتى إذا ظن أنه خارج نزلت عن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها، باب من لم يقبل الهدية لعلة، ٢/ ٩١٧، رقم ٢٤٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، ٣/ ١٤٦٣، رقم ١٨٣٢.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٣٨، رقم ٢٠٩٨١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي صلى الله عليه وسلم إياهم، ٣/ ٥١٥، رقم ١٢٠٩. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ١٦٢، رقم ١٧٨٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها، ٢/ ٨٤١، رقم ٢٢٥٧.

والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها وأشد ذلك الودائع»[(١)].

والوديعة: أن يودع أحد الأشخاص عند إنسان يثق به وديعة عينية من مال أو ذهب أو أوراق نقدية أو متاع أو نحوه مما يسمى أمانات، وحينئذٍ يجب على المسلم حفظ هذه الوديعة حتى يرجعها إلى صاحبها.

والمقصود أن من مجالات الأمانة الواسعة الأمانة في الأموال، فهي من الأمانات التي نسأل عنها يوم القيامة، ولنا الأسوة الحسنة في رسولنا الأمين صلى الله عليه وسلم، حينما استخلف عند هجرته ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ ليسلم المشركين الأمانات والودائع التي استحفظها، مع أن هؤلاء المشركين كانوا قد خططوا لقتله أو سجنه أو طرده من الديار، وأرغموه على الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة[(٢)].

الآثار المترتبة على أداء الأمانات

بين الوحي الإلهي الآثار المترتبة على أداء الأمانة في الدنيا والآخرة، وسوف نبينها فيما يأتي:

أولًا: الآثار الدنيوية:

١ . الثقة بالأمين:

من أعظم آثار الأمانة الدنيوية أن الأمين يصبح موضع ثقة الناس واحترامهم، والخائن محط سخطهم وحقدهم؛ ولهذا نجد أن الإسلام قد شدد في الأمانة والعهد؛ ليقيم المجتمع على أسس متينة من الخلق، والثقة والطمأنينة، وجعل رعاية الأمانة والعهد سمة النفس المؤمنة، كما جعل خيانة الأمانة، وإخلاف العهد سمة النفس المنافقة والكافرة.

وكلما ازدادت الثقة بين أبناء المجتمع كان ذلك دليلًا على توافر أمانتهم، وسمو أخلاقهم، وشيوع الثقة والتعاون بينهم، وهذا يساعد على تحقيق التكافل الذي هو قاعدة المجتمع الإسلامي، وكذا الاحترام المتبادل لجهود الآخرين، وما يقدمونه من عطاء وإسهام يجعل المجتمع أمة واحدة.

والنفس البشرية تميل بالفطرة إلى التعامل مع الأمين الصادق حتى غير المسلمين يؤثرون الأمين، فقد ورد في قصة

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، رقم ٥٢٦٦.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ١٥٧، رقم ١٧٦٣.

(٢) انظر: فقه السيرة، البوطي ص ١٧٨.

أهل نجران لما وافقوا على دفع الجزية.

قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: إنا نعطيك ما سألتنا، فابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال: (لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين) فاستشرف لها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (قم يا أبا عبيدة بن الجراح)[1] فأرسله معهم، وكان أمينًا لهذه الأمة.

ولولا وجود الأمانة لما حصلت الثقة بأي أحد، ففي باب الرسالات لولا صفة الأمانة في الرسل لما حصلت الثقة بما يبلغون عن ربهم، ولما اصطفاهم الله لحمل رسالاته للناس.

وفي باب العلاقة الزوجية لولا وجود الأمانة بين الزوجين لما حصل الثقة بينهما، ولما أمن أحدهما الآخر، ولما عاشا في سعادة وأمن؛ لهذا فالعلاقة بين الزوجين ينبغي أن تقوم على أساس الأمانة المتبادلة في حفظ الأعراض، والأسرار البيتية؛ لكي يتولد الإخلاص والثقة بينهما في كل عمل فيه مصلحة الأسرة، فإذا توفرت الأمانة والإيمان تنشأ الثقة بين الطرفين، ويزول الشك والريبة، ويصبح كل منهما عينًا ساهرة على الأسرة ومصالحها، وإذا فقدت الأمانة، ودخل مرض الشك والريبة بين الزوجين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، ٤/ ١٥٩٢، رقم ٤١١٩.

كان ذلك بداية دمار الأسرة، والتفريق بين الأبناء؛ لذلك حرص الإسلام على تعزيز عنصر الأمانة بين أفرادها، فالزوجة التي تحفظ زوجها في عرضها في غيابه، وترعى الأمانة في ماله من الضياع والتبذير، وتحفظ ولده وسائر شئون البيت تكون قد أدت الأمانة، ورعت المسئولية، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيتها)[2].

ولولا وجود الأمانة بين البائع والمشتري لما حصلت الثقة بينهما، ولخاف كل منهما من الآخر، وغش كل منهما الآخر؛ فلهذا كان للأمانة في البيع والشراء دور كبير في طمأنينة النفس، واستتباب الأمن؛ لأن صدق التعامل مع الناس وسيلة لزيادة الحب والتآلف بينهم؛ ولهذا أوصى النبي صلى الله عليه وسلم التجار بالتزام الصدق والتقوى والأمانة؛ لينالوا درجة الشهداء -كما سبق- من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)[3].

وفي باب الشراكة لولا وجود الأمانة بين الشريكين لما حصل الثقة بينهما؛ ولما أمن أحدهما الآخر، ولضيع الشريك الأمانة

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ١/ ٣٠٤، رقم ٨٥٣.

(٣) سبق تخريجه قريبًا.

وخان شريكه الذي ائتمنه، فسرق من مال صاحبه، ولم يخبره بحقيقة البيع والشراء والربح، وإذا فعل ذلك حلت العقوبة، ومحقت البركة.

والمقصود أن بالأمانة توجد الثقة بين الناس، وتشيع في المجتمع الطمأنينة على الأرواح والأعراض والأموال، ومما لاشك فيه أن الثقة روح العمران، وسر النجاح ولا عجب؛ فإنه بالثقة تحسن المعاملة، وتحفظ الحقوق، وتتبدد المطامع، وتكبح الشهوات، وتتلاشى الفوضى، ويسود النظام، وهذه هي ركائز النهوض، ووسائل التفوق، وأسس التبريز في مجالات الحياة، وينعكس الأمر إذا انعدمت الثقة بين الناس حيث تضطرب الأمور، وتشيع الفوضى، ويختل الأمن، ويفسد النظام، ويفقد الشخص أعز شيء يرتكز عليه في حياته؛ فالتاجر يخبو شرفه، وتبور تجارته، والصانع تنحط صناعته، وتسوء سمعته، والموظف تختل موازينه، وتهتز وظيفته، وبكل هذه السوءات تشقى الأمة، ويذهب ريحها.

ولأجل هذا كله أمر القرآن الكريم بما يحافظ على هذه الثقة في صفوف الناس وهو الأمانة؛ حفظًا للنوع الإنساني من التدهور، وصيانة للمجتمع الإسلامي من التفكك.

وقد جاء في الحديث أن مما ينزع الثقة بين الناس ضياع الأمانة حتى لا يكاد يثق الناس بأحد، فعن حذيفة رضي الله عنه.

قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين، رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: **(أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة).**

وحدثنا عن رفعها قال: **(ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت[1]، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل[2]، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا[3]، وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان).**

ولقد أتى علي زمان، وما أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلمًا رده علي إسلامه، وإن كان نصرانيًا رده علي ساعيه، فأما اليوم

(١) الوكت: أثر الشيء اليسير منه.
انظر: غريب الحديث، القاسم بن سلام ٤/ ١١٨.

(٢) المجل: أثر العمل في الكف إذا غلظ.
انظر: غريب الحديث، القاسم بن سلام ٤/ ١١٨.

(٣) منتبرًا: متنفطًا، وكل شيء رفع فقد نبر، ومنه: سمي المنبر؛ لارتفاعه.
انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، الأزدي ص ٧٦.

فما كنت أبايع إلا فلانًا وفلانًا[1].

وهذا الحديث علم من أعلام النبوة؛ لأن فيه الإخبار عن فساد أديان الناس، وقلة أمانتهم في آخر الزمان، ولا سبيل إلى معرفة ذلك قبل كونه إلا من طريق الوحي[2].

وفي الحديث أيضًا دلالة أن هذه الأمانة سوف تنزع من قلوب الرجال، فيصبح الناس يتحدثون: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، يعني: أنك لا تكاد تجد في القبيلة رجلًا واحدًا أمينًا، والباقي كلهم على خيانة لم يؤدوا الأمانة، وواقع الناس اليوم يصدق هذا الحديث؛ فإنك تستعرض الناس رجلًا رجلًا حتى تبلغ إلى حد المائة أو المئات لا تجد الرجل الأمين الذي يؤدي الأمانة كما ينبغي في حق الله وحق الناس، قد تجد رجلًا أمينًا في حق الله يؤدي الصلاة، ويؤدي الزكاة، ويصوم، ويحج ويذكر الله كثيرًا، لكنه في المال ليس أمينًا، إن وكل إليه عمل حكومي فرط وصار لا يأتي للدوام إلا متأخرًا، ويخرج قبل انتهاء الوقت، ويضيع الأيام الكثيرة في أشغاله الخاصة ولا يبالي، مع أنك تجده في مقدمة الناس في المساجد، وفي الصدقات، وفي الصيام، وفي الحج، لكنه ليس أمينًا من جهة أخرى[3].

وقوله في الحديث: (يصبح الناس) أي: يدخلون في الصباح أو يصيرون (يتبايعون) أي: يجري بينهم التبايع، ويقع عندهم التعاهد، ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة، بل يظهر من كل أحد منهم الخيانة في المبايعة والمواعدة والمعاهدة، ومن المعلوم أن حفظ الأمانة أثر كمال الإيمان، فإذا نقصت الأمانة نقص الإيمان، وبطل الإيقان، وزال الإحسان، فيقال عند ذلك -بسبب قلة الأمانة في الناس-: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، أي: كامل الإيمان، وكامل الأمانة، ويقال -أي: في ذلك الزمان- للرجل أي: من أرباب الدنيا، ممن له عقل في تحصيل المال والجاه، وطبع في الشعر والنثر وفصاحة وبلاغة وصباحة، وقوة بدنية، وشجاعة وشوكة: (ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده!) تعجبًا من كماله، واستغرابًا من مقاله، واستبعادًا من جماله، وحاصله: أنهم يمدحونه بكثرة العقل والظرافة والجلادة، ويتعجبون منه، ولا يمدحون أحدًا بكثرة العلم النافع، والعمل الصالح[4].

فهذه الثقة وهذه الطمأنينة ينالها الأمين، أما فاقد الأمانة فيكفيه ما يلقاه في الدنيا من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، رقم ٢٣٨٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، رقم ١٤٣.

(٢) شرح ابن بطال ١٩/ ٤٦.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١/ ٢٣٦.

(٤) انظر: مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ١٥/ ٣٣٨.

مهانة وصغار، حين ينكشف أمره، ويهتك ستره، ويجد الأمانة التي ضيعها وخانها متمثلة له يوم القيامة عند الصراط؛ لتهوي به من فوق الصراط إلى قعر جهنم -والعياذ بالله تعالى- جزاء ما ضيع منها، وفرط فيها، كما جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث الشفاعة العظمى: (وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يمينًا وشمالًا) إلى أن قال: (ونبيكم قائم على الصراط، يقول: رب سلم سلم) قال: (وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة، مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار) قال أبو هريرة راوي الحديث: «والذي نفس أبي هريرة بيده: إن قعر جهنم لسبعون خريفًا»[(1)].

فهنيئًا لمن قام بحق الأمانة، فجرى على الصراط، ونجا من عذاب جهنم، والحسرة والندامة على من تساهل فخان أمانته، وضيع وسقط في الغدر، والشهوة العارضة، أو الحقد الأعمى الذي يحمله على الخيانة والغدر والنكث.

٢. انتشار الطمأنينة والسعادة في المجتمع:

ومن آثار الأمانة في الدنيا استقامة أحوال المسلمين ما ثبتوا عليها، وتخلقوا بها، فإن ضيعوها، ولم يؤدوها إلى أهلها، فسدت حياتهم، وساءت معاملاتهم، وعاشوا حياة الغدر والغش والخيانة، وعدم الطمأنينة.

والمجتمعات في ظل قيام أفرادها بأداء أماناتهم يعم فيها السعادة والطمأنينة، ويعيش الفرد فيها حياة طيبة، وحين تختفي الأمانة من حياتهم تفسد حياتهم، وتسوء معاملاتهم، ويعيشون حياة خالية من الطمأنينة والسعادة، وراحة البال، وواقع الناس اليوم خير دليل على ذلك، حيث عم التعامل بالغدر والخيانة والغش والخداع والكذب في سائر أحوالهم ومعاملاتهم إلا من رحم الله.

ومن علامات سوء الزمان، وفساد المجتمع، وخبث السرائر ضياع الأمانة، والتفريط في الرعاية، والتهاون في المسئولية، واتخاذ المصالح الخاصة الهدف والغاية، ونبذ المصالح العامة من أجل المصالح الخاصة، والمنافع الذاتية.

وتبرز آثار تضييع الأمانة في فساد أخلاق المجتمع، وانقلاب الموازين الصحيحة، وتزيين المحرمات، حتى تصبح بعض المجتمعات المسلمة لا تعرف معروفًا، ولا تنكر منكرًا، فيعم النفاق، ويكثر الزنا، وتنتشر الخمور والمخدرات، وما يتبع ذلك من ارتفاع أسافل الناس على خيارهم،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١/١٦٨، رقم ١٩٥.

بسبب توسيد الأمور لغير أهلها.

ولهذا فأداء الأمانة هو من الواجبات العظيمة على الفرد والمجتمع، والذي به يسعد المجتمع، وينتشر فيه الخير والطمأنينة، ومن أسباب المصائب والعقوبات الخاصة والعامة في المجتمع تضييع الأمانات، وعدم أدائها لأهلها، وكم من إنسان قد ابتلي بأنواع من الأمراض والأسقام والأوجاع بسبب تضييعه لما قد اؤتمن عليه من حقوق الناس.

وقد اعتبر ضياع الأمانة وفشو الغدر والخيانة من علامات الساعة وأشراطها؛ ولهذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم من إضاعتها، والتهاون فيها، وأشار إلى أن في إضاعتها انحلال أمر المسلمين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث إذ جاء أعرابي، فقال: متى الساعة؟ قال: **(إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة)** قال: كيف إضاعتها؟ قال: **(إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة)**[1].

قال العلماء رحمهم الله في بيان معنى هذا الحديث الشريف: معنى وسد الأمر إلى غير أهله: أن الأئمة والحكام قد ائتمنهم الله على عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم، فيجب عليهم تولية الأمناء أهل الكفاءة والدين والأمانة والعلم، فإذا قلدوا غير هؤلاء، وقدموا عليهم أهل الفسق والفجور والجهالة فقد ضيعوا الأمانة التي حملهم الله إياها.

وفي ضياع الأمانة أيضًا اختلال الموازين، وفساد القيم، حيث تنقلب الموازين، وتضطرب المقاييس، وتفسد الأخلاق والقيم والتعاليم.

قال صلى الله عليه وسلم: **(سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة في أمر العامة)** قيل: وما الرويبضة؟ قال: **(الرجل التافه)**[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: **(لا تقوم الساعة حتى يخون الأمين، ويؤتمن الخائن)**[3].

وفي هذا غاية في اختلال الموازين في المجتمع، نسأل الله السلامة والعافية.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه، ١/ ٢١، رقم ٥٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ٢/ ١٣٣٩، رقم ٤٠٣٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٦٥٠.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٤٥٧، رقم ٦٨٧٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥/ ٣٦٠، رقم ٢٢٨٨.

الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كيف بكم بزمان يوشك أن يأتي يغربل الناس فيه غربلة -يعني: يذهب خيارهم ويبقى شرارهم-، ثم تبقى حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم وأماناتهم، فاختلفوا هكذا -وشبك بين أصابعه- فقالوا: كيف بنا يا رسول الله إذا كان ذلك؟ قال: تأخذون بما تعرفون، وتدعون ما تنكرون، وتقبلون على خاصتكم، وتذرون عوامكم)[1].

ويؤدي ضياع الأمانة في المجتمع إلى تفكك العلاقات، فحينما تفتقد الثقة بين أبناء المجتمع، وتتفشى منكرات القلوب من الغل والبغضاء والتناحر تتفكك العلاقات الاجتماعية، وتكثر مظاهر الخيانة، وإساءة الظن، وإنكار الحقوق، وغلبة الأنانية والفردية، وحب الأثرة، وبذا تنحل قاعدة المجتمع، وتنفصم عراه، وتكثر الإخفاقات، ويحدث التخلف الحضاري للمجتمع، وغياب العزة الإسلامية، وغلبة الذل على المسلمين، وتفرقهم، وتشتتهم وضعفهم اقتصاديًا، وتخلفهم علميًا، ووقوع فئات منهم في الهزيمة النفسية الداخلية؛ مما يسبب ذلك في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وغلبة الكذب والخيانة، والتناقض بين القول والعمل.

وقد صارت الأمة الإسلامية منذ زمن تعيش مسلسل السقوط والانحدار في إقصاء الأمناء والنصحاء من الحياة، وتملأ الفراغات في القيادات بالخائنين، وأصبح الناس يرون بأم أعينهم في كثير من بقاع العالم الإسلامي أن الأمور توسد إلى غير أهلها، ويؤتمن الخائن، ويخون الأمين، ويغدو الأمناء غرباء، نادرين يشار إليهم، ومع ندرة هؤلاء الأمناء يستبعدون ويولى غيرهم، وذلك من أسباب إضاعة الأمانة، وظهور الخيانة، وهو من علامات الساعة.

والمقصود أن الأمانة رمز السعادة، وعنوان الخير والمحبة؛ ولذا أمر الله بها عباده، وحلى بها ملائكته، وهي من أخص الفضائل والآداب التي يترتب عليها صيانة الأموال والأعراض، وحفظ المجتمع من غوائل الفوضى والفساد، فبين الأمانة والإيمان تلازم، فحيث يكون الإيمان تكون الأمانة، وحيث تكون الأمانة يكون الإيمان.

وإن القيام بأداء الأمانات فيه حفظ المجتمع من الزوال، وحفظ الأفراد من حلول العذاب، وبه يسود السلام، ويعم الأمن، وتنتشر الطمأنينة والسعادة في

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/٢١٦، رقم ٤٣٤٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب التثبت في الفتنة ٢/١٣٠٧، رقم ٣٩٥٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٥٩٤.

المجتمع، ولا يتسنى تعميق روح الأمانة في أفراد المجتمع، والوقاية من الخيانة إلا في ظل التقوى والإيمان، والالتزام الديني والأخلاقي.

وإن التزام الجميع بخلق الأمانة علامة على مكامن القوة في المجتمع، وإن تضييع الأمانة، وتوسيد الأمر إلى غير أهله علامة على مكامن الضعف والتفرقة وضياع طاقات ومقدرات الأمة؛ ولهذا فنحن في أمس الحاجة إلى التذكير بها في مجتمعاتنا المعاصرة.

٣. سعة الرزق ورغد العيش:

لاشك أن الصدق والأمانة في المعاملات سبب لحصول الرزق وبركته، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢- ٣].

فرتب على التقوى التي أساسها الصدق وأداء الأمانة في المعاملة التيسير، والخروج من كل ما ضاق على الناس، وفتح أبواب الرزق، وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما)**[1].

وإنما كان الصدق والبيان وأداء الأمانة في جميع المعاملات سببًا للبركة وتيسير أبواب الرزق لأمرين مهمين:

أحدهما: وعد الله ووعد رسوله، والله لا يخلف الميعاد، أن من سلك الطرق التي أمر بها، وتجنب ما نهى عنه، بارك الله له في سعيه، ورزقه من حيث لا يحتسب، وفتح له من خزائن جوده وكرمه، ما لا يناله الناس بسعيهم وجدهم وحذقهم، وهذا أمر رباني، وجزاء إلهي، مشاهد معلوم بالتجربة.

والثاني: أن من عامل الناس، وعرفوا منه الصدق والنصح، اطمأنوا إليه، وركنوا إلى معاملته، ورغبوا في الأخذ منه وإعطائه؛ لأن قلوبهم إليه مطمئنة، ونفوسهم إلى أمانته منقادة واثقة، وحاز الاعتبار والشرف اللذين عليهما أسست المعاملات النزيهة الطيبة.

وكذلك العلاقة بين الشركاء إذا بنيت على الصدق والأمانة، أفادت أهلها خيرًا كثيرًا، فإنه من كان الله معه أيده بعونه وتوفيقه وتسديده؛ وكانت حركاته مقرونة بالنجاح مع ما في اتفاق الشريكين على مصالحهما، واجتماع رأيهما، وحصول التشاور الذي هو مدار الأعمال، مع ما يقترن بذلك من التعاون البدني، والسعي المشترك من المنافع، ودفع ما يخشى ضرره، كل هذه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقًا فليطلبه في عفاف، ٢/ ٧٣٢، رقم ١٩٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب البيوع، باب الصدق في البيع والبيان، رقم ١٥٣٢.

الأمور أسباب ومفاتيح لحصول الرزق وبركته ونمائه.

وضد ذلك إذا بنيت المعاملات والشركات على الكذب، وعدم النصح، وحصول الغش والخيانة، فإن الله ينزع بركته، ويحل المحق بدل ذلك، وتتأخر المعاملة، وتنحط بالخيانة والكذب، وهذا كله مشاهد مجرب[(١)].

وكذلك فالأمانة في العمل سبب في الاستمرار فيه، ومن ثم استمرار الرزق الذي يأتي منه، فبدون الأمانة لا يمكن للإنسان أن يستمر في عمله، وينجح فيه؛ ولهذا فكل عامل يجب أن يكون أمينًا على مصالح ومال من يستخدمه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(والخادم في مال سيده راعٍ، وهو مسئول عن رعيته)**[(٢)].

فالراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما اؤتمن على حفظه، فهو مطلوب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه، فمن الأمانة ألا يستخدم ما تحت يده من أشياء تخص العمل في أغراضه الشخصية إلا بعد استئذان صاحب العمل، ويكون الأمر أشد فيما لو كان العامل موظفًا لدى الدولة؛ لأن ما تحت يده من أشياء هي أموال عامة تخص بيت مال المسلمين، ولا يجوز التصرف فيها إلا بالحق.

فلا يخفى إذن ما في الأمانة من فوائد للشخص نفسه من استمراره في العمل، وزيادة أجره، ورفع مرتبته، وزيادة الثقة فيه؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

وإذا ضيع الشخص الأمانة محقت البركة منه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: **(يقول الله: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خان خرجت من بينهما)**[(٣)].

قال المناوي: «بالمعونة، وحصول البركة والنماء، **(ما لم يخن أحدهما صاحبه)** بترك أداء الأمانة، وعدم التحرز من الخيانة **(فإذا خانه)** بذلك **(خرجت من بينهما)** يعني: نزعت البركة من مالهما»[(٤)].

فشركة الله لهما استعارة؛ كأنه جعل البركة بمنزلة المال المخلوط، فسمى ذاته ثالثًا لهما.

وقوله: **(خرجت)** ترشيح للاستعارة، وفيه ندب الشركة، وأن فيها البركة، بشرط الأمانة؛ وذلك لأن كلًا منهما يسعى في نفع صاحبه، والله في عون العبد ما دام العبد في

(١) الرياض الناضرة، السعدي ص٢١٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ١/ ٣٠٤، رقم ٨٥٣.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في الشركة ٣/ ٢٦٤، رقم ٣٣٨٥.
وضعفه الألباني في إرواء الغليل، ٥/ ٢٨٨، رقم ١٤٦٨.
(٤) فيض القدير ٢/ ٣٩٠.

عون أخيه.

وقد ذكر الذهبي قصة تدل على فضل الأمانة، وما يجلب الله بها من أرزاق، حيث قال: «وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: حكى ابن عقيل عن نفسه.

قال: حججت، فالتقطت عقد لؤلؤ، في خيط أحمر، فإذا شيخ أعمى ينشده، ويبذل لملتقطه مائة دينار، فرددته عليه، فقال: خذ الدنانير، فامتنعت، وخرجت إلى الشام، وزرت القدس، وقصدت بغداد، فأويت بحلب إلى مسجد، وأنا بردان جائع، فقدموني، فصليت بهم، فأطعموني، وكان أول رمضان، فقالوا: إمامنا توفي فصل بنا هذا الشهر، ففعلت، فقالوا: لإمامنا بنت، فتزوجت بها، فأقمت معها سنة، وأولدتها ولدًا ذكرًا، فمرضت في نفاسها، فتأملتها يومًا، فإذا في عنقها العقد بعينه، بخيطه الأحمر، فقلت لها: لهذا قصة! وحكيت لها، فبكت، وقالت: أنت هو والله، لقد كان أبي يبكي، ويقول: اللهم ارزق بنتي مثل الذي رد العقد علي، وقد استجاب الله منه، ثم ماتت، فأخذت العقد والميراث، وعدت إلى بغداد»[(١)].

ثانيًا: الآثار الأخروية للأمانة:

من آثار أداء الأمانة الحصول على رحمة الله ومغفرته للأفراد والجماعات، فالعقبى الحميدة، والنهاية الرشيدة لمن يوفي الأمانة حقها، ويرعى لها مكانتها، فمن أدى الأمانة استحق من الله الرحمة والغفران، والثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الوبيل، وصار خائنًا لله وللرسول ولأمانته، منقصًا لنفسه بكونها اتصفت بأخس الصفات، وأقبح السمات وهي الخيانة، مفوتًا لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

وقد رتب الله على أداء الأمانات، والقيام بحقوقها أعظم الثواب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:٨-١١].

فذكر الله في هذه الآيات صفات المؤمنين، الذين يرثون الفردوس، وهي أعلى منازل الجنة، ومن هذه الصفات أنهم يؤدون الأمانة، ويوفون بالعهد، فبين جزاءهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ وهذا الجزاء بسبب ما اتصفوا من هذه الصفات.

وذكر في بداية هذه السورة أن هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات التي منها حفظ الأمانة مفلحون، فقال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١].

(١) انظر: مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي ٨/ ٥٢، سير أعلام النبلاء، الذهبي ١٩/ ٤٤٩.

وغاية ما يطلبه المؤمنون هو الفلاح في الدنيا والآخرة، وليس بعدها غاية تمتد إليها عين أو خيال.

وفي هذا تنويه من الله بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها، فليزن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه، وما مع غيره من الإيمان، زيادة ونقصًا، كثرة وقلة.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها؛ لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك: جميع الجنة؛ ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم ومراتبهم، كل بحسب حاله ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها، ولا يبغون عنها حولًا؛ لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه، من غير مكدر ولا منغص.

والمقصود أن جزاء الأمانة عند الله عز وجل في الآخرة النعيم المقيم، والنجاة من العذاب الأليم.

وفي موضع آخر أخبر الله تبارك وتعالى أن الملتزمين بالأمانة في جنات مكرمون، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المعارج:٣٢].

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠].

إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد:٢٢ – ٢٣].

فالله تبارك وتعالى هنا عدد صفات المؤمنين، وذكر من ضمنها الوفاء بالعهد، والمحافظة على الميثاق، والعهد والميثاق من الأمانات، والعهد يفهم منه أن الإنسان لن يكون مؤمنًا حق الإيمان ولن ينال الأجر الكبير، ولن يدخل جنات النعيم، ويكرم معه أهله حتى يكون أمينًا، ملتزمًا بشرع الله التزامًا شاملًا، من دون نقصان.

فالذين تحملوا الأمانة، وقاموا بها وجدوا واجتهدوا في تحقيقها هم أهل الإيمان، وأهل كرامة الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة.

وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذكر الأمانة جزاء هذه الأقسام تجاه الأمانة، فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٣].

فالأمين بلا ريب سيجد أثر هذا الخلق النبيل في يوم القيامة، وقد جاء عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يمينًا وشمالًا**)[(١)] وخص الأمانة والرحم بالذكر لعظم أمرهما، وكثير موقعهما؛ حيث يصورهما الله على الصفة التي يريدها سبحانه وتعالى، فتقومان تطالبان بحقهما كل من يريد الجواز على الصراط؛ لذلك كان لا بد من التواصي بين المسلمين بحفظ أمانات الدين، وتبليغه للناس، وحفظ أمانة الأموال، والوفاء في الديون والحقوق، وكتمان أسرار المجالس، وغيرها من الأمانات.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة، من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلًا، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه، وأدى الأمانة) قالوا: يا أبا الدرداء، وما أداء الأمانة؟ قال: «الغسل من الجنابة»**[(٢)].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**اضمنوا لي ستًا أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم**)[(٣)].

فالأمانة تعدل الدنيا وما فيها، فمن رزقه الله الأمانة هانت عنده الدنيا، ومتاعها الزائل، فلا يبيع أمانته بعرض من أعراضها.

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طهر**)[(٤)].

كما أن الأمانة سبيل الفلاح، ويبدو ذلك جليًا في قصة نبي الله يوسف عليه السلام، فقد كان أمة ومثالًا للأمانة والعفاف، ثم كان له بعد ذلك التمكين والفلاح، فبعد أن ذكرت امرأة العزيز براءته التي بلغت حاكم مصر.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١/ ١٨٦، رقم ١٩٥.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في المحافظة على وقت الصلوات، رقم ٤٢٩.
وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ١/ ٤٢٩.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٤١٧، رقم ٢٢٧٥٧.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٨٦، رقم ٢٩٩٣.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٣٣، رقم ٦٦٥٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٨٧٣.

قال: جيئوني به أجعله مقربًا لدي، ومن خلصائي، وأهل مشورتي.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ [يوسف: ٥٤].

فأتوه به مكرمًا محترمًا، فلما جاء يوسف وكلمه الملك أعجبه كلامه، وعرف براءته، وعظيم أمانته، وحسن خلقه، وزاد موقعه عنده: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: ٥٤].

أي: إنك اليوم عندنا عظيم المكانة، أمين على الأسرار، ومؤتمن على كل شيء، فأراد يوسف أن ينفع العباد، ويقيم العدل بينهم، فقال للملك: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥].

أي: إني خازن أمين، ذو علم وبصيرة بما أتولاه، كما أن سلامة يوسف عليه السلام من الفاحشة مما يؤكد علاقة الأمانة بالدين. والله أعلم.

موضوعات ذات صلة

الخيانة، والوفاء





عناصر الموضوع

مفهوم الامة	٣٤٦
الأمة في الاستعمال القرآني	٣٤٧
الالفاظ ذات الصلة	٣٤٨
الأمة الأولى	٣٥٠
الامم والرسالة	٣٥٢
الاختلاف بين الامم	٣٥٧
الأمة المحمدية	٣٦٤
آجال الامم	٣٧٠
الامم يوم القيامة	٣٧٣



مفهوم الأمة

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمة مشتقة من (أم) وجذر هذه المادة، كما قال ابن فارس: «الهمزة والميم فأصل واحد، يتفرع منه أربعة أبواب، وهي: الأصل والمرجع والجماعة والدين، وهذه الأربعة متقاربة، وبعد ذلك أصول ثلاثة، وهي القامة والحين والقصد»[١]، والأمة في الأصل راجعة إلى القصد، وهي: الجماعة التي تقصد الأمر بتضافر وتعاون[٢].

وقال ابن قتيبة: «أصل الأمة: الصنف من الناس والجماعة»[٣].

وقال الكفوي: «الأمة في الأصل: المقصود، كالعمدة والعدة في كونهما معمودًا ومعدًا، وتسمى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق، كقوله تعالى: ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]»[٤].

وكل مشتقات هذه المادة ترجع إلى معنى القصد، ولا يخرج شيء منها عن ذلك[٥].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

قال الراغب الأصفهاني: «والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا»[٦].

وقال ابن عاشور: «والأمة: اسم للجماعة الذين أمرهم واحد، مشتقة من الأم بفتح الهمزة وهو القصد، أي: يؤمون غاية واحدة»[٧].

وقال سيد قطب رحمه الله: «(الأمة) عبارة عن طائفة من الناس، متوافقة فيما بينها، اجتمعت وتألفت وامتازت من بين طوائف أخرى؛ لاشتراكها في بعض الأمور الجوهرية»[٨].

«وإنما تكون الجماعة أمة إذا اتفقوا في الموطن، أو الدين، أو اللغة، أو في جميعها»[٩].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢١.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، العسكري ص ٣١.
(٣) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٢٤٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ١٤٢.
(٤) الكليات، الكفوي ص ١٨١.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٧.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٦، وانظر: الكليات، الكفوي ص ١٧٦.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٠٠.
(٨) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٤٦.
(٩) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٠٠.



الأمة في الاستعمال القرآني

وردت (الأمة) في القرآن الكريم (٦٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
مفرد	٥١	﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠]
جمع	١٣	﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام:٣٨]

وجاءت (الأمة) في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: العصبة والقوم والجماعة: ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[البقرة:١٢٨] يعني عصبة.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾[النحل:٩٢] يعني أن يكون قوم أكثر من قوم.

الثاني: الملة: ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[البقرة:٢١٣] يعني ملة.

الثالث: المدة من الزمن: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥ﴾[هود:٨] يعني سنين معدودة.

الرابع: الإمام في الخير: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٠] يعني إمامًا يقتدى به في الخير.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٨٠.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ٤٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجمع:

الجمع لغة:

ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض، يقال: جمعته فاجتمع[(١)]، وجمعت الشيء: إذا جئت به من هاهنا وهاهنا، وتجمع القوم: اجتمعوا أيضًا من هاهنا وهاهنا»[(٢)].

الجمع اصطلاحًا:

قال ابن عاشور: «والجمع: الجماعة من الناس»[(٣)].

الصلة بين الأمة والجمع:

هو أن الأمة هي الجماعة التي تقصد الأمر بتضافر وتعاون، لكن الجمع هو فقط الجماعة من الناس، فالعلاقة بينهما أن لفظ الجمع أعم من لفظ الأمة.

٢ الحزب:

الحزب لغة:

قال الأزهري: «والحزب: الصنف من الناس.

وقال ابن الأعرابي: الحزب: الجماعة من الناس»[(٤)]، وقد ورد لفظ (الحزب) في القرآن الكريم بصيغة الإفراد والجمع دون التثنية؛ للدلالة على مفهوم الأمة.

الحزب اصطلاحًا:

«والحزب: الجماعة المجتمعون على أمر من اعتقاد أو عمل، أو المتفقون عليه»[(٥)].

الصلة بين الأمة والحزب:

بينهما عموم وخصوص؛ فلفظ الأمة أعم من لفظ الحزب، فكلاهما يدل على الصنف والجماعة، إلا أن الحزب خاص بجماعة البشر، والأمة عامة في جماعة البشر وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٩٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٥٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٨٢.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٢١٧.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٧٣.

٣ القوم:

القوم لغة:

القاف والواو والميم: أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناسٍ، وربما استعير في غيرهم، والآخر على انتصاب أو عزم[(١)].

القوم اصطلاحًا:

قال الراغب: «والقوم: جماعة الرجال في الأصل دون النساء، ولذلك قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]، وفي عامة القرآن أريدوا به والنساء جميعًا»[(٢)].

قال الرازي: «القوم: اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع على النساء ولا على الأطفال، والقائم بالأمور هم الرجال؛ فعلى هذا الأقوام الرجال لا النساء»[(٣)].

الصلة بين الأمة والقوم:

لفظ الأمة أعم من لفظ القوم، فكل أمة قوم، وليس كل قوم أمة.

٤ الثلة:

الثلة لغة:

الثاء واللام أصلان متباينان: أحدهما التجمع، والآخر السقوط والهدم والذل، والثلة: الجماعة من الناس.

قال الله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩-٤٠][(٤)].

الثلة اصطلاحًا:

قال القاسمي: «أي: جماعة وأمة»[(٥)].

وقال السعدي: «أي: جماعة كثيرون»[(٦)].

الصلة بين الأمة والثلة:

أن الثلة جزءٌ من الأمة، فكل أمة ثلة وليس كل ثلة أمة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٩٣.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢٨/ ١٠٨ بتصرف يسير.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٦٨.
(٥) محاسن التأويل ٩/ ١٢٣.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٣٢.

الأمة الأولى

كان الناس أمة واحدة على دين واحد وملة واحدة، واستمروا على ذلك فترة من الزمن فاختلفوا، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[البقرة: ٢١٣].

اختلف أهل التأويل في معنى (الأمة) الذين وصفهم الله بأنهم: كانوا أمة واحدة.

فقال بعضهم: هم الذين كانوا بين آدم ونوح، وهم عشرة قرون، كلهم كانوا على شريعة من الحق، فاختلفوا بعد ذلك.

قاله: ابن عباس وقتادة.

وقال آخرون: بل تأويل ذلك كان آدم على الحق إمامًا لذريته، فبعث الله النبيين في ولده، ووجهوا معنى (الأمة) إلى طاعة لله، والدعاء إلى توحيده واتباع أمره، من قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [سورة النحل: ١٢٠]، يعني بقوله: ﴿أُمَّةً﴾: إمامًا في الخير يقتدى به، ويتبع عليه. قاله مجاهد.

وقال آخرون: معنى ذلك كان الناس أمة واحدة على دين واحد يوم استخرج ذرية آدم من صلبه، فعرضهم على آدم.

قاله أبي بن كعب وابن زيد.

وقال آخرون بخلاف ذلك كله في ذلك.

وقالوا: إنما معنى قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، على دين واحد، فبعث الله النبيين.

قاله ابن عباس.

وأولى التأويلات في هذه الآية بالصواب أن يقال: إن الله عز وجل أخبر عباده أن الناس كانوا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على دين واحد وملة واحدة، وكان الدين الذي كانوا عليه دين الحق، فاختلفوا في دينهم، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ عند اختلافهم في دينهم ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

فإن دليل القرآن واضحٌ على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به، وذلك أن الله جل وعز قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

فتوعد جل ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثم كان الاختلاف بعد ذلك، لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان، ولو كان ذلك كذلك لكان الوعد أولى بحكمته جل ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد؛ لأنها حال

إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحالٌ أن يتوعد في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك[(١)].

وفي هذه الآية: اختار ابن كثير رواية ابن عباس: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾؛ لأنها أصح سندًا ومعنى؛ ولأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض[(٢)].

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: ١٩]، «ثم أخبر الله تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام»[(٣)].

وقال ابن القيم: «وهذا هو القول الصحيح في الآية»[(٤)].

وبنحوه قال الشنقيطي: «أن آدم أرسل إلى ذريته وهم على الفطرة لم يصدر منهم كفر فأطاعوه، ونوح هو أول رسول أرسل لقوم كافرين ينهاهم عن الإشراك بالله تعالى، ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [يونس: ١٩]، أي: على الدين الحنيف، أي: حتى كفر قوم نوح، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾... الآية [البقرة: ٢١٣]، والله تعالى أعلم»[(٥)]، وهو قول الجمهور[(٦)].

ويقول سيد قطب في تفسير هذه الآية: «وهذه هي قصة الاختلاف بين الناس في التصورات والعقائد، والموازين والقيم... ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً﴾ على نهج واحد وتصور واحد، وقد تكون هذه إشارة إلى حالة المجموعة البشرية الأولى الصغيرة من أسرة آدم وحواء وذراريهم قبل اختلاف التصورات والاعتقادات، فالقرآن يقرر أن الناس من أصل واحد، وهم أبناء الأسرة الأولى: أسرة آدم وحواء.

وقد شاء الله أن يجعل البشر جميعًا نتاج أسرة واحدة صغيرة؛ ليقرر مبدأ الأسرة في حياتهم، وليجعلها هي اللبنة الأولى، وقد غبر عليهم عهد كانوا فيه في مستوى واحد واتجاه واحد وتصور واحد في نطاق الأسرة الأولى، حتى نمت وتعددت وكثر أفرادها، وتفرقوا في المكان، وتطورت معايشهم، وبرزت فيهم الاستعدادات المكنونة المختلفة التي فطرهم عليها؛

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٧٥-٢٨٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٦٩.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٥٧.
(٤) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٠٤.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ١٥٥.
(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٢٤٦.

لحكمة يعلمها، ويعلم ما وراءها من خير للحياة في التنوع والاستعدادات والطاقات والاتجاهات، عندئذ اختلفت التصورات، وتباينت وجهات النظر، وتعددت المناهج، وتنوعت المعتقدات... وعندئذ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»[(١)].

الأمم والرسالة

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، اقتضت حكمة الله تعالى في الأمم قبل هذه الأمة أن يرسل في كل أمة نذيرًا، وهذه سنة الله مع الأمم.

ثم أخبر الله تعالى أن كل أمة انقسمت مع رسولها إلى قسمين.

قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وستحدث في هاتين النقطتين بشيء من التفصيل في السطور القادمة:

أولًا: إرسال الرسل إلى الأمم سنة إلهية:

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث فيها رسولًا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وبين أن بعثة الرسل أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

قال الرازي في هذه الآية: «فبين تعالى أن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢١٥.

سنته في عبيده إرسال الرسل إليهم، وأمرهم بعبادة الله ونهيهم عن عبادة الطاغوت»[(١)].

وفي هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته، واجتناب الشيطان وكل ما يدعو إلى الضلال، وأنهم بعد ذلك فريقان ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، فكان في ذلك دليل على أن أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته فإنه يأمر الكل بالإيمان، ولا يريد الهداية إلا للبعض؛ إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد[(٢)].

وقال ابن كثير بنحو ما ذكره الشوكاني ردًا على المشركين في هذه الآية: «فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، فمشيئته تعالى الشرعية منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرًا، فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه عير عليهم، وأنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل»[(٣)].

وقال البيضاوي في هذه الآية: «بين الله تعالى أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها سببًا لهدى من أراد اهتداءه وزيادة لضلال من أراد ضلاله، كالغذاء الصالح فإنه ينفع المزاج السوي ويقويه، ويضر المنحرف ويفنيه»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧].

قال أبو حيان: «لما بين حال الرسول صلى الله عليه وسلم في قومه بين حال الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مع أقوامهم؛ تسلية له وتطمينًا لقلبه، ودلت الآية على أنه تعالى ما أهمل أمة، بل بعث إليها رسولًا»[(٥)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

قال الرازي في هذه الآية: «لما قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ بين أنه ليس نذيرًا من تلقاء نفسه إنما هو نذير بإذن الله وإرساله، ثم قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ تقريرًا لأمرين؛ أحدهما: لتسلية قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملًا لتأذي القوم. وثانيهما: إلزام القوم قبوله، فإنه ليس بدعًا من الرسل، وإنما هو مثل غيره يدعي ما ادعاه الرسل ويقرره»[(٦)].

(١) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢٠٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٩٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٧٠.
(٤) أنوار التنزيل، ٣/ ٢٢٦ بتصرف يسير.
(٥) البحر المحيط، ٦/ ٦٦.
(٦) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٢٣٤.

وقال ابن عاشور: «وفيه دفع توهم أن يكون قصره على النذارة قصرًا حقيقًا؛ لتبين أن قصره على النذارة بالنسبة للمشركين الذين شابه حالهم حال أصحاب القبور، أي: إن رسالتك تجمع بشارة ونذارة، فالبشارة لمن قبل الهدى، والنذارة لمن أعرض عنه، وكل ذلك حق؛ لأن الجزاء على حسب القبول، فهي رسالة ملابسة للحق ووضع الأشياء مواضعها...، وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ إبطال لاستبعاد المشركين أن يرسل الله إلى الناس بشرًا منهم، فإن تلك الشبهة كانت من أعظم ما صدهم عن التصديق به، فلذلك أتبعت دلائل الرسالة بإبطال الشبهة الحاجبة على حد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وأيضًا في ذلك تسفيه لأحلامهم إذ رضوا أن يكونوا دون غيرهم من الأمم التي شرفت بالرسالة، ووجه الاقتصار على وصف النذير هنا دون الجمع بينه وبين وصف البشير هو مراعاة العموم الذي في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، فإن من الأمم من لم تحصل لها بشارة؛ لأنها لم يؤمن منها أحد»[1].

ثانيًا: موقف الأمم من الرسل:

أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم في أكثر من آية موقف الأمم السابقة من رسلهم، حيث وجد الرسول صلى الله عليه وسلم من يكذب به وبرسالته، فبين الله تعالى أن الأمم السابقة قد حدث فيها هذا أيضًا ، وهي سنة أمثالهم من كفرة الأمم بالله من قبلهم وتكذيبهم رسل الله التي أرسلها إليهم.

قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].

قال المراغي في هذه الآية: «وإن يكذبك أيها الرسول مشركو قومك فلا تبتئس بما يفعلون، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الذين جاءوهم بالمعجزات الباهرة، والأدلة القاطعة، وبالكتب الواضحة كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وزبور داود»[2].

فكانت تلك الآيات تعزية وتسلية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم حتى يثبت في دعوته.

قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤].

قال الطبري في هذه الآية: «يقول تعالى

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢٩٦-٢٩٧.

(٢) تفسير المراغي ٢٢/ ١٢٤.

ذكره مسليًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم عما يناله من أذى المشركين بالله، وحاضًا له على الصبر على ما يلحقه منهم من السب والتكذيب: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون بالله على ما آتيتهم به من الحق والبرهان، وما تعدهم من العذاب على كفرهم بالله، فذلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذبة رسل الله المشركة بالله ومنهاجهم من قبلهم، فلا يصدنك ذلك، فإن العذاب المهين من ورائهم ونصري إياك وأتباعك عليهم آتيهم من وراء ذلك، كما أتى عذابي على أسلافهم من الأمم الذين من قبلهم بعد الإمهال إلى بلوغ الآجال»[(١)].

ولم يكتف هؤلاء المشركون بالسب والتكذيب بل جادلوا رسلهم بالباطل، وهموا بقتلهم.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

قال السعدي في هذه الآية: «ثم هدد من جادل بآيات الله ليبطلها، كما فعل من قبله من الأمم من قوم نوح وعاد والأحزاب من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق؛ ليبطلوه، وعلى الباطل؛ لينصروه، وأنه بلغت بهم الحال، وآل بهم التحزب إلى أنه ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: يقتلوه.

وهذا أبلغ ما يكون الرسل الذين هم قادة أهل الخير الذين معهم الحق الصرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هموا بقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟ ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟! كان أشد العقاب وأفظعه، ما هو إلا صيحة أو حاصب ينزل عليهم أو يأمر الأرض أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقهم فإذا هم خامدون»[(٢)].

وقد بين الله سبحانه وتعالى لنبيه أنه لا حجة بأيدي هؤلاء الكفار سوى تقليد آبائهم الضالين، وهذا من أباطيلهم وشبههم الزائفة، وأخبره أن غير هؤلاء من الكفار من الأمم الماضية قد سبقهم إلى هذه المقالة.

قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣].

قال الرازي: «لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد؛ وذلك لأنه تعالى بين أن هؤلاء الكفار لم

(١) جامع البيان، ١٨/ ٦٥٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٣٢.

يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلي ولا بدليل نقلي، ثم بين أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل...

ثم بين الله سبحانه وتعالى أن الداعي إلى القول بالتقليد والحامل عليه، إنما هو حب التنعم في طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة، وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ والمترفون: هم الذين أترفتهم النعمة أي: أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق، وإذا عرفت هذا علمت أن رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية، ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة»[(١)].

وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل، ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة[(٢)].

وإنما قال أولًا ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، وثانيًا: ﴿مُّقْتَدُونَ﴾؛ لأن الأول وقع في محاجتهم النبي صلى الله عليه وسلم وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين، وأنهم مهتدون كآبائهم، فناسبه ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ والثاني وقع حكاية عن قوم ادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء، فناسبه ﴿مُّقْتَدُونَ﴾، وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم، وتخصيص المترفين بالذكر؛ للإشعار بأن الترف هو الذي أوجب البطر وصرفهم عن النظر إلى التقليد[(٣)].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ٢٧/ ٦٢٧- ٦٢٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٤.
(٣) تفسير المراغي ٢٥/ ٨٠.

الاختلاف بين الأمم

من سنن الله تعالى في خلقه أن جعلهم مختلفين في ألوانهم وصورهم وألسنتهم، وكذلك أيضًا جعلهم مختلفين في عقائدهم وأفكارهم وتصوراتهم، وعن هذا النوع الأخير من الاختلاف سيكون حديثنا في النقاط الآتية:

أولًا: سنة الاختلاف بين الأمم:

لقد خلق الله تعالى البشر مختلفين في الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، متفاوتين في العقول، مختلفين في التفكير تتصادم مصالحهم وتتنازع رغباتهم، وهذا الاختلاف بين في المشارب والأهواء، سنة من سنن الله في الخلق والتكوين.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

قال ابن كثير في هذه الآية: «يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم»[1].

وقال السعدي: «يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته، أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، كل يرى الحق، فيما قاله، والضلال في قول غيره، وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: اقتضت حكمته، أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقت عليهم الضلالة؛ ليتبين للعباد، عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء»[2].

وقد بين الله سبحانه وتعالى الحكمة من ذلك، حيث قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال الخازن في هذه الآية: «﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: جماعة متفقة على شريعة واحدة ودين واحد لا اختلاف فيه ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ يعني: ولكن أراد أن يختبركم ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ يعني: من الشرائع المختلفة هل تعملون بها أم لا؟ فيتبين بذلك المطيع من العاصي والموافق

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٣٦١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٢.

من المخالف»[1]، وقد سلى الله تعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم على ما كان يناله من قومه، حيث كان حريصًا على هداهم، فبين الله تعالى له الحكمة في ذلك، حيث قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

قال المراغي في هذه الآية: «ثم سلى رسوله على ما كان يناله من الغم والهم بتولي قومه عنه، وعدم استجابة دعوته، وأعلمه أن أمور عباده بيده، وأنه الهادي إلى الحق من يشاء، والمضل من أراد فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولو شاء الله لجعل الجميع مؤمنين كما تريد وتحرص عليه.

ولكن حكمته اقتضت أن يكون بعضهم مؤمنين كما تحب، وبعضهم كفارًا وهم الذين اتخذوا من دون الله أولياء؛ لأنه سبحانه شاء أن يكون الإيمان مبنيًا على التكليف والاختيار...

ولو شاء لجعل الإيمان بالقسر والإلجاء، فكان الناس جميعًا أمة واحدة، ولكن له الحجة البالغة، والمثل الأعلى، لم يشأ ذلك، فلا تأس على عدم إيمان قومك...

وقد جاء هذا المعنى في غير آية... منها كقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]»[2].

وقال ابن عاشور في هذه الآية: «أي: ولكن شاء مشيئة أخرى جرت على وفق حكمته، وهي أن خلقهم قابلين للهدى والضلال بتصاريف عقولهم وأميالهم، ومكنهم من كسب أفعالهم وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر بالتكليف، فكان منهم المهتدون وهم الذين شاء الله إدخالهم في رحمته، ومنهم الظالمون الذين ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾...

وهذا مسوق؛ لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على تمنيهم أن يكون الناس كلهم مهتدين، ويكون جميعهم في الجنة»[3].

وقد جاء في الحديث ما يؤكد على هذا الاختلاف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)**[4].

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥١.

(٢) تفسير المراغي ٢٥/ ١٨-١٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٩.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم٤٥٩٦، والترمذي في سننه، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم٢٦٤٠. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

١ . الاختلاف العقدي.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣]

قال الرازي في قوله تعالى: «﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: وما اختلف في الحق إلا الذين أوتوا الكتاب.

وقال أكثر المفسرين: المراد بهؤلاء: اليهود والنصارى، والله تعالى كثيرًا ما يذكرهم في القرآن»(١).

والمراد بالاختلاف الذي بعث الله النبيين؛ ليحكموا فيه بين الناس: هو الاختلاف في الآراء والنحل والأديان والمعتقدات المتعلقة بما يسعد الإنسان به أو يشقى في الآخرة والدنيا، والاختلاف الواقع بينهم على أوجه منها:

الاختلاف في أصل النحلة، وهو قول جماعة من المفسرين(٢).

قال عطاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[هود: ١١٨]، «اليهود والنصارى والمجوس، والحنيفية، وهم الذين رحم ربك»(٣).

وأصل هذا الاختلاف هو في التوحيد والتوجه للواحد الحق سبحانه ، فإن الناس في عامة الأمر لم يختلفوا في أن لهم مدبرًا يدبرهم وخالقًا أوجدهم، إلا أنهم اختلفوا في تعيينه على آراء مختلفة، من قائل بالاثنين وبالخمسة، وبالطبيعة أو الدهر، أو بالكواكب، إلى أن قالوا: بالآدميين والشجر والحجارة وما ينحتون بأيديهم، ومنهم من أقر بواجب الوجود الحق لكن على آراء مختلفة أيضًا، إلى أن بعث الله الأنبياء مبينين لأممهم حق ما اختلفوا فيه من باطله، فعرفوا بالحق على ما ينبغي، ونزهوا رب الأرباب عما لا يليق بجلاله من نسبة الشركاء والأنداد، وإضافة الصاحبة والأولاد، فأقر بذلك من أقر به، وهم الداخلون تحت مقتضى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩](٤).

وفي وقوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾[البقرة: ٢١٣].

قال زيد بن أسلم: «اختلفوا في يوم الجمعة؛ فاتخذ اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد

(١) مفاتيح الغيب، ٦/ ٣٧٦ بتصرف يسير.
(٢) انظر: الاعتصام، الشاطبي ٢/ ٦٧١.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٩٤.
(٤) الاعتصام، الشاطبي ٢/ ٦٧١- ٦٧٢.

ليوم الجمعة، واختلفوا في القبلة؛ فاستقبلت النصارى الشرق واليهود بيت المقدس، وهدى الله أمة محمد للقبلة، واختلفوا في الصلاة؛ فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في الصيام فمنهم من يصوم النهار، ومنهم من يصوم من بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في إبراهيم، فقالت اليهود: كان يهوديًا.

وقالت النصارى: كان نصرانيًا، وجعله الله حنيفًا مسلمًا، فهدى الله أمة محمد، للحق من ذلك، واختلفوا في عيسى، فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتانًا عظيمًا، وجعلته النصارى إلهًا وولدًا، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك»[(١)].

وقد ذكر الله تعالى أمثلة على اختلاف أهل الكتاب وغيرهم من أهل الشرك فيما يعتقدونه، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

قال السعدي: «﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرءوا فيها على الله، وتنقصوا عظمته وجلاله، وقد قيل: إن سبب ادعائهم في ﴿عُزَيْرٌ﴾ أنه ابن الله، أنه لما سلط الله الملوك على بني إسرائيل، ومزقوهم كل ممزق، وقتلوا حملة التوراة، وجدوا عزيرًا بعد ذلك حافظًا لها أو لأكثرها، فأملاها عليهم من حفظه، واستنسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ﴾ عيسى ابن مريم ﴿ابْنُ اللَّهِ﴾»[(٢)].

واختلف في سبب قولهم لذلك على قولين:

أحدهما: أنه لما خلق من غير ذكر من البشر قالوا: إنه ابن الله! تعالى الله عن ذلك.

الثاني: أنهم قالوا ذلك؛ لأجل من أحياه من الموتى وأبرأه من المرضى[(٣)].

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ القول الذي قالوه ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهانًا، ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي قولٍ يقوله، فإنه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٢/ ٣٧٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٤.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٥٣.

لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام، ولهذا قال: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: قول المشركين الذين يقولون: (الملائكة بنات الله) ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، فتشابهت أقوالهم في البطلان، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون على الحق، الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين[١].

والخلاصة في القول: إن الاختلاف بين الأمم من أهل الكتاب وغيرهم قد يكون في المعتقدات، وفي أصل التوحيد.

٢. الاختلاف في الشرعة والمنهاج.

ذكر الله جل وعلا في كتابه الكريم أنه جعل لكل أهل ملة من الأمم شريعة ومنهجًا واضحًا.

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

اختلف أهل التأويل في معنى قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ إلى قولين.

قال ابن الجوزي: «وللمفسرين فيها قولان:

أحدهما: أن المعنى: لكل ملة جعلنا شرعةً ومنهاجًا، فلأهل التوراة شريعة، ولأهل الإنجيل شريعة، ولأهل القرآن شريعة، هذا قول الأكثرين.

والثاني: أن المعنى: لكل من دخل في دين محمد جعلنا القرآن شرعةً ومنهاجًا»[٢].

والشرعة والشريعة في الأصل: الطريقة الظاهرة، ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الدين، والمنهاج: الطريق المستقيم[٣]، وبينهما فرق لطيف، وهو أن الشريعة: هي التي أمر الله بها عباده، والمنهاج: الطريق الواضح المؤدي إلى تلك الشريعة[٤].

وفي الآية إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حرامًا ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفًا فيزاد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة[٥].

وهذا يدل على عدم التعلق بشرائع الأولين[٦]، لذلك احتج بهذه الآية من قال من العلماء بأن شرع من قبلنا لا يلزمنا؛ لأن قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يدل على أن كل رسول جاء بشريعة خاصة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٤.

(٢) زاد المسير، ١/ ٥٥٥ بتصرف واختصار.
(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٣٧٠.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥١.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٩.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢١١.

فلا يلزم أمة رسول الاقتداء بشريعة رسول آخر[(١)].

وقال أبو زهرة في هذه الآية: «الخطاب لليهود والنصارى والمسلمين وغيرهم من الذين أوتوا كتابًا نزل بشريعة من عند الله تعالى.

والمعنى على هذا: أن لكل نبي من الأنبياء السابقين شرعة يسير نحوها، ويتجه إليها، ومنهاجًا واضحًا بينًا يسير في طريقه، ولا يخرج منه، والذين يعاصرونه -أي: النبي صلى الله عليه وسلم- هم الذين يخاطبون بشرعته، ويسيرون في منهاجه، فالذين نزل فيهم القرآن مخاطبون بما جاء في القرآن، وشرعته ومنهاجه لهم؛ لأن شرعة الأنبياء السابقين ومنهاجهم قد انتهيا بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم، وبقي من شرائعهم ما يقره القرآن، وما جاء النص بإقراره»[(٢)].

والخلاصة في القول: إن لكل أهل ملة من الأمم السابقة جعل الله لها شريعة ومنهجًا واضحًا يبينه، وأن أصل الدين المتفق عليه بين الرسل هو التوحيد، وأن الشرائع السابقة قد انتهت بمبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الشرعة: هي الشريعة التي أمر الله بها عباده، والمنهاج: هو الطريق الواضح المؤدي إلى تلك الشريعة. والله أعلم.

٣. الاختلاف بالنسك.

قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

قال الطبري: «وقوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ يقول: لكل جماعة قوم خلت من قبلك يا محمد، جعلنا مألفًا يألفونه، ومكانًا يعتادونه لعبادتي فيه، وقضاء فرائضي، وعملًا يلزمونه، وأصل المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شر، يقال: إن لفلان منسكًا يعتاده: يراد مكانًا يغشاه ويألفه لخير أو شر، وإنما سميت مناسك الحج بذلك؛ لتردد الناس إلى الأماكن التي تعمل فيها أعمال الحج والعمرة»[(٣)].

وقال السعدي في هذه الآية ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾: «يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿مَنسَكًا﴾ أي: معبدًا وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: عاملون عليه بحسب أحوالهم، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصًا من الأميين، أهل الشرك والجهل المبين»[(٤)].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥١.
(٢) زهرة التفاسير، ٤/ ٢٢٢٦-٢٢٢٧ بتصرف واختصار.
(٣) جامع البيان، ١٨/ ٦٧٨-٦٧٩ بتصرف يسير.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٤٥ باختصار.

﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾.

قال القاسمي: «أي: في ذلك الجعل والوضع والحوار في تنوعه في كل أمة، وعدم وحدته، أو في أمر ما جئتهم به؛ لأنهم جاهلون بحكمته سبحانه وتعالى في تكوين الأمم وتربيتها بالشرائع المناسبة لزمنها ومكانها، وحياتها ومنشئها»[1].

فلكل زمان ما يليق به من الشرائع التي تناسب من فيه في تلك الحقبة.

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

قال النيسابوري في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾ أي: «موضعًا أو وقتًا يذبح فيه النسائك أي: الذبائح لوجهه على جهة التقرب، وجعل الغاية في ذلك هي أن يذكر اسمه على نحرها، ثم بين العلة في تخصيص اسمه بذلك قائلًا: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾»[2]، أي: فإن معبودكم واحد، وإن اختلفت العبادات بحسب الأزمنة والأمكنة، ونسخ بعضها بعضًا، فما المقصد منها جميعًا إلا عبادة الله وحده لا شريك له[3].

وإنما اختلفت التكاليف باختلاف الأزمنة والأشخاص؛ لاختلاف المصالح، لا لتعدد الإله[4].

والخلاصة في القول: أن النسك يختلف باختلاف الشرائع والأمم، فلكل أمة منسكًا هم ناسكوه.

(١) محاسن التأويل، ٧/ ٢٧٣ بتصرف واختصار.
(٢) غرائب القرآن، ٥/ ٨١ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير المراغي ١٧/ ١١٣.

(٤) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٥/ ٨١.

الأمة المحمدية

من سنة الله في خلقه سنة التفاضل، فقد خلق سبع سماوات ثم اختار سابعها، وخلق الملائكة واصطفى منهم جبريل، وخلق الأرض وكرم منها مكة، وخلق البشر واصطفى منهم الرسل، وكذلك خلق الأمم واصطفى منهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وسيتم الحديث عن اصطفاء الله لهذه الأمة من خلال النقاط الآتية:

أولًا: دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

أخبر الله عز وجل عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وما كانا يفعلان في بناء البيت، وما كانا يقولان وهما يبنيان، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

قال المراغي: «﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ أي: واذكروا إذ يرفع إبراهيم قواعد البيت وأساسه، وهذا نص في أنهما هما اللذان بنياه لعبادة الله في تلك البلاد الوثنية... ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أي: إن إبراهيم وإسماعيل كانا يقولان في دعائهما وهما يرفعان قواعد البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: ربنا أنت السميع لدعائنا، العليم بنياتنا في جميع أعمالنا»[١].

وفي الآية دليل: أن الإنسان إذا عمل خيرًا ينبغي أن يدعو الله بالقبول، ويقال: ينبغي أن يكون خوف الإنسان على قبول العمل بعد الفراغ أشد من شغله بالعمل، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧][٢].

وفي الآية كذلك تذكير للعرب بأن الذي بنى البيت هو أبوهم إبراهيم بمعونة ابنه إسماعيل؛ ليجذبهم بذلك إلى الاقتداء بسلفهم الصالح الذي ينتمون إليه ويفاخرون به، وقد كانت قريش تنتسب إلى إبراهيم وإسماعيل، وتدعى أنها على ملة إبراهيم، وسائر العرب في ذلك تبع لقريش[٣].

وقال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي: «مخلصين لك، من أسلم وجهه، أو مستسلمين من أسلم، إذا استسلم وانقاد، والمراد: طلب الزيادة في

(١) تفسير المراغي ١/ ٢١٥ باختصار.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٩٣.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١/ ٢١٥.

الإخلاص والإذعان، أو الثبات عليه»[1]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾.

قال ابن عاشور: «وهذا دعاء ببقاء دينهما في ذريتهما، ﴿وَمِن﴾ في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾؛ للتبعيض، وإنما سألا ذلك لبعض الذرية؛ جمعًا بين الحرص على حصول الفضيلة للذرية وبين الأدب في الدعاء؛ لأن نبوءة إبراهيم تقتضي علمه بأنه ستكون ذريته أممًا كثيرة، وأن حكمة الله في هذا العالم جرت على أنه لا يخلو من اشتماله على الأخيار والأشرار، فدعا الله بالممكن عادة، وهذا من أدب الدعاء»[2].

وقيل: أراد بالأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم[3].

وكل قوم نسبوا إلى نبي فأضيفوا إليه فهم أمته، وكل جيل من الناس أمة على حدة[4]، ويقال: إنه لم يدع نبي إلا لنفسه ولأمته إلا إبراهيم فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأمته لهذه الأمة[5].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قال البيضاوي: «﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ متعبداتنا في الحج، أو مذابحنا، والنسك في الأصل غاية العبادة، وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة، ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآ﴾ استتابة لذريتهما، أو عما فرط منهما سهوًا، ولعلهما قالا هضمًا لأنفسهما وإرشاد لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن تاب»[6].

وفائدة تكرير النداء بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾؛ إظهار الضراعة إلى الله تعالى وإظهار أن كل دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات، ولذلك لم يكرر النداء إلا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى، فإن الدعوة الأولى لطلب تقبل العمل والثانية لطلب الاهتداء[7].

وقول إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ يدل على أن الإسلام والإيمان سواء؛ إذ لم يسألا إلا أعلى الرتب وأشرف المنازل، وهو الإيمان الذي هو الإسلام[8].

وقال الطبري في تأويل قوله تعالى: «﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقول: (أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى

(١) أنوار التنزيل، ١/ ١٠٦.
(٢) التحرير والتنوير، ١/ ٧٢٠.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٠٦.
(٤) الوسيط، الواحدي ١/ ٢١١.
(٥) النكت والعيون، للماوردي ١/ ١٩١.
(٦) أنوار التنزيل، ١/ ١٠٦.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧١٩.
(٨) الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٤٤٤.

عيسى﴾(١)(٢).

وطلبا في ذلك الموقف أن يكون الرسول ﴿مِنْهُمْ﴾؛ ليكونوا أسكن إليه وأسهل عليهم(٣).

وقد أجاب الله دعاءهما وكون منهم أمة كانت خير الأمم، سادت العالم وملكت المشارق والمغارب ردحًا من الزمان، وكان فيها رجال حفظ لهم التاريخ صادق بلائهم، وعظيم سياستهم للشعوب التي انضوت تحت لوائهم، بما لم تجارهم فيه أرقى الأمم مدنية في عصرنا، عصر الرقي والحضارة(٤).

ثانيًا: وسطية الأمة المحمدية:

شرف الله تعالى هذه الأمة وفضلها بأن جعلها أمة وسطًا بين الأمم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣]، والوسط في كلام العرب: الخيار، يقال منه: فلان وسط الحسب في قومه، أي: متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه، وهو وسط في قومه وواسط(٥).

قال أبو نخيلة(٦):

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم
إذا طرقت إحدى الليالي بمعظم

وللمفسرين في هذه الآية معان عدة نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

قال الإمام الطبري رحمه الله: «ومعنى الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء، الذي هو بين الطرفين، مثل: وسط الدار، وإنما وصفهم بذلك؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، كغلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، كتقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك؛ إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها»(٧).

وقال ابن كثير رحمه الله: «والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطًا في قومه، أي: أشرفهم نسبًا، ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٧٩، رقم ١٧١٥٠.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٥/ ١٠٢، رقم ٢٠٨٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٨٢.
(٣) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٢٦.
(٤) انظر: تفسير المراغي ١/ ٢١٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤١.
(٦) البيان والتبيين، الجاحظ ٣/ ١٥٣.
(٧) جامع البيان، ٣/ ١٤٢ بتصرف.

﴿عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]»[١].

وقال السعدي رحمه الله: «﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عدلًا خيارًا، ، فجعل الله هذه الأمة، وسطًا في كل أمور الدين، وسطًا في الأنبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم الطيبات، عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئًا، ولا يحرمون شيئًا، بل أباحوا ما دب ودرج، بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها»[٢].

وقال سيد قطب في تفسير هذه الآية: «وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط، سواء من الوساطة بمعنى: الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى: الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي والحسي، أمة وسطًا في التصور والاعتقاد، أمة وسطًا في التفكير والشعور، أمة وسطًا في التنظيم والتنسيق، أمة وسطًا في الارتباطات والعلاقات، أمة وسطًا في الزمان، أمة وسطًا في المكان... وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها، إلا أنها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها، واتخذت لها مناهج مختلفة، ليست هي التي اختارها الله لها»[٣].

وسبب نزول هذه الآية كما قال ابن الجوزي: «أن اليهود قالوا: قبلتنا قبلة الأنبياء، ونحن عدل بين الناس، فنزلت هذه الآية»[٤].

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ؛ لإطلاق قوله: ﴿وَسَطًا﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ، لم يكونوا وسطًا، إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك، وفيها اشتراط العدالة في الحكم، والشهادة، والفتيا، ونحو ذلك[٥].

ثالثًا: خيرية الأمة:

وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأمة

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٤٥٤ باختصار.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٠.
(٣) في ظلال القرآن، ١/ ١٣١-١٣٢.
(٤) زاد المسير، ١/ ١١٩.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧١.

بأنها خير الأمم، حيث قال جل شأنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال الماتريدي: «وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، يحتمل معناها وجوهًا:

يحتمل: ﴿كُنتُمْ﴾: أي: صرتم خير أمة أظهرت للناس؛ بما تدعون الخلق إلى النجاة والخير.

ويحتمل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ في الكتب السالفة؛ بأنكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر.

ويحتمل: تكونون خير أمة إن أمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر.

﴿كُنتُمْ﴾: صرتم خير أمة، وكانوا كذلك هم خير ممن تقدمهم من الأمم؛ بما بذلوا مهجهم لله في نصر دينه، وإظهار كلمته، والإشفاق على رسوله، حتى كان أحب إليهم من أنفسهم؛ ويرونه أولى بهم»[١].

وأصل الخطاب في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يعم سائر أمته[٢]، وإنما صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة؛ لأن المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى[٣].

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم -ثم ذكر كلام السلف في تأويل هذه الآية- بأن المعنى: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾... ثم قال: والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم... وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبيًا قبله ولا رسولًا من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه[٤].

ولكن هذه الخيرية التي فرضها الله لهذه الأمة إنما يأخذ بحظه منها من عمل هذه الشروط من الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) تأويلات أهل السنة، ٢/ ٤٥٠ - ٤٥١ بتصرف يسير.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٥٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٧١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٩٣-٩٤.

المنكر والإيمان بالله[١].

فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: «بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها رأى من الناس سرعة، فقرأ هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ثم قال: من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها»[٢].

وقد ذكر أن سبب نزول هذه الآية: «أن مالك بن الصيف ووهب بن يهودا اليهوديين قالا لعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة: نحن أفضل منكم وديننا خير من دينكم الذي تدعوننا إليه فأنزل الله هذه الآية»[٣]، والخلاصة: إن هذه الخيرية لا تثبت لهذه الأمة إلا إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة، فإذا تركتها لم تكن لها هذه المزية.

والآية تدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوام الأمم، ولا صلاح لهم إلا إذا قاموا بحقه، فالأمم تصلح بالأمر بالمعروف، وتفسد بتركه، ولهذا قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر، مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات، ولأنهما كذلك سياج الإيمان وحفاظه، فكان تقديمهما في الذكر موافقًا للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدمًا عليه[٤]. وقد استدل بهذه الآية على أن إجماع هذه الأمة حجة؛ لأنها لو لم تحكم بالحق، لم تكن خيرًا من المبطل؛ ولأن اللام في ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وفي ﴿ٱلْمُنكَرِ﴾؛ للاستغراق فيقتضي كونهم آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر، فيكون إجماعهم حقًا[٥].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٨٩.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٧/ ١٠٢.
(٣) لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٨٤.
(٤) انظر: تفسير المراغي ٤/ ٣٠، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٣٢٠.
(٥) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٢٣٤.

آجال الأمم

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، هذه هي سنة الله تعالى في إرسال رسله للبشرية؛ ليهدوهم إلى صراط مستقيم الذي يجمع كلمتهم ويوحد صفهم، وقد وعد الله تعالى بالنعيم المقيم لكل أمة استجابت لرسولها وآمنت به، وتوعد كل أمة كذبت رسولها بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فكانت هذه هي آجال الأمم المرسومة في كتاب الله تعالى، وهذا ما سنوضحه بشيء من التفصيل فيما يأتي:

أولًا: لكل أمة أجل:

ذكر الله جل وعلا في كتابه الكريم بأن لكل أمة أجلًا، وأنه لا يسبق أحد أجله المحدد له، ولا يتأخر عنه.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

قال الخازن في هذه الآية: «قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الأجل: الوقت المؤقت لانقضاء وقت المهلة، ثم في هذا الأجل المذكور في الآية قولان:

أحدهما: أنه أجل العذاب، والمعنى: أن لكل أمة كذبت رسله وقتًا معينًا، وأجلًا مسمى أمهلهم الله إلى ذلك الوقت ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ يعني: إذا حل وقت عذابهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يعني: فلا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا أقل من ساعة، وإنما ذكرت الساعة؛ لأنها أقل أسماء الوقت في العرف، وهذا حين سألوا نزول العذاب، فأخبرهم الله تعالى أن لهم وقتًا إذا جاء ذلك الوقت هو وقت إهلاكهم واستئصالهم، فلا يؤخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

والقول الثاني: أن المراد بهذا الأجل هو أجل الحياة والعمر، فإذا انقضى ذلك الأجل وحضر الموت، فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ساعة، وعلى هذا القول يلزم أن يكون لكل واحد أجل لا يقع فيه تقديم ولا تأخير، وإنما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾؛ لتقارب أعمار أهل كل عصر، فكأنهم كالواحد في مقدار العمر»[1].

وأما ابن عاشور فقال في هذه الآية: «وليس المراد في الآية، بأجل الأمة، أجل أفرادها، وهو مدة حياة كل واحد منها؛ لأنه لا علاقة له بالسياق، ولأن إسناده إلى الأمة يعين أنه أجل مجموعها لا أفرادها، ولو أريد آجال الأفراد لقال: لكل أحد أو لكل حي

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٩٦.

أجل﴾[1].

والأجل يطلق على مدة الإمهال، ويطلق على الوقت المحدد به انتهاء الإمهال، ولا شك أنه وضع في الآية لأحد الأمرين، ثم استعمل في الآخرة على تأويل منتهى المدة، أو تأخير المنتهى، وشاع الاستعمالان.

فعلى الأول: يقال: قضى الأجل، أي: المدة، كما قال تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص: ٢٨].

وعلى الثاني: يقال: دنا أجل فلان.

وقوله تعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾[الأنعام: ١٢٨]، والواقع في هذه الآية يصح للاستعمالين بأن يكون المراد بالأجل الأول المدة، وبالثاني الوقت المحدد لفعل ما[2]، والغرض من ذكر الأجل هو التخويف؛ ليتشدد المرء في القيام بالتكاليف كما ينبغي[3].

وذكر عموم الأمم في هذا الوعيد، مع أن المقصود هم المشركون من العرب الذين لم يؤمنوا، إنما هو مبالغة في الإنذار والوعيد بتقريب حصوله كما حصل لغيرهم من الأمم على طريقة الاستشهاد بشواهد التاريخ في قياس الحاضر على الماضي، فيكون الوعيد خبرًا معضودًا بالدليل والحجة، كما قال تعالى في آيات كثيرة منها: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[آل عمران: ١٣٧][4].

وخلاصة معنى الآية: إن لكل أمة أجلًا لا يتأخرون عنه إذا جاء، ولا يتقدمون عليه أيضًا ، فيهلكوا قبل مجيئه، وينحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥].

ثانيًا: نهاية الأمم:

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم ما حل بالأمم السابقة من العذاب بسبب تكذيبهم رسلهم، وكفرانهم نعمه جل وعلا، وهذه من سنن الله الثابتة في هلاك الظالمين.

وقد ذكر الله جل وعلا نوعين من العذاب، حيث قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

فهذه الآية بينت نوعين من العذاب:

فالنوع الأول: الهلاك، ويقصد به الفناء والاستئصال[5].

والنوع الثاني: العذاب الشديد، ويقصد به القتل بالسيف أو الزلازل أو الأمراض أو الخوف أو غير ذلك[6]. وهذا ما يسمى بنهاية العطاء الحضاري.

(١) التحرير والتنوير، ٨/ ١٠٤-١٠٥.
(٢) المصدر السابق ٨/ ١٠٣-١٠٤.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٣٤.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٠٣.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٧٥.
(٦) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣١٧.

وسوف نبين هذين النوعين بشيء من التفصيل فيما يأتي:

١ . نهاية العطاء الحضاري.

وهو العذاب الذي لا يؤدي إلى زوال الأمة، كالنقص في الأموال والأنفس والشدة والقحط وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

قال القاسمي في تفسير هذه الآية: «﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: رسلًا، فكذبوهم ولم يبالوا؛ لكونهم في الرخاء، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: الشدة والقحط، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: المرض ونقصان الأنفس والأموال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون إليه من كفرهم ومعاصيهم، فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد»[١].

فأخذهم بالبأساء والضراء، أخذ ابتلاء واختبار، وذلك مفيد لهم؛ لأن سنة الله قد جرت بأنهم في مثل هذه الحال يتضرعون ويجأرون بالدعاء إلى ربهم، فالشدائد تربي النفوس وتهذب الأخلاق، فترجع المغرورين عن غرورهم، وتكف الفجار عن فجورهم[٢].

وهذا رحمة من الله تعالى بهم[٣].

٢ . نهاية استئصال.

وهو ذهاب الأمة برمتها بحيث يهلك أفرادها بعذاب ما، ولا يبقى منهم أحد، كما حدث لقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، ولكن يبقى من هؤلاء الصالحون.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

قال المراغي في تفسير هذه الآية: «كذبت قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب، فحلت بهم نقمتنا بعد بلوغ أمدهم، كما هي سنتنا في أمثالهم من المكذبين، كعاد وثمود ومن بعدهم، وكانوا في جدلهم على مثل الذي عليه قومك، فأهلكتهم واستأصلت شأفتهم، فلم أبق منهم ديارًا ولا نافخ نار، وصاروا كأمس الدابر، وإنكم لتمرون على ديارهم مصبحين وممسين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وهكذا سأفعل بقومك إن هم أصروا على الكفر والجدل في آيات الله.

وفي الآية تسلية لرسوله على تكذيب من

(١) محاسن التأويل، ٤/ ٣٥٩.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٧/ ١٢٣-١٢٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٥٦.

كذبه من قومه، وبأن له أسوة في سلفه من الأنبياء، فإن أقوامهم كذبوهم وما آمن منهم إلا قليل»[1]، وتهديد لمن جادل في آيات الله؛ ليبطلها، كما فعل من قبله من الأمم من قوم نوح وعاد والأحزاب من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق؛ ليبطلوه، وعلى الباطل؛ لينصروه[2].

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٤/ ٤٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٢.

الأمم يوم القيامة

جعل الله تعالى دار الدنيا دار عمل ومسابقة ومنافسة على طاعة الله تعالى، وأمهل فيها كل أمة مهلة كافية؛ لتؤمن فيها برسولها، وترى دلائل ربوبية الله تعالى وألوهيته، وصدق رسله ماثلة مبثوثة في آياته الكونية والشرعية، ثم جعل الله تعالى الحياة الآخرة دارًا يحاسب فيها كل أمة بعملها، ويقيم على كل أمة شهودًا على أن كل رسول قد أقام الحجة على أمته.

قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

أولًا: لكل أمة شهيد:

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن للأمم شهداء عليهم يوم القيامة، وشهداء الأمم أنبياؤهم، وسوف يشهدون عليهم بما عملوا.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

قال البغوي: «وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾، أي: فكيف الحال وكيف يصنعون إذا جئنا من كل أمة بشهيد، يعني: نبيها يشهد عليهم بما عملوا، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ شاهدًا

يشهد على جميع الأمة على من رآه ومن لم يره»[1].

وهذه الشهادة عبارة عن عرض أعمال الأمم على أنبيائهم، لا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين ومقابلة عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد الأنبياء وأعمالهم وأخلاقهم، فمن شهد لهم نبيهم بأنهم على ما جاء به وما أمر الناس بالعمل به فهم ناجون ومن تبرأ منهم أنبياؤهم؛ لمخالفة أعمالهم وعقائدهم لما جاءوا به فأولئك هم الخاسرون، وإن ادعوا اتباعهم والانتماء إليهم[2].

فجعل الله شهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق؛ لتكون الحجة على المسيء أبلغ، والتبكيت له أعظم، وحسرته أشد، ويكون سرور من قبل ذلك من الرسول، وأظهر الطاعة أعظم، ويكون هذا وعيدًا للكفار الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ووعدًا للمطيعين الذين قال الله فيهم ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠][3].

وجاء في الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ علي) قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري) فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: (حسبك الآن) فإذا عيناه تذرفان[4].

وبكاء النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان لعظيم ما تضمنته هذه الآية من هول المطلع وشدة الأمر؛ إذ يؤتى بالأنبياء شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب، ويؤتى به صلى الله عليه وسلم يوم القيامة شهيدًا[5].

قال ابن عاشور: «لا فعل أجمع دلالة على مجموع الشعور عند هذه الحالة من بكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه دلالة على شعور مجتمع فيه دلائل عظيمة: وهي المسرة بتشريف الله إياه في ذلك المشهد العظيم، وتصديق المؤمنين إياه في التبليغ، ورؤية الخيرات التي أنجزت لهم بواسطته، والأسف على ما لحق بقية أمته من العذاب على تكذيبه، ومشاهدة ندمهم على معصيته، والبكاء ترجمان رحمة ومسرة وأسف وبهجة»[6].

والخلاصة في معنى الآية: أن الله يأتي بالأنبياء شهداء على أممهم بما عملوا،

(١) معالم التنزيل، ١/ ٦٢٤.
(٢) تفسير المراغي ٥/ ٤٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٨٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك، ٦/ ١٩٦، رقم ٥٠٥٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٧.
(٦) التحرير والتنوير، ٥/ ٥٨.

ويؤتى بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم شهيدًا على أمته.

ثانيًا: شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته على الأمم السابقة:

لقد بينا فيما سبق، أن الله سبحانه وتعالى شرف هذه الأمة بأن جعلها أمة وسطًا بين الأمم، وذكرنا كلام المفسرين في معنى هذه الوسطية، وسوف نذكر -فيما يأتي- العلة من ذلك، كما أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣].

قال السعدي: «فإن شك شاك في فضل هذه الأمة، وطلب مزكيًا لها، فهو أكمل الخلق، نبيهم صلى الله عليه وسلم، فلهذا قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم، أنه إذا كان يوم القيامة، وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم استشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها»[١].

وقال ابن عاشور: «وأما شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، فهي شهادة بصدق المسلمين في شهادتهم على الأمم بأن رسلهم أبلغوا إليهم رسالات ربهم»[٢].

ومما يؤكد على شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته على الأمم السابقة، ما جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلغ:** ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣]، **فذلك قوله جل ذكره:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣])[٣].

وفي الآية ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ دليل على قبول شهادة أهل الإسلام على أهل الكفر، ورد شهادتهم علينا؛ لأنه لو قبلت شهادتنا عليهم على التبليغ، ثم شهد أولئك بأنهم لم يبلغوا، لكان فيه تناقض، فدل أن شهادتنا تقبل عليهم، ولا تقبل شهادتهم علينا. والله أعلم[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٠-٧١ بتصرف يسير.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٧٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطًا)، رقم ٤٤٨٧.

(٤) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ٥٨٤.

والخلاصة في القول: أن شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته على الأمم السابقة بتزكيته وتصديقه لأمته بما شهدت للأنبياء على أممهم بتبليغ الرسالة. والله أعلم.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على فضل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه الأمة على غيرها من الأمم.

ثالثًا: لا تحاسب أمة بذنب غيرها:

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن كل أمة مؤاخذة بعملها، ولا تحاسب أمة بذنب غيرها.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

قال السعدي: «﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: كل له عمله، وكل سيجازى بما فعله، لا يؤخذ أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحدًا إلا إيمانه وتقواه، فاشتغالكم بهم وادعاؤكم، أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد القول، أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم، أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟»(١).

و﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون(٢)، وسبب نزول هذه الآية أن اليهود والنصارى كانوا يقولون: نحن على دينهم، فقال لهم تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، أي: لا تقدرون عليهم فيشهدوا لكم، فلهم ما عملوا وإنما لكم ما تعملون، وإنما ينظر اليوم إلى أعمالكم، ولا ينفعكم من أعمالهم شيء(٣).

وقد ذكرت هذه الآية في موضع آخر في السورة نفسها.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

وتكرارها كما قال القرطبي: «لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي: إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى، فوجب التأكيد، فلذلك كررها»(٤).

وقال البيضاوي: «وتكريرها؛ للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم، وفي الآية تحذيرٌ لنا عن الاقتداء بهم»(٥).

وفي الآية سواء كانت الأولى أو الثانية دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٧.

(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٣٣.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٩٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ١٤٧.

(٥) انظر: أنوار التنزيل، ١/ ١١٠.

وأكساب، فالعبد مكتسب لأفعاله، وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك، فإن كان خيرًا فبفضله وإن كان شرًّا فبعدله، وهذا مذهب أهل السنة[1].

والخلاصة في القول: إن كل أمة تسأل عن عملها لا عن عمل غيرها، وكل يجازى بما فعله، لا يؤخذ أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحدًا إلا إيمانه وتقواه، وأن الاعتماد على أعمال الآباء، والافتخار بهم، والاتكال عليهم لا يجدي شيئًا.

رابعًا: دعوة الأمم لأخذ كتب أعمالها:

ذكر الله سبحانه وتعالى حال الأمم وهي تدعى إلى كتب أعمالها، حيث قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨].

قال ابن كثير: «﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على ركبها من الشدة والعظمة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ يعني: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ ولهذا قال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٣-١٥]»[2].

وقال المراغي: «بين الله تعالى حال الأمم في ذلك اليوم، وما تلاقيه من الشدائد؛ انتظارا لفصل القضاء، فقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ على ركبها؛ لشدة الهول والرعب، واستعدادًا لما تؤمر بها حين فصل القضاء ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ الذي أنزل عليها لتعبد ربها بهديه، وكتابها الذي نسخته الحفظة من أعمالها؛ ليطبق أحدهما على الآخر، فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا، ومن خالفه هلك وكان من الأخسرين أعمالًا، ثم ذكر أنهم ينذرون ويبشرون بما سيبنى عليه حكم القضاء، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ويقال لهم حال دعائهم: اليوم تجازون بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا خيرها وشرها»[3].

فكل أمة مدعوة إلى كتابها، الذي تحاسب به، على حسب شريعتها التي دعيت إليها، فلكل أمة شريعة، ولكل أمة حسابها على هذه الشريعة من حيث اتباعها والاستقامة عليها، أو تضييعها والخروج عنها[4].

والخلاصة في المعنى: إن كل أمة تدعى؛ لتعرض أعمالها على ما أمرت به في كتابها المنزل عليها من ربها، فإن وافق عملها كتاب ربها نجت، وإن خالف عملها كتاب ربها هلكت. والله أعلم.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٣٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٢٧١ باختصار.
(٣) تفسير المراغي ٢٥/ ١٦٢-١٦٣ باختصار.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢٥٢-٢٥٣.

خامسًا: تلاعن الأمم في النار:

أخبر الله جل ثناؤه عن تلاعن الأمم من أهل الملل الكافرة في النار يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

قال البغوي: «يقول الله تعالى لهم يوم القيامة: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي: مع جماعات ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ يعني: كفار الأمم الخالية، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ يريد: أختها في الدين لا في النسب، فتلعن اليهود اليهود والنصارى النصارى، وكل فرقة تلعن أختها، ويلعن الأتباع القادة، ولم يقل: أخاها؛ لأنه عنى الأمة والجماعة، ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا﴾ أي: تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار، ﴿جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ أي: آخرهم دخولًا النار وهم الأتباع ﴿لِأُولَاهُمْ﴾، أي: لأولاهم دخولًا وهم القادة؛ لأن القادة يدخلون النار أولًا، ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ عن الهدى، يعني: القادة ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: ضعف عليهم العذاب.

قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، يعني: القادة والأتباع ضعف من العذاب ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكل فريق منكم من العذاب»[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ دليل أن الكفار من الجن يعذبون، كما يعذب الكفار من الإنس[(٢)].

وفيها كذلك إيماء إلى أنه تعالى لا يسوق الكفار بأجمعهم إلى النار دفعة واحدة، بل يدخلهم أفواجًا، فيكون منهم سابق ومسبوق، ويشاهد الداخل من الأمة في النار من سبقه[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ يقول الماتريدي: «وسبب لعن الأتباع للمتبوعين؛ لما دعوهم إليه وصرفوهم عن دين الله، كقولهم: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾، ولعن المتبوعين للأتباع؛ لما يزداد لهم العذاب بكثرة الأتباع ويقدرهم؛ فيلعن بعضهم بعضًا، وفيها دليل على أن أهل الكفر -وإن اختلفوا في مذاهبهم- فهم إخوة وأخوات بعضهم لبعض، كالمؤمنين بعضهم إخوة وأخوات لبعض»[(٤)].

وقال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا

(١) انظر: معالم التنزيل، ٢/ ١٩١.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٤/ ٤١٨.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٨/ ١٤٨.
(٤) تأويلات أهل السنة، ٤/ ٤١٨.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مبينًا السبب في مطالبة الأتباع مضاعفة العذاب للمتبوعين: «لأنهم علموا أن الضلال سبب العذاب، فعلموا أن الذين شرعوا الضلال هم أولى بعقوبةٍ أشد من عقوبة الذين تقلدوه واتبعوهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١]»[١].

والخلاصة في القول: أن الأمم الكافرة من أهل النار يوم القيامة يلعن بعضهم بعضا، ويعادي بعضهم بعضًا؛ لأنهم ضل بعضهم باتباع بعض.

موضوعات ذات صلة:

الاجتماع، الاختلاف، العلاقات الاجتماعية، الوحدة

(١) التحرير والتنوير، ٨/ ١٢٢-١٢٣.